انجي جاعل في الأرض خليفة

صدق الله العظيم

عمرو خالد

200

دار المعرفة
بيروت - لبنان

http://www.maktbtna2211.com/

كتب صدرت للمؤلف:

- عبادات المؤمن (صدر باللغة الفرنسية)
- أخلاق المؤمن (صدر باللغة الفرنسية)
- الصبر والذوق (صدر باللغة الفرنسية)
- كلام من القلب
- حتى يغيروا ما بأنفسهم
- قراءة جديدة ورؤية في قصص الأنبياء

www.amrkhaled.net

مكتبة جرير
JARIR BOOKSTORE
12

التوزيع

المركز الثقافي العربي: الدار البيضاء ـ المغرب
هاتف: 00212-22-307651

مكتبة أسامة بن زيد: حلب ـ أقيول ـ سوريا
هاتف: 00963-21-3639140

ISBN 9953-85-013-5

دار المعرفة
للطباعة والنشر
هاتف: 834301 ـ 834332 ـ 01 858830
فاكس: 01 835614 ص.ب: 7876/11 بيروت ـ لبنان
البريد الالكتروني e-mail: info@marefah.com
www.marefah.com

إني جاعلٌ في الأرضِ خليفة

صدق الله العظيم

عمرو خالد

دار المعرفة
بيروت .. لبنان

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

إني جاعل في الأرض خليفة

كان الله ولم يكن معه شيء

قبل آدم، قبل الملائكة، قبل السمٰوات والأرض، لنبدأ بالحديث عن الله ﷻ: «**كان الله وحده**».

لا سماء، لا أرض، لا بحار، لا مجرّات، لا كواكب، لا نجوم، لا هواء، لا ماء، لا شيء، كان الله وحده. ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ۝١﴾ [الإنسان: 1]، نعم يا رب جاء علينا وقت لم نكن شيئاً مذكوراً، «**كان الله وحده**».

جاء وفد اليمن إلى النبي ﷺ وقالوا: يا رسول الله، جئناك نتفقه بالدين، وجئنا نسألك عن أول هذا الأمر، أي: بداية هذا الكون، فقال لهم النبيّ ﷺ: «**كان الله ولم يكن معه شيء ولم يكن هناك غيره**»[1]. رواه البخاري.

فأمام كل ما وصلنا إليه من تكنولوجيا نبقى لا شيء. كل هذا

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3191).

جديد على الكون، فهل عرفت معنى قول الله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيۡءٖۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ وَكِيلٞ ٦٢﴾ [الزمر: 62]. فهل تشعر الآن معنى قوله: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ﴾ [الزمر: 67].

عن عبد الله بن عمر ﷺ قال: صعد رسول الله ﷺ مرة إلى المنبر، فقال: ﴿وَمَا قَدَرُواْ ٱللَّهَ حَقَّ قَدۡرِهِۦ وَٱلۡأَرۡضُ جَمِيعٗا قَبۡضَتُهُۥ يَوۡمَ ٱلۡقِيَٰمَةِ﴾»، وهو يخطب بأعلى صوته: «**يمجد الله تعالى نفسه فيقول: أنا القوي أنا العزيز، أنا الجبار، أنا الأول، أنا الآخر، أنا المبدىء أنا المعيد**»[1]. ويقول عبد الله بن عمر ﷺ: فرأيت رسول الله ﷺ يصدع بأسماء الله تعالى حتى رأيت المنبر يرجف برسول الله ﷺ. ـ الخشب خَشِعَ، الخشب أحس بجلال الله تبارك وتعالى ـ حتى قلتُ: النبيّ سيسقط من على المنبر، فجئت تحت المنبر خشية أن يسقط النبيّ ﷺ.

فنحن أين كنا؟ عدم، الكون أين كان؟ عدم. كان الله ولم يكن معه شيء. والكون كله الذي نراه الآن كان في حالة سكون، حتى نُفِخَ في سيدنا آدم، وبدأت الحياة.

بدأ العمل، بدأ آدم يزرع وينتج، وسينتهي الكون بماذا؟ بنفخة أيضاً.

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في (الحديث: 2/ 72)، وذكره **ابن كثير** في «تفسيره» (7/ 105).

سبحان الله! بدأ الكون بنفخة في آدم وسينتهي بنفخة أيضاً: ﴿وَنُفِخَ فِي ٱلصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ﴾ [الزمر: 68].

وينادي الله تبارك وتعالى: من بقي؟ فيقول: بقي جبريل وميكائيل وعبدُك ملك الموت يا رب. فيأمر بروح ميكائيل فتُقبَض، ويأمر بروح جبريل فتُقبَض، فيقول: «**من بقي؟**»، فيقول: عبدك يا رب، فيقول: «**اقبض روحك**». فينادي الله تبارك وتعالى: ﴿لِّمَنِ ٱلْمُلْكُ ٱلْيَوْمَ﴾ [غافر: 16]، فلا يجيب أحد لأنه لا يوجد أحد. فيجيب الله تبارك وتعالى: ﴿لِلَّهِ ٱلْوَٰحِدِ ٱلْقَهَّارِ﴾، فهل عرفت الآن معنى اسم الله الأول والآخر.

انظر حديث النبيّ ﷺ: «**اللهم أنت الأول فليس قبلك شيء، وأنت الآخر، ليس بعدك شيء، وأنت الظاهر فليس فوقك شيء، وأنت الباطن فليس دونك شيء**»[1].

فهل عرفت معنى المبدىء المعيد؟ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى يَبْدَؤُا۟ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥ وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ﴾ [الروم: 27]. يبدأ خلق كل شيء، الهواء، الماء، الرياح، الرمال، الكواكب، النجوم، المحيطات.

هذا اسم الله الواحد الخالق، كل هذا وآدم لم يُخلَق بعد، أكلّ هذه من أجلنا يا رب؟

ويقول النبيّ ﷺ: «**ما السماء الأولى في السماء الثانية إلا كحبة**

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 1/ 524).

في صحراء، وما الثانية في الثالثة إلا كحبة في صحراء، وما الثالثة في الرابعة إلا كحبة في صحراء، وما السابعة في الكرسي إلا كحبة في صحراء ﴿وَسِعَ كُرْسِيُّهُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ﴾ وما الكرسي في العرش إلا كحبة في صحراء، وما العرش في كف الرحمٰن إلا كحبة في صحراء»[1].

فكم حجمك أنت حتى تقول له: لا، لن أطيعك.

ادخل على الله بمبدأ الطاعة والتذلل، يا رب سوف أطيعك ولن أعصيك أبداً، انس قيمة نفسك، انظر إلى الله ﷻ فقط، ولا ترى أحداً سواه.

قدّر فيها أقواتها

وقبل خلق آدم قسَّم الله الأرزاق على العباد. وقدّر الأقوات في الأرض. يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ أَئِنَّكُمْ لَتَكْفُرُونَ بِٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْأَرْضَ فِى يَوْمَيْنِ وَتَجْعَلُونَ لَهُۥٓ أَندَادًا ذَٰلِكَ رَبُّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩﴾ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾ [فصلت: 9، 10].

لكن تذكّر ليس معنى هذا أن لا نعمل، بل هي دعوةٌ للعمل، فلا تغضب لأنك قليل الرزق؛ لأن الله سبحانه وتعالى: ﴿وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا﴾ [فصلت: 10].

وتَذَكّر أن العبرة في البركة، وليست العبرة في الأرزاق، فقد يؤتيك مالاً كثيراً بغير بركة، وقد يؤتيك مالًا قليلًا كله بركة، من

(1) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (الحديث: 3/ 298).

أجلِ ذلك وضعت آية البركة قبل الأقوات. ﴿وَأَوْحَىٰ فِي كُلِّ سَمَآءٍ أَمْرَهَا﴾ [فصلت: 12]، توضع القوانين في الأرض من أجلك يابن آدم.

ويأمر الله الكون بالخضوع قبل خلق آدم: ﴿فَقَالَ لَهَا وَلِلْأَرْضِ ٱئْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11].

اخضع لله هكذا يا عبد! قل له: ليس لي أحدٌ سواك. ويبدأ الكون كله بتسبيحه سبحانه وتعالى: ﴿تُسَبِّحُ لَهُ ٱلسَّمَٰوَٰتُ ٱلسَّبْعُ وَٱلْأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَىْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ وَلَٰكِن لَّا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُۥ كَانَ حَلِيمًا غَفُورًا﴾ [الإسراء: 44]، ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ يَسْجُدُ لَهُۥ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ ﴿١٨﴾﴾ [الحج: 18].

من ملايين السنين والكون خاضع لله تعالى: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ﴾ [يس: 40].

فلنتعلم منذ اليوم عبادة رائعة جداً، عبادة الخضوع لله، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ أَنتُمُ ٱلْفُقَرَآءُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ هُوَ ٱلْغَنِيُّ ٱلْحَمِيدُ ﴿١٥﴾﴾ [فاطر: 15]، والرسول ﷺ كان يدعو الله: «**اللهم إني عبدك وابن عبدك، وابن أمتك، ناصيتي بيدك، ماضٍ فيّ حكمك، عدلٌ فيّ قضاؤك**»[1] تعلّم الخضوع من سيدنا موسى عليه السلام: ﴿رَبِّ إِنِّي لِمَآ أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ﴾ [القصص: 24]، وقال سبحانه وتعالى عن أهل بدر ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ ٱللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ﴾ [آل عمران: 123]، أي عندما أحسوا واستشعروا بمعنى الخضوع لله ﷻ، نَصرهم.

خُلِق الكون فخضع وسجد لله تعالى، وكل ذلك تمهيداً

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 391)، و(الحديث: 1/ 452).

لخلقك. . . تمهيداً ليبين لك كيف تعبده وتلجأ إليه.

فالجأ الى الله تجده دائماً أمامك ويكن لك خير ناصر.

الكون أصبح مهيّأ لخلق آدم وعمارة الأرض

أحبائي لقد خلق الله ﷻ هذا الكون، ومهّده لنعيش فيه بسلام، لا ينقصنا سوى السعي وراء الرزق الذي أعدَّه الله لنا، فالكون أصبح الآن مهيأ لخلق آدم ولعمارة الأرض.

وقبل هذا كله، «**كان الله ولم يكن معه شيء**»[1]. فخلِقت الجبال والبحار والهواء والمجرات وكلٌ يهيىء الحياة لآدم ونسله، وكُتب كذلك الخضوع على الأرض والسمٰوات لله ﷻ بكل ما فيهما ﴿قَالَتَآ أَتَيْنَا طَآئِعِينَ﴾ [فصلت: 11]، ووضعت القوانين العلمية كلها من أجل هذا الكون وساكنه من بعده. يبدأ التسبيح والإجلال لله تبارك وتعالى.

حاول أن تتخيل أنك كنت موجوداً وقتئذٍ، ترفع رأسك فترى السماء أصبحت فوقك وفجأة ترى الجبال قد تَكَوّنَت، وكذلك البحار، كل شيء، وتستغرب أن الكون كله يسبّح لله ﷻ، والعجب أنك أنت لا تُسبح له سبحانه وتعالى.

كل هذا وآدم لم يُخلق بعد.

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3191)، وأخرجه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 9/ 3)، وأخرجه **الطبراني** في «المعجم الكبير» (الحديث: 18/ 205).

خلق الأمور المعنوية

تبقى أشياء معنوية ستُهيأ قبل خلق آدم أيضاً، فما هي هذه الأشياء؟

١ ــ الرَّحم:

قالت الرحم عندما تعلقت بالعرش: « **يا رب، هذا مقام المستجير بك من القطيعة**». فانتبهوا إلى صلة الأرحام، يا إخواني. «**فقال الله ﷻ: ألا ترضين أن أصل من وصلِك وأقطَع من قطعِك؟ فقالت: بلى رضيت يا رب، قال: فلكِ ذلك**»، ثم قرأ النبيّ ﷺ: «﴿فَهَلْ عَسَيْتُمْ إِن تَوَلَّيْتُمْ أَن تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ وَتُقَطِّعُوٓا۟ أَرْحَامَكُمْ ﴿٢٢﴾﴾» [محمد: 22]، فتخيل تلك الصلة بين الفساد في الأرض وتقطيع الأرحام! ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ لَعَنَهُمُ ٱللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰٓ أَبْصَٰرَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمد: 23].

ويقول النبيّ ﷺ: «**إن للرحم لساناً تحت العرش يوم القيامة تقول: يا رب، قُطِّعت، يا رب: ظُلِمت، يا رب: أوذِيت، فيقول الله تبارك وتعالى: أما ترضين أن أصل من وصَلك وأن أقطع من قطعك؟ فتقول: بلى يا رب، فيقول: لكِ ذلك**»[1].

تخيل، الكلام ذاته الذي قيل لها منذ بداية الخلق، سيقال لها عند انتهاء الخلق يوم القيامة.

هل تسمع هذا الكلام؟

---

(1) ذكره السيوطي في «الدر المنثور» (الحديث: 6/ 64).

٢ ــ باب التوبة:

خلق الله قبل آدم باباً يقال له: باب التوبة. وقد أخبر عنه رسول الله ﷺ في حديثه: «**لما خلق الله السمٰوات والأرض خلق باباً عرضه مسيرة سبعين عاماً تركه مفتوحاً، خلقه من جهة المغرب**»، فقال النبيّ ﷺ: «**أتدرون ما الباب؟**»، فقالوا: لا يا رسول الله، قال: «**الباب هو التوبة**»[1].

تصور، عرضه سبعين سنة، وماذا فعلت أنت حتى لا يسعك هذا الباب؟!

ولماذا من جهة المغرب؟ لأن الشمس تطلع من المشرق، فحين تطلع الشمس من المغرب يُسد هذا الباب ويحجب عن المتأخرين في التوبة، ألم يقشعر بدنك لمثل هذا الكلام بعد؟

تخيل، صلة الرحم، التوبة، وأنت لم تخلَق بعد. تب إلى الله من كل الذنوب تب... تب إلى الله.

٣ ــ الرحمة:

لما خلق الله السمٰوات الأرض، خلق شيئاً أكبر منهما بمئة مرة، خلق الرحمة، وجعل كل رحمة مثل ما بين السماء والأرض، فهي مئة رحمة.

الله... كم أنت كريم يا ربّ، فهل عرفت معنى اسم الله الغفّار، الرحمٰن؟ صاحب الأسماء الحسنى كلها.

---

(1) ذكره **الطبري** في «تاريخه» (1/ 73).

وبعد أن خلق الله الكون كله، كتب كتاباً وهو عنده فوق العرش، كُتب فيه: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1]. سبحانه وتعالى، الحمد لله أننا عبيد لربنا. الحمد لله الذي منَّ علينا بباب التوبة.

أمور حسية وأخرى معنوية، كل ذلك هيأه الله لهذا المخلوق العظيم، آدم، ألهذه الدرجة أنت غالٍ وعزيز على الله؟ خلق الله الشمس والهواء والجبال والماء، كل ذلك من أجلك.

---

(1) أخرجه البخاري في (الحديث: 3194)، وأخرجه مسلم في (الحديث: 6903).

خلق آدم

ويُخلَق آدم... وكلُّنا يعلم قصة خلق آدم. خلقه الله من طين، ثم نفخ فيه من روحه، فخلق منه حواء، وأمر الملائكة ومعهم إبليس بالسجود تحيةً له، إلا أن إبليس أبى واستكبر، ووسوس له بأن يأكل من الشجرة التي نهاه الله عنها، ثم أخرجه ﷺ من الجنة بعدما أكل من الشجرة.

قصة آدم عليه السلام هذه قصة الإنسان، قصة تكوين البشرية.

الخلق الشكلي لآدم

قال تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ ۖ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِى عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ ۚ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٥﴾﴾ [النور: 45]، واختار الله أن نكون ممن يمشي على رجلين لا على بطنٍ ولا على أربعة أرجل، وهذه أول ميزة خصنا الله بها عن سائر مخلوقاته، فإن هامتك مرفوعة، أنت مهيَّأ لتقود الأرض، من أجل ذلك عندما ترفع رأسك من الركوع والسجود تشكر الله وتحمده على أن هامتك مرفوعة فهو ﴿ٱلَّذِى خَلَقَكَ فَسَوَّىٰكَ فَعَدَلَكَ ﴿٧﴾﴾ [الانفطار: 7]، أنت مخلوق مكرَّم، فلا تذل نفسك أو تنكسها. يديك حرة، لماذا؟ لتصنع وتبدع، لأنك

أنت من سيقود الأرض. فأين إبداعاتكم؟ أين إنتاج أيديكم؟

ورد في القرآن الكريم آيات في خلق آدم منها: أن بداية خلق آدم كان من تراب، وفي آية من طين، وفي آية أخرى من طين لازب، وفي آية من صلصال من حمإٍ مسنون، وغيرها من صلصال كالفخار.

والحقيقة أن آدم خُلِق على مراحل، خُلِق من كل هذه الأشياء. فلم يكن خلق آدم: كن فيكون، خُلِق آدم على سبع مراحل، كل مرحلة تسلِّم مرحلة.

* **المرحلة الأولى**: من تراب.

«خلق الله آدم من قبضة قبضها من جميع تراب الأرض، فجاء بنو آدم على قدر الأرض، فجاء منهم الأبيض والأحمر والأسود، وجاء منهم السهل والحَزَن والخبيث والطيب»[1]. رواه الترمذي. أترى التحليل النفسي لبني آدم مع الجيولوجيا، كلام الرسول ﷺ الذي لا ينطق عن الهوى، إن هو إلّا وحيٌ يوحى.

وتعلم أنك لو أخذت قطعةً من جلد لبني آدم، وقبضة من التراب وحللتها كيميائياً لرأيتها تتكون من نفس العناصر، اثنان وتسعون عنصر هنا، واثنان وتسعون عنصر هنا، ما يميز بينهما النسب فقط. ولذلك سمي آدم: بآدم؛ لأنه من أديم الأرض.

---

(1) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 4693)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2955)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 4/ 400)، و(الحديث: 6/ 406).

أنت ضعيف يابن آدم، أنت من تراب، من أجل ذلك أقول لك: اخضع له، تذلل له في كل ساعة، من يتخيل أن التراب سيتكلم، وسيصعد إلى السماء؟

حديث قدسي: «**من تواضع لي هكذا**» وجعل النبيّ ﷺ يخفض يده إلى الأرض: «**رفعته هكذا**»[1]، وجعل النبيّ يرفع يده إلى السماء، اخضع وتذلل لله ﷻ.

يقول النبيّ ﷺ: «**يا عائشة، لو شئت لسارت معي جبال الذهب**»، قالت: ولِمَ لا يا رسول الله؟ قال: «**يا عائشة، قد جاءني ملك فقال لي: يا محمد، ربك يقرئك السلام، ويقول لك: إن شئت ملِكاً نبياً وإن شئت عبداً نبياً، فنظرت إلى جبريل، فأشار إليّ أن تواضع، فقلت: بل عبداً نبياً**»[2]. صلّى الله على محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

والخضوع هذا ليس بالشكل، بل بالنفس، من أجل ذلك، فأول تركيبة أنت منها: أنك ضعيف، تراب يقول لله: لا لن أصلي؟ تراب يقول لله: لا لن أضع الحجاب، تراب يقول لله: لا لن أطيعك؟ تراب؟!

* **المرحلة الثانية**: من طين.

دُمِج التراب بالماء فأصبح طيناً، ﴿إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 44).

(2) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 231)، أخرجه البغوي في «السنة» (الحديث: 5/ 95).

خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾﴾ [صٓ: 71]، أتعلم سر خلقك من تراب وماء؟ لماذا ليس حديد وزيت؟ أو مطاط؟ ذلك لأن التراب والماء أطهر عنصرين على وجه الأرض، فأنت تتوضأ بالماء ، وتتيمَّم بالتراب، كأن الله يريد أن يقول لك: أنت طاهر يا إنسان.

الذي ينظر إلى مشاهد دنيئة على محطات التلفزة ينجِّس الطهارة، الذي يتكلم بألفاظ بذيئة ينجس الطهارة، الذي يزني ينجِّس الطهارة، مع أن معدنك من الداخل طاهر، تخيل. ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ مِنَ ٱلْمَآءِ بَشَرًا فَجَعَلَهُۥ نَسَبًا وَصِهْرًا﴾ [الفرقان: 54]، والماء رمز الصفاء، فما العلاقة بين الماء والأزواج؟! ذلك لأن الماء رمز الصفاء. والمؤمن لين هين سهل.

ولذلك إبليس كان غبياً عندما قال: ﴿خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [صٓ: 76]، فالنار تُتلِف وتُهلِك، والطين رمز الصفاء والنماء، النار رمز الطيش والحدة، والطين السكون والثبات. فالنار مهما كان فيها من منفعة، فالشر كامن فيها. أنت تخشى أن تنام والنار مضاءة في بيتك، لكن الطين كله خير والأصل فيه المنفعة، أنت طاهر، أنت صافٍ، أنت معدنك خير، أبوك آدم طينته كلها خير. ﴿فَتَبَارَكَ ٱللَّهُ أَحْسَنُ ٱلْخَٰلِقِينَ﴾ [المؤمنون: 14]، أنت ضعيف نعم، لكن كلك خير.

* **المرحلة الثالثة**: طين لازب.

دُمِج التراب مع الماء، فأصبح طيناً، فتُرِك حتى جفَّ فأصبح طيناً لازباً، ولازب يعني: متماسك، فالأصل بك التماسك.

* **المرحلة الرابعة**: الصلصال.

والمراحل تلك مجتمعة أدَّت إلى مرحلة الصلصال هذه: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمٰن: 14]، فهل تتخيل، الطين يصبح صلصالاً، لا إله إلا الله.

* **المرحلة الخامسة**: صلصال من حمأ مسنون.

قال تعالى: ﴿إِنِّي خَٰلِقُۢ بَشَرًا مِّن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ﴾ [الحجر: 28]، ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ مِّنْ حَمَإٍ مَّسْنُونٍ ﴿٢٦﴾﴾ [الحجر: 26]، تُرِك الصلصال قليلاً حتى تغير بسبب عوامل التعرية فتغيرت رائحته، وكذلك لونه، فالخير الذي في الطين دخل عليه عوامل أخرى بعيدة عن الخير، كالغرائز، والشهوات البشرية.

* **المرحلة السادسة**: صلصال كالفخار.

قال تعالى: ﴿خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِن صَلْصَٰلٍ كَٱلْفَخَّارِ ﴿١٤﴾﴾ [الرحمٰن: 14]، وهنا تحول الصلصال في هذه المرحلة إلى عملية تجويف، تراب مع ماء أصبح طيناً، ترك الطين قليلاً فأصبح طيناً لازباً، ثم تحول إلى صلصال، دخلت عليه الشهوات فتحول إلى صلصال من حمإٍ مسنون، حصل به تجويف فأصبح صلصال كالفخار.

أتصدِّق أن الفخار سيتكلم؟ أتصدق أن الطين سيخترع؟ أتصدق أن الصلصال سيصل الى القمر؟ سيفكر، سيبدع؟ انكسر، تذلل، اخشع لله، أما لان قلبك بعد؟

يقول أحد التابعين: طرقت أبواباً إلى الله فوجدتها ملأى،

كذلك كل باب طرقته، إلا باب الانكسار إلى الله وجدته فارغاً فدخلته فقلت: هلموا من هذا الباب تسبقوا الجميع.

* **المرحلة السابعة والأخيرة**: نفخ الروح في آدم.

قال تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 29]، نفخة واحدة، وفجأة بعد هذه النفخة، ينطلق الدم ويجري في العروق، والقلب ينبض، والعيون ترى، واليدين تتحرك، والوجه يبتسم، ولولا هذه النفخة لكنت كأي جماد موجود في هذا الكون، ولم يَرِدْ أن الله نفخ من روحه هذه النفخة إلا في آدم، لا في الجان ولا الملائكة ولا أحد، لماذا؟ من المؤكد أنك مكلفٌ بمهمة ستعرفها فيما بعد عندما نأتي للذكر عن مهامك في هذه الحياة.

انظر حب الله إليك، انظر تكريم الله إليك: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 29]، هذه الآية فيها ثلاث تكريمات: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ﴾، هذه تكريمة، ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾، هذه الثانية، ﴿فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ﴾، هذه الثالثة.

انظر هذا التكريم، انظر هذه الرحمة، أصبحت أنت يابن آدم، صناعات واكتشافات وهذا وذاك؛ كل ذلك من نفخة واحدة من الله سبحانه وتعالى. وذكر أنّ أول ما دخلت هذه النفخة، دخلت من رأسه فعطس...

يابن آدم لا تنجِّس الطهارة التي خلقك الله عليها، فقارن بين الحمد الذي أنت مأمور به وبين الحالة التي أنت عليها الآن.

أيها المخلوق الغالي، عُد الى مولاك، مولاك بناديك، بالليل والنهار.

اسمع حديث النبيّ ﷺ: «**ما من يوم إلا ويستأذن البحر ربه يقول: يا رب ائذن لي أغرق ابن آدم فإنه أكل من رزقك وعبد غيرك، وتقول الأرض: يا رب، ائذن لي أن أبتلع ابن آدم فإنه أكل من رزقك وعبد غيرك، وتقول السمٰوات: يا رب، ائذن لي أن أطبق على ابن آدم، فإنه أكل رزقك وعبد غيرك، فيقول الله تبارك وتعالى: دعوهم لو خلقتموهم لرحمتموهم**».

انظر لرحمة الخالق العظيم سبحانه وتعالى.

وفي الأثر: قال الله لداود عليه السلام: «**يا داود: لو يعلم المدبرون عني شوقي لعودتهم لذابوا شوقاً إليّ، يا داود، هذه رغبتي بالمدبرين عني فكيف محبتي للمقبلين علي**»[1].

وفي الحديث القدسي: «**يابن آدم خلقتك بيدي، وربيتك بنعمتي، وأنت تخالفني وتعصاني، فإن رجعت إليّ تبتُ عليك، فمن أين تجد رباً مثلي، وأنا الغفور الرحيم**»[2].

وكذلك حديث: «**يا عبادي، كلُّكم ضالّ إلا من هديته، فاستهدوني أهدِكم، كلكم عار إلا من كسوته، فاستكسوني أكسِكم، كلكم جائع إلا من أطعمته، فاستطعموني أطعمكم**»[3].

إن قصة آدم عليه السلام هي قصة كل واحد منا، فرجاءً أن تأخذوا منها العِبر والعظات التي تساعدكم على السير في منهجه تعالى الذي لا خير إلا في صراطه. ولذلك قصة آدم تكررت في القرآن خمسة وعشرون مرة.

---

(1) ذكره **السيوطي** في «الجامع الكبير» (2/ 662).

(2) ذكره **الهندي** في «كنز العمال» (الحديث: 15803).

(3) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2495).

هل تعلم لماذا؟ هي ليست عملية تكرار فقط، بل لأنها قصة الحاضر والمستقبل إلى يوم القيامة.

لذلك فحين تَرِدُ لفظة «يا بني آدم» في القرآن، لا بد وأن تُذكر لك قصة آدم؛ لأنها قصة البشر كلهم.

كنَّا قد تكلمنا عن مراحل خلق آدم. وبيّنا أنها كانت على سبع مراحل، والسمٰوات والأرض خُلِقت أيضاً في سبعة أيام.

ألا تلاحظ شيئاً؟ من الممكن أن يسأل أحد، لماذا لم يكن الخلق كن فيكون؟ مع أن الظاهر أن ذلك فيه إعجاز أكبر.

لأن الله يريد أن يعلمك أن هذا الكون مخلوق على أساس مبدأ وهو: التدرج.

والتدرج هذا سُنَّة من السُنن الأصلية، لا شيء يحصل هكذا فجأة دون مروره بعدة مراحل.

يا من تطلب نهضة بين ليلةٍ وضحاها، هذا الكون خلق في ستة أيام وآدم خُلِق على مراحل، كان المعنى الذي أراده الله لنا هنا هو: تعلم الصبر والحلم.

كيان آدم وتركيبته الداخلية

بعد نفخ الروح في آدم..

تعال انظر معي وتخيل معنًى مهماً جداً، الملائكة مخلوقة من نور، والجان مخلوق من نار. أما أنت فمخلوق من مادتين: جسد ألا وهو تكوينة الطين التي تحدثنا عنها، وداخل هذا الجسد تجويف تسللت إليه تلك التي تُسمَّى: بالروح. فأنت جسد وروح. فانظر إلى تلاقي هاتين النقطتين! الجسد الذي منبعه التراب وهو من أديم الأرض، والروح وهي نفخة علوية من السماء. وكل نقطة مشتاقة للجهة التي أتت منها. فالجسد يحن دائماً إلى الأرض لأنه مخلوق منها، والروح تحن دائماً إلى خالقها.. فأنت حينما تموت تنزل إلى الأرض بجسدك والروح تصعد إلى خالقها.

تركيبة عجيبة! سبحان الله المبدع الذي يخلق ما يشاء.

ولكل واحد من الاثنين: الجسد والروح غذاؤه.. وغذاؤه يأتي من منبع خلقه.. الجسد غذاؤه من الأرض، والروح غذاؤها ركعتين في جوف الليل، جلسة علم، صيام رمضان، نفحات إيمانية.. والمطلوب أن تغذي الاثنين؛ لأنك منهما، لا أن تغذي إحداهما وتهمل الآخرى، فيحصل اختلال في تركيبتك.

فأنت لو تركت نفسك بلا طعام لمدة معينة من الزمن، سوف تموت حتماً.. كذلك إن لم تغذ الروح فإنك ستموت ولكن ببطء، يأتيك تعب نفسي، قلق، انهيار عصبي.. فأنت بإطعامك الجسد، ثم الجسد، ثم الجسد، الروح تصرخ، ولولا أنها محبوسة داخله، لتراها تريد أن تقول: أرجعني إلى خالقي أريد غذائي.

إذا عشت لجسدك فقط فأنت بذلك تمزق هذه الرسالة الرقيقة

التي تعيش في داخلك ألا وهي الروح. يا من عشت لجسدك وحبست روحك انظر إليها تراها هرمت وكبرت.. ترى نفسك شاباً ولكن روحك ميتة؛ لأنك لم تطعمها وتعطها دواءَها.

انظر قول الله تعالى في هذا المضمار: ﴿أَلْهَىٰكُمُ ٱلتَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٣ ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ۝٤ كَلَّا لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ ٱلْيَقِينِ ۝٥ لَتَرَوُنَّ ٱلْجَحِيمَ ۝٦ ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ ٱلْيَقِينِ ۝٧ ثُمَّ لَتُسْـَٔلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ ٱلنَّعِيمِ ۝٨﴾ [التكاثر: 1 ـ 8]، نعيم ماذا؟ نعيم الجسد، نعم.. هل أفادك نعيم الجسد، ولماذا قال: ﴿حَتَّىٰ زُرْتُمُ ٱلْمَقَابِرَ ۝٢﴾؟، ذلك لأن نهاية الجسد أين؟ في المقابر طبعاً.

لذا فأنت من مادتين، ووجب عليك أن توازن بين الاثنين. ونحن نغذي أجسادنا أَحَد عشر شهراً في السنة، فتعالوا نغذي أرواحنا في شهر رمضان.

فأنت لو عشت لجسدك فقط أصبحت كالحيوان وأنت لست كذلك. ولو عشت لروحك فقط أصبحت كالملاك وأنت لست كذلك. فأنت من الاثنين.

أرجوك، تفكَّر في هذا المعنى وافهمه جيداً. أنت تجمع بين الاثنين، من أجل ذلك سجدت الملائكة لأبيك آدم، وهم لا يملكون الاثنين.

الروح «سر من أسرار الله تبارك وتعالى»

ما هي الروح؟ قال تعالى: ﴿وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ۝٨٥﴾ [الإسراء: 85]، أين

الروح؟ كيف دخلت؟ لماذا لم يعرف الأطباء الوصول إليها عبر «المايكروسكوب؟» لأنها نفخة من الله سبحانه وتعالى.. وسر من أسراره ﷻ، وهي تملك صفة، ما هي؟ أنها ليست ملكك.. إنها ملك الله ﷻ، قد تقول: أنا كُلّي لله ﷻ، أقول لك: نعم، لكن جسدك يظل معك باستمرار إلى يوم القيامة لكن الروح لا. فهي تفارقك لتذهب إلى خالقها كل يوم.

ألا تسمع حديث النبيّ في الدعاء قبل النوم يقول: **«باسمك اللهم وضعت جنبي وبك أرفعه، ربي إن أمسكت نفسي فارحمها وإن أرسلتها فاحفظها بما تحفظ به عبادك الصالحين»**[1].

والله تعالى يقول في كتابه العزيز: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا وَٱلَّتِى لَمْ تَمُتْ فِى مَنَامِهَا﴾ [الزمر: 42].

والنبيّ ﷺ حين يستيقظ من النوم كان يدعو بهذا الدعاء: **«الحمد لله الذي أحياني بعد ما أماتني وإليه النشور»**[2].

قد تقول لي: لن أنام، بل ستنام شئت أم أبيت، لأن قلّة النوم ـ أو عدمه ـ تصيبك بانهيار عصبيّ، الروح سر من أسرار الله تعالى لا يمكن أن يُقهَر أبداً. لذلك ترى الشيطان يزين لك المعصية في الليل.. فهو يدري أن روحك تصعد إلى السماء في كل ليلة، ولا يدري إن كانت ستعود أم لا، لذا فهو يريدك أن تموت على المعصية. لذلك ترى الليل هو ألذ وقت للعصاة؛ لأن الشيطان يزين لهم أعمالهم في الليل حتى يلاقوا الله على المعاصي والذنوب والآثام.

---

(1) ذكره ابن السني في «عمل اليوم والليلة» (الحديث: 704)، و(الحديث: 761).
(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 6825).

لذلك كان الرسول ﷺ يقرأ: «﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾» [الإخلاص: 1]، و«﴿قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ۝١﴾» [الكافرون: 1]، ليجعلهم خواتيم يومه.. يا رب لا إله إلا أنت.

حُكِي لي عن شاب من عائلة غنية جداً.. يملك جميع مواصفات الشاب المترف، تقدَّم لخطبة فتاة لكن ظهر أن لديها مرض عضوي ألا وهو: (تلف كلوي)، فقال له أبواه: لا، فهذه محكوم عليها بالموت ولن تتزوجها. وأُلغيت الخطوبة وأُلغي كل شيء، وبعد ثلاثة أيام دخل والديه إلى غرفته وإذ به ميت على سريره.. والفتاة لا تزال حية حتى الآن.

إنها الروح. فالله هو الذي يتحكم بها فقط، لا المرض ولا أي شيء آخر.

وسأروي لكم قصة أخرى، فتاة من مصر لها من العمر سبعة وعشرون سنة. عقد قرانها بعد العيد، كانت تعمل معنا في مشروع صُنّاع الحياة في رمضان. أخذت الأمتعة كلها ووزعتها.. فعلت الخير مع الفقراء. وأثناء عودتها تعرضت لحادث سيارة وماتت رحمها الله. وبعد وفاتها وُجد في سيارتها ورقة كتب عليها كل قرش أخذته وأين صرفته.. كأنها تبرىء ذمتها أمام الله ﷻ.

يا إخوتي.. الروح هذه ليست لنا.. إنها لله، هو مالكها يقبضها حين يشاء، ألا تخشى أن يقبض الله روحك وأنت تقوم بالمعصية؟ اللهم تب علينا يا أرحم الراحمين. وتخيل لو أخذ روحك وأنت في قمة قربك منه.. في رمضان. ويُعلِم الناس من بعدك أنه راضٍ عنك.. اعملوا يا إخوتي لمثل هذه الساعة. وتخيروا المكان والزمان التي ستقبض روحكم فيها.

نظرة الإسلام للإنسان «بعين التوسط والتوازن»:

وتأمّل معي كيف أن الإسلام ينظر لنا بعين التوازن التام، فأنت ضعيف نعم لكنك مكرَّم. وقارن بين نظرة الإسلام لك كإنسان ونظرة الغرب.. الغرب يقول: إنك حيوان ناطق، وإنك حشرة رديئة في مزبلة التاريخ. ونظرته النقيضة للنّظرة التي تعظم الإنسان وتمجده إلى أبعد حدود، ولا تتخطّى العظمة هذا المخلوق الضعيف. أما نظرة الإسلام فهي نظرة التوسط بين الاثنين.

أنت مخلوق من طين، لكن فيك خير. مخلوق من تراب وماء، ومن نفخة من روح الله تبارك وتعالى.

فمن كرَّمك أكثر؟ قول الله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴿٢٩﴾﴾ [الحجر: 29]، أم نظرية داروين؟

من كرَّمك أكثر، الذي قال: إن جدك كان (شمبانزي) أو (غوريلا) أم الذي قال: بأن جدك كان آدم الذي سجدت له الملائكة؟ هذه نظرة الإسلام لك.

وإن خير ما يرشدك إلى هذا التكريم قول الله ﷻ في سورة «التين»: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ ﴿٤﴾﴾ [التين: 4]، فما علاقة القسم بالتين والزيتون وطور سينين؟

التين والزيتون: يرمزان إلى فلسطين.

والطور: ذلك الجبل المقدس الذي نادى الله موسى عليه السلام من عليه.

وهذا البلد الأمين: يُقصَد به مكة.

فلسطين، جبل الطور ومكة: أقدس وأطهر ثلاثة أمكنة على الأرض. يقسم الله بهم جميعاً أنك خُلِقت في أحسن تقويم على الإطلاق، فأنت طاهر كطهارة هذه الأمكنة التي أقسم الله بها، لا إله إلا الله، أرأيت كيف هي النظرة إليك؟

والآن نعود لخلق آدم، منذ نُفخت فيه الروح، يقول النبيّ ﷺ: «**ما من يوم طلعت عليه الشمس خير من يوم الجمعة، فيه خلق الله آدم، وفيه أُهبِط إلى الأرض، وفيه تاب الله عليه، وفيه النفخة، وفيه الصعقة، وفيه تقوم الساعة**»[1].

ويخبر الرسول ﷺ أن يوم الجمعة فيه ساعة لا ترد فيه مسألة، أي: فيه ساعة إجابة. «**فيه ساعة إذا وافقها عبد مؤمن يدعو الله استُجيب له**»[2].

ومن العلماء من يقول: هذه الساعة هي بعد العصر لماذا؟ لأن الله خلق آدم عصر يوم الجمعة.

ننتقل الآن إلى هذا الآية الكريمة: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ﴿٣٠﴾﴾ [البقرة: 30]، في الأرض.. نعم في الأرض. فهذه أول آية في سورة «البقرة» تكلمت عن خلق آدم. إذن هو منذ البداية مخلوق لعمارة الأرض، والدليل أن اسمه آدم،

---

(1) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 1974)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 488).

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 935)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 1966).

وآدم من أديم الأرض، مما يدل على أن المعلومة التي تفشت بين الناس بأن سبب وجودنا على الأرض هو خطيئة آدم إنما هي معلومة خاطئة، لذا فنحن على الأرض سواء كانت هذه الخطيئة أو لم تكن، إلا أن الله يسبِّب الأسباب.

ولكن لماذا أسكن الله ﷻ آدم الجنة من قبل؟ أسكنه الجنة ليقول له هذه بلدك، هذا موطنك، وسترجع وتعود إلى هنا من جديد أنت وأولادك، احلموا بمكان عودتكم. فلا تقل بلدي المنصورة أو طرابلس أو..أو.. بل قل: بلدي هو الجنة موطن أبي آدم.

وبالتالي ليست المعصية هي سبب خروج آدم من الجنة. وحكاية الشجرة وإبليس والأكل منها، كانت بمثابة أمر مقدَّر من الله ﷻ. وعِظة لما سيأتي على سيدنا آدم في الأرض، فالشجرة المحرمة ستتكرر بعدة أشكال في الأرض: في زجاجة خمر، أموال حرام، ربا، امرأة عاصية. الطريقة ذاتها التي استعملها إبليس مع أبيك آدم، سيستعملها معك في حياتك اليومية. فلا تطع الشيطان، إن الشيطان لك عدواً مبيناً وأطع الله إنه بك رؤوف رحيم.

ويعدُّه الله ﷻ ليكون خليفة على الأرض، ويُعَرِّفه على سائر الكائنات.. يا آدم، هذا الصديق اسمه: الملائكة. وهذا العدو: اسمه إبليس فتعرَّف على كل واحد منهم قبل نزولك الأرض. أترى كم هي خطيرة قصة البداية؟

وقد يسأل سائل: ولِمَ لم نخلق في الجنة ونبقى بها دون هذا العناء كله؟ لأن الحكمة أن الله خلقك لمهمة ولا بد من تأديتها لله ﷻ، فأنت خليفة الله على الأرض. فالله طلب منك أن تصلح

الأرض، دون الملائكة والشياطين والجان وسائر المخلوقات..

مع أن الملائكة طلبت هذه المهمة لله ﷻ، ويأبى الله إلا أن يسلمك إياها. ﴿وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ﴾ [البقرة: 30]. وكذلك إبليس: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ ﴿٧٦﴾﴾ [ص: 76].

لكن الله اختارك أنت.. أنت يابن آدم، لماذا؟ لأن العجينة التي خُلقت منها قائمة على مبدأ أنك لا بد أن تبتعد عن الشيء حتى تشتاق إليه وتشعر بقيمته.

فلو أنك حصلت على الأشياء دون عناء أو جهد، فإنك لن تشعر بالقيمة الحقيقية لها.

لذلك تعب الدنيا، مقاومة الشهوات، الصيام والتراويح، والوقوف بين يدي الله تعالى، كل ذلك حتى تستشعر حلاوة الجنة. فتخيل لحظة دخول الجنة بعد انقضاء تعب الدنيا.. الله... ما أجمل هذه اللحظة! اللهم أنِلْنا إياها يا رب. فمن برأيك سيشعر بمتعة النظر لوجهه الكريم؟ بالطبع الذي جاهد في هذه الدنيا وبكى من خشية الله.

والآن نختم بهذا الحديث الجميل الذي يؤجج الشوق في صدرك ويشعرك بحلاوة معنى النظر لوجهه الكريم: ينادي الله أهل الجنة بعدما أخذوا أماكنهم وارتاحوا من عناء الدنيا: «**يا أهل الجنة أرضيتم؟ فيقولون: ما لنا لا نرضى يا رب وقد ابيضت وجوهنا وأدخلتنا الجنة، فينادي منادٍ: يا أهل الجنة لكم شيء آخر،**

فيقولون: وما هو؟ فينادي المنادي: يا أهل الجنة، إن الله تعالى يستزيدكم، فيقول: هي على زيادة الرحمٰن..». فيُنصَب لهم مكانٌ من نور، منابر من نور، منابر من ذهب، منابر من فضة، فبينما هم كذلك يشرق لهم نور من فوقهم فيظنون أنه الله تبارك وتعالى، فيقال: لا بل هو نور إقبال الله تبارك وتعالى، فيناديهم الله تبارك وتعالى: «**يا أهل الجنة، سلام عليكم، فيقولون: اللهم أنت السلام، ومنك السلام تباركت يا ذا الجلال والإكرام، فيقول الله تبارك وتعالى: يا أهل الجنة أين عبادي الذين أطاعوني بالغيب في الدنيا ولم يروني؟**» فيرفعون أيديهم، فيقول الله تبارك وتعالى: «**يا أهل الجنة، اليوم يوم المزيد، فاسألوني يا أهل الجنة**»، فيتفقون على كلمةٍ واحدة، ارض عنا يا رب، فيقول الله تبارك وتعالى: «**يا أهل الجنة، لو لم أرض عنكم لما أسكنتكم جنتي، فاسألوني شيئاً آخر**» فيتفقون على كلمة واحدة: «**أرنا وجهك ننظر إليك**»، فتكشف الحجب، فينظرون إلى الله ﷻ فما أعطوا لذة منذ خلقوا أحب إليهم من النظر إلى وجه الله ﷻ، ويذهبون إلى الجنة، وما منهم أحد إلا ويحاضره الله تبارك وتعالى منفرداً، «**عبدي أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟**» فيقول: «**يا رب، ألم تغفر لي؟**» فيقول: «**نعم بمغفرتي بلغت منزلتك هذه، تمن يا عبدي واشته فقد بذلت إلي في الدنيا فلن تتمنى شيئاً اليوم إلا أعطيتك إياه**»، فيتمنى العبد ويتمنى ويتمنى حتى إذا انقطعت به الأماني قال له الله تبارك وتعالى: «**إنك نسيت أن تتمنى كذا وتتمنى كذا**»[1].

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 6549)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 7070)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2555).

خليفة الله على الأرض

قال الله ﷻ: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

هذه الآية مهمة جداً، إنها تخبرك لماذا أنت موجود على الأرض، لماذا خُلِقت، وما هي مهمتك فيها. هذا مغزى قصتك في الحياة، مهمة يجب أن تؤديها. تجد الكثير في بلاد الغرب ينتحرون، لأنهم لا يفهمون أنفسهم. والكثير من شبابنا في العالم العربي من يصيبه اكتئاب نفسي؛ لأنه يشعر بأنه غريب، إنه لم يفهم معنى هذه الآية.

صدقوني يا إخوتي، هذا الآية خطيرة جداً. فأنت لو فهمت هذه الآية ستشعر بأنك إنسان جديد، وتقول: نعم، الآن فهمت كل شيء، قصة البشرية، قصة الكون.. افهم واعقل هذه الآية التي ستدرس سَيْرك في الحياة، وتحدد طريقك فيها بدل أن تكون تائهاً لا تدري أين الدواء وأين السبيل، ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾، أول قصة في المصحف، في سورة البقرة أتت لتتكلم عن مهمتك. الخليفة هو الوكيل، الخلافة هي الوكالة. ما معنى هذا الكلام؟ معناه: أن ينوب فلان عن فلان بإدارة أمر من الأمور، كأن الله تعالى يقول لك: أوكلت إليك مهمةً فأدِرها ولكن على طريقتي ووفق مرادي، والخلافة أن توكل فلان بالإدارة، فأنت

تسمع ما يقال: فلان خلَّف، ماذا يعني هذا؟ يعني: أنه خَلف من يستأمنه على ماله وعلى عرضه من بعده.

والخلافة في هذه الآية خلافة عن من؟ خلافة عن الله، الله... هل تشعر معي بهذا المعنى؟ خلافة عن الله؟ نعم خلافة عن الله، تدير له الأرض وفقاً لمراده ومنهجه الذي يريده.

هل ترى أعظم من تلك المسؤولية؟ أشعرت الآن بتكريمك؟ تقل لي: مجرات كبيرة، شمس عظيمة، أقول لك: أنت، أنت مسؤول عن الأرض.

إذن خلافة تعني: الإنابة والوكالة. عن من؟ عن الله ﷻ مدبر هذا الكون كله. أين؟ في الأرض.

من يخاطب الله تعالى في هذه الآية؟ يخاطب الملائكة يقول لهم: إنه سيخلق آدم ويهيئه ويعدُّه لإدارة الأرض بأمره، والله أنت عظيم الشأن أيها الإنسان. استشعر معي حلاوة التكريم الذي كرمه الله لنا.

من أجل ذلك نفخ فيك من روحه، من أجل ذلك أمر الملائكة بالسجود لك، من أجل ذلك رفض إبليس أن يسجد لك، لأنه كان يطمع في الخلافة، كان يطمع أن يكون هو الخليفة.

هل بدأت تفهم؟ إذن هناك مستخلِف: ألا وهو الله ﷻ. ومستخلَف: وهو أنت أيها الإنسان. الإنسان، بغض النظر عن عرقه ودينه أياً كان. الإنسان عموماً وليس المسلمون خصوصاً. وهناك مستخلَف فيه: ألا وهي الأرض.

هل بدأت تشعر بمعنى: **«كان الله وحده»**.

أتُقطِّع الوكالة وتقول: لا، بل أديرها كما أريد؟ وأنت وكيلٌ أصلاً في هذه الأرض، استيقظ من غفلتك، اصح أيها الإنسان.

والآن ما هو دورك في الأرض كخليفة، دورك محصور في مهمتين:

1 ـ عمارة الأرض، تنمية وتكنولوجيا: علم.

2 ـ إصلاح الأرض، خير وعدل، نبذ الظلم والقسوة. هداية الناس.. إظهار الحق: إصلاح.

إنه السر الذي خلق الله البشرية لأجله، مهمتين:

علم، وإصلاح.

فهل تفعل هاتين المهمتين؟

يا متعلم، يا أُمّي، يا عامل، يا بسيط، يا غني، هل تقوم بهذه المهمة؟ انها مهمتك الاصلية. وتذكّر، أنك كلما بذلت أكثر، كلما ارتفع شانك أكثر، هذا هو سر خلقك، تصوّر!

قد تقول: هناك آية في القرآن تقول: ﴿وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾﴾ [الذاريات: 56]، أقول: وإن قمة العبادة أن تحقق الذي خُلِقت لأجله.

وأنت لم تُخْلَق للصلاة وللصيام فقط، ولكن الناس اعتادت أن تحصر فكرة العبادة بهاتين الفريضتين، لكن أليس العلم عبادة؟ أليس

هداية الناس عبادة؟ أليس العمل عبادة؟ أليست الابتسامة في وجه أخيك عبادة، كما أخبر الرسول ﷺ بذلك؟ هذه هي الخلافة.

فلو كان المقصود من: «يعبدون»: الصلاة والصوم فقط، لوجب عليك ترك كل أمور الحياة، وتتفرغ ليلاً نهاراً للصلاة والصوم فقط. وهذا مستحيل..

وأنت تعلم أن التناقض في القرآن الكريم محال على رب العالمين. فلو اكتشفت ونوَّرت العقول، ونشرت العلم، وحققت الخير وحكمت بين الناس بالعدل، ونبذت الشر، تكون بذلك قد وصلت إلى قمة العبادة التي خلقك الله لأجلها.

والصلاة والصوم مهمتهم تقوية الروح على أداء هذه الخلافة. فأنت لن تتقوى في الخلافة وتأدية مهماتها إلَّا إذا صليت حق الصلاة وصمت حق الصوم؛ لأنهما غذاء الروح، والخلافة أو المهمة التي خُلقت لأجلها تستدعي أن تكون قويم الجسد والروح معاً.

فكما قلنا: إن الطعام غذاء لجسدك لتتقوى به على الطاعة، كذلك الصلاة والصوم غذاء للروح لتتقوى بهما على أداء حق الخلافة.

وليس كل عابد خليفة، أتفهم قصدي؟! ليس لك أن تقول: لقد صليت وصمت وها أنا قد أديت دوري في الحياة، لا.

فالخليفة فهو من يقوم بمسؤولية الأرض كما يجب أن تكون.

كانت النفخة الإلٰهية التي بثها الله سبحانه وتعالى في آدم، هي السر العظيم الذي مكّنه من إدارة الأرض وجعله خليفة. فالملائكة تصلي وتصوم، ولكن الله نفخ في روحك أنت، أعطاك الصفات التي تجعلك خليفة في الأرض.

والعبادة جميعها يجب أن تكون خالصة لله تعالى حتى تكون وكيلاً، أنت لم تخلق حتى تطعم أولادك فقط، بل خلقت لِتُعَمِّر الكون، وتصلح الكون، وتهذب الكون، ويجب أن تتعبد الله بنية خالصة حتى تقوى على هذه المهمة.

لا تقل: أنا عاجز، لا تقولي: إني امرأة عجوز، لا أستطيع أن أفعل شيئاً، والله أنتم مسؤولون عن الأرض.

مطلوب منك نشر الخير، منع الظلم قدر استطاعتك، هداية الناس، تنمية الأرض، وتكنولوجيا وعلم.

وجميع الكتب التي أنزلت، وجميع الشرائع كلها لماذا؟

كلها مرجع لهذا الخليفة، يرجع إليها كلما ضل الطريق على مر الزمان.

حدث أني كنت أصلي في أحد المساجد، وكانت آيات الإمام التي كان يؤم بها، آيات المواريث والزواج والطلاق، فوجدت شاباً خلفي يبكي ويتنهنه، وعندما انتهى سألته عن بكائه قال لي: وجدت الآيات تتكلم عن زواج وطلاق فلم أخشع، فصرفت ذهني لأشياء أخرى فكرت فيها حتى خشعت وبكيت، فهل هذا جائز؟ فقلت له:

كلا، إن الله يريدنا أن نعبده بهذه الآيات، يجب أن نسمع ونعقل ونخشع... أنت خليفة، الآيات تتكلم عن العلاقات الدولية، وتقول: وما شأني بذلك؟ أنت خليفة، هذا قرآنك ليست القضية أن تصلي وأنت تبكي وانتهى، اسمع وتعلم كيف ستعيش حياتك. كيف ستدير أمورك، كيف ستنصح غيرك، وتهديه إلى الخير إن ضلَّ واهتديت.

هل علمت الآن المقصود من حديث النبيّ ﷺ: «**إذا قامت الساعة وفي يد أحدكم فسيلة، فإن استطاع أن لا تقوم حتى يغرسها فليفعل**»[1].

لم يقل: ارمها وصلِّ ركعتين وقل: يا رب تبت إليك الآن. بل قال: «**فليغرسها**» لماذا؟ لأنك خليفة، أنت خُلِقت من أجل ذلك.

وحديث الرسول ﷺ: «**إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية**»، من أجل التنمية والمال والاقتصاد، «**علم يُنتَفع به**»، من أجل إعمار الأرض ودوامها، «**ولدٌ صالح يدعو له**»[2]، حتى تنجب جيلاً جديداً ليكون خليفة الله في الأرض. كل واحدة من هؤلاء هم عملك الأساسي كخليفة في الأرض.

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 3/ 184)، و(الحديث: 3/ 191).

(2) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 4199)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1376)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 3653).

وانظر الحديث الآتي: «**سبعة يظلهم الله بظلّه، يوم لا ظل إلا ظله: إمام عادلٌ**»[1]، من أجل أن تستمر الحياة بشكل صحيح، والإمام هو الأستاذ، هو القاضي، هو كل واحد منا يا إخواني. وأول شيء يظلك الله به بعرشه هو العدل... أرأيت؟

أول ما تُسأل عنه يوم الحساب من العبادات: الصلاة، تقول: صليت. هل أديت مسؤوليتك في الحياة؟ نشرت العلم؟ الدين؟ عدلت؟ نشرت الخير؟ مسؤوليتك ليست مسؤولية الملائكة ولا الجان ولا الجبال ولا البحار، بل مسؤوليتك أنت. قال عليه الصلاة والسلام:

«**لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يُسأَل عن أربع: عن عمره فيما أفناه، وعن شبابه فيما أبلاه، وعن ماله مما اكتسبه وفيما أنفقه، وعن علمه ماذا فعل به**»[2].

ماذا فعلت في عمرك؟ ماذا أديت في مرحلة شبابك؟ ومرحلة الشباب مهمّة لأنها مرحلة الإنتاج، والمال الذي اكتسبته كان حلالاً أم حراماً؟ والعلم الذي تعلمته، علمته لغيرك أم تكبرت به على الناس؟ الخلافة هذه أعظم تكريم من الله تبارك وتعالى. فالحمد لله الذي جعلنا خلائف الأرض من دون سائر المخلوقات.

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 660)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 2377)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2399)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 439).

(2) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2417)، وأخرجه **الدارمي** في (الحديث: 1/ 135).

وتأتي بعد هذا وتقول: أريد أن آكل وأشرب وأعيش لأولادي فقط، إذن لم تفهم بعد معنى الآية الكريمة.

يا إخواني، عندما تخرجت، كانت أمنيتي أن أعمل في أحسن شركة محاسبة في مصر، فقيل لي: كي تعمل في هذه الشركة يجب أن تتدرب جيداً، فسافرت سنة أتعلم، ورجعت وعُيِّنت في هذه الشركة، ويومها كانت فرحتي كبيرة جداً جداً. فتضيل نفسك وأنت تدبر ما أراده الله بأمره.

انظر قول الله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦﴾ [الشمس: 1 ـ 6]، وبعد ذلك... ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠﴾ [الشمس: 7 ـ 10]، بعد ذلك يروي قصة أناس استخلفوا في الأرض فأهلِكوا: ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَآ ۝١١﴾ [الشمس: 11].

فلا تفشل أنت كما فشلت ثمود وغيرها وغيرها حتى لا تهلك، فهل أدركت معي الآن أن الهلاك لا يأتي إلا بعد الفشل في المهمة فأرجوك لا تفشل، لا تفشل.

أعرفت ما أصل العداء بينك وبين إبليس الآن؟

يريد أن يزاحمك على الخلافة حتى يأخذها منك ويقول: إن عبدك ابن آدم غيرُ أهل لها يا رب، لذا عليك أن تصلح وتثبت له عكس نظريته ولا تنوِّله مراده.

هذه الخلافة التي تمنتها الملائكة أيضاً، ألم تر قولها: ﴿قَالُوٓاْ أَتَجۡعَلُ فِيهَا مَن يُفۡسِدُ فِيهَا وَيَسۡفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحۡنُ نُسَبِّحُ بِحَمۡدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَۖ﴾ [البقرة: 30]، فماذا ردّ عليهم رب العزة تبارك وتعالى؟ ﴿قَالَ إِنِّيٓ أَعۡلَمُ مَا لَا تَعۡلَمُونَ﴾، بل وأسجدهم سجدة تسليم للخلافة التي اختارها ـ الله ـ لعبده ابن آدم.

سجدوا كلهم أجمعين، حتى جبريل وميكائيل وملك الموت تسليماً لهذه الخلافة.

أأدركت وظيفتك الآن؟ ﴿قَالَ يَٰٓإِبۡلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَن تَسۡجُدَ لِمَا خَلَقۡتُ بِيَدَيَّۖ﴾ [صّ: 75]، أعرفت لماذا سخّر لك الحيوانات والدواب؟ أعرفت لماذا سخّر لك هذا الكون؟ الشمس والقمر والليل والنهار كله مسخّر لخدمتك أيها الإنسان المكرم عند خالقك، اعرف هذا المعنى جيداً.

أرأيت كيف يكرم الله من يحب؟ تضيل... من تراب وبعد قليل يسجد لك مَلَك.

للأسف يا إخوتي غفل الإنسان عن وظيفته على مر الدهر، انظر الناس اليوم، عرفوا عمارة الأرض، نعم عمروها؛ تطور وتنمية وتكنولوجيا لكن...

وأناس غيرهم يا مسلمين، تركوا عمارة الأرض والتطور والتكنولوجيا، وعكفوا على الصلاة والصوم، ظنوا أن هذا هو الدين فقط.

ابكِ على العمر الذي أفنيته وأنت لست خليفة، ابكِ على العمر الذي فاتك وأنت غافل عن مهمتك. هناك شاب فَتِيّ اسمه إبراهيم بن أدهم، كان يصلي ويصوم إلا أن شغله الشاغل كان الركوب على الفرس والتنزه عليه، فأتاه مرة شيخ عجوز أمسك فرسه وقال له: يا إبراهيم، ألهذا خُلِقت؟ أم بهذا أمِرت؟ فقال: يا شيخ، أنا أصلي، قال: يا إبراهيم، الأمر أعظم من ذلك، ماذا فعلت لله في إصلاح أرضه؟ فتحوَّل إبراهيم بن أدهم الرجل العابد الزاهد في الكون إلى رجل همه أن ينشر الدين في الأرض ويقول الحق.

أخي المسلم، لقد تكفَّل الله برزقك: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ﴾ [الذاريات: 22]، لا تخف على مالك، لا تخف على رزقك، لا تخف على أولادك، فالنبيّ ﷺ يقول: «**إن روح القدس نفث في روعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها**»[1].

فالرزق مضمون، والعمر لن ينقص دقيقة، اعمل، اعمل لآخرتك.

انظر الحديث القدسي: «**ابن آدم خلقتك لنفسي، وتكفلت لك برزقك، فكن لي، فإن طلبتني وجدتني وإن وجدتني وجدت كل شيء، وإن فتني فُتُّك وفاتك كل شيء**»[2].

قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا ٱلْأَمَانَةَ عَلَى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱلْجِبَالِ

---

(1) أخرجه **المنذري** في «الترغيب والترهيب» (الحديث: 2/ 534).
(2) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 167).

فَأَبَيْنَ أَن يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا ٱلْإِنسَٰنُ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا ﴿٧٢﴾ [الأحزاب: 72].

ومتى يكون الإنسان ظلوماً جهولاً؟ عندما يترك الأمانة، لأنه عند ذلك يكتب الذل عليه وعلى أولاده، ويسلط عليه من لم يرض أن يكون الخليفة.

وماذا أيضاً؟ يستبدلك: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾ [هود: 117].

كيفية تأهيل آدم للخلافة

1 ـ قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، أي: القدرة على الفهم، لتستنتج وتحلل وتفكر وتَصِلْ.

2 ـ قال تعالى: ﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى﴾ [الحجر: 29]، أي: أعطاه الصفات العظيمة التي يصلح أن يكون بها خليفة على الأرض.

3 ـ الموازنة بين الجسد والروح فيك، فالروح تربطك بالوكيل، والجسد يجعلك تعمِّر الأرض.

4 ـ المعرفة بالكائنات من حولك: من ملائكة وجان وسمٰوات وحيوانات وشمس وقمر وهواء..

قال تعالى: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿٣١﴾ قَالُوا

سُبْحَٰنَكَ لَا عِلْمَ لَنَآ إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَآ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٣٢﴾ قَالَ يَٰٓـَٔادَمُ أَنۢبِئْهُم بِأَسْمَآئِهِمْ ۖ فَلَمَّآ أَنۢبَأَهُم بِأَسْمَآئِهِمْ قَالَ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ إِنِّىٓ أَعْلَمُ غَيْبَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنتُمْ تَكْتُمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ [البقرة: 31 ـ 33]، فاعمل أخي منذ الآن وابدأ بتدوين كل ما تريد إصلاحه في حياتك وقل: سأصلح اليوم في حياتي هذا، وذاك، أنا مُلكٌ لله، لقد عرفت هدفي في الحياة اليوم، عرفت وظيفتي ولن أضل من جديد أبداً، يا رب.

وأخيراً كن مثل الصحابي العظيم: عبد الله بن جحش ﷺ حينما قال: اللهم إني أسألك أن تُقطع أذني ويجدع أنفي ويبقر بطني، فآتيك يوم القيامة فتقول لي: ما هذا يا عبد الله؟ فأقول: فيك يا رب، حينها ستكون حي لله وحده. يا إخوتي نحن خُلِقنا لأجل ذلك.

خلق حواء

خلق الله ﷻ آدم وأهَّله لخلافة الأرض. ولكن ما زال ينقصه شيء مهم جداً ألا وهو: حواء.

في البداية، لماذا سميت حواء بِحواء؟

سميت حواء لأنها من الحياة، هي لم تخلق من تراب مثله بل خُلِقت منه، أي: لم تكتمل الحياة من دونها... لذة الحياة، وقيمة الحياة لا تتم إلا بحواء، فيجب على الرجال والنساء أن يعوا هذا الكلام جيداً. لا تتم الحياة، إلا بحواء، هل أنتم مقدِّرين ومستشعرين هذا الكلام؟

أنتِ الفرح، أنتِ الحب، أنتِ الأمل، أنتِ الحنان، أنتِ القوة. فهل تصدق أنه لا يخرج رجل شديد أو ابن شديد إلا وكان وراءَ ذلك امرأة قوية؟ وقوية أي: تدفعه للأمام، وأول من يوضح لنا ويجسد لنا هذا المعنى: السيدة خديجة ﵂. فتخيل!! سيدنا جبريل ﵇ ينزل على محمد ﷺ ويقول له: **«إن الله يقرىء خديجة السلام»**، وكان ذلك عند موتها. فهي لم تحارب، ولم تشارك في معركة من المعارك، ولم تشهد بدراً ولا أُحُداً ولا الخندق، لكن ماذا فعلت؟ كانت تدعم النبيّ ﷺ وتقدم له العون والسند. فإذا كانت حواء هي الأم الأولى لنا، فكذلك السيدة خديجة ﵂ هي الأم الأولى لنا.

وكذلك يخبر جبريل عليه السلام النبيّ ﷺ: «**أخبر خديجة أن لها بيتاً في الجنة من قصب، لا صخب فيه ولا نصب**»[1]، وتستشعر هنا معنى جميلاً جداً، كأن آدم لعمارة الأرض، وحواء لعمارة آدم، فأنتِ التي تمدين القوة والحياة لآدم. **والمعنى الثاني**: حواء: من الاحتواء، أنتِ التي تحتوي آدم: ابن وأخ وزوج وأب حتى يصبح قادراً على عمارة الأرض. **والمعنى الثالث**: حواء: من الحياء.

فأنتِ لن تستطيعي القيام بدورك كأنثى إلا بهذا الحياء، فأنتِ وسيلة لعمارة الأرض عن طريق عمارة آدم. فانظر قول الله تبارك وتعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَـٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓا۟ إِلَيْهَا﴾ [الروم: 20]، نعم السكن هو دورك.

فما المقصود بالسكن يا ترى؟

أن تجلسي في البيت وتنتظرين عودته؟ لا بل دورك أعظم من هذا بكثير، فأنتِ ثبات الأرض، سكون الأرض، رحمة الأرض، ودورك ليس فقط في المنزل بل في كل مكان. ولو كان ذلك، لخلِقت حواء بعد نزول آدم الأرض لكنها خلِقت في الجنة، ومعنى هذا: أن آدم قبل أن ينزل إلى الأرض ويُعَد للخلافة خُلِقت حواء، حتى تجعله مهيئاً لأداء هذه المهمة. ولو نظرت لتاريخ الأنبياء جميعاً لوجدت دائماً امرأة تكون هي صانعة الرجال. فالمرأة مهمتها السكن، وعمارة الأرض. وأول مهام لديها هو تجهيز الرجل،

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3820)، و(الحديث: 7497)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6223).

والثاني أن تكون شريكة معه في الإصلاح. وهكذا جُمِع لحواء دورين مزدوجين: إصلاح الأرض وتجهيز آدم.

فانظر إلى قصة موسى عليه السلام، أول من نصره وشجعه أربع نساء، من هم:

1 ـ أمـــه: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰٓ أُمِّ مُوسَىٰٓ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خِفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِيٓ﴾ [القصص: 7]، وفعلتها.

2 ـ أختـه: ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰٓ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُۥ لَكُمْ وَهُمْ لَهُۥ نَٰصِحُونَ ﴿١٢﴾ فَرَدَدْنَٰهُ إِلَىٰٓ أُمِّهِۦ كَىْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾﴾ [القصص: 12، 13]، وكانت هذه حيلة منها لتردّه إلى أمه.

3 ـ امرأة فرعون: ﴿لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [القصص: 9].

4 ـ التي ستكون زوجته في المستقبل: ﴿قَالَتْ إِحْدَىٰهُمَا يَٰٓأَبَتِ ٱسْتَـْٔجِرْهُ إِنَّ خَيْرَ مَنِ ٱسْتَـْٔجَرْتَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْأَمِينُ ﴿٢٦﴾﴾ [القصص: 26].

ونأتي الآن لسيدنا عيسى عليه السلام: من نصره وصدقه وأعانه؟ أمه السيدة مريم عليها السلام.

والنبيّ محمد ﷺ، من أول من أيده وثبّته ونصره؟ السيدة خديجة رضي الله عنها، ومن نصره ونشر سُنّته؟ السيدة عائشة رضي الله عنها.

وانظر إلى المرأة بشكل عام في القرآن:

مريم والعفة والشرف.

امرأة فرعون وموقفها.

بلقيس التي ذهبت لسيدنا سليمان عليه السلام وهي رئيسة دولة.

فإياكِ أن تظني أن دورك كان محدوداً؛ بل دورك كان عظيماً ولم يزل.

كيفية خلق حواء:

يقول الرسول ﷺ: «**استوصوا بالنساء خيراً، فإنهنّ خُلِقن من ضلع أعوج، فإنك إن ذهبت تقيمه كسرته، وكسرها طلاقها، فاستوصوا بالنساء خيراً**»[1].

خُلِقت حواء من ضلع أعوج من آدم، وظيفة هذا الضلع أن يحمي القلب، فلولا وجود هذا الضلع، لكانت أي ضربة مكانه تسبب نزيفاً، وهذا الضلع حتى يحمي القلب يجب أن يكون محاطاً به أي: أعوج الشكل حتى يحميه، فاعوجاج المرأة ليس اعوجاج سلوك، ولكن اعوجاج بطريقة العاطفة حتى تؤدي وظيفتها، تراها تأتي في بعض الأحيان لاتخاذ القرار فتأخذها العاطفة فتقف عندها.

فلو قلت: كفِّي عن الخوف على أولادك بهذا الشكل، وأصريت، ستكسرها: «**وكسرها طلاقها**»، لماذا؟ لأنك عندما تقول لها: «أنت طالق» أفقدتها الوظيفة الأساسية التي خُلِقت لأجلها:

---

(1) أخرجه **البخاري** (الحديث: 3331)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 3632).

«الاحتواء»، و«**استوصوا بالنساء خيراً**»[1]، مرحلة تحدث عنها النبيّ ﷺ من ولادتها وحتى موتها.

فانظر معي هنا من الطفولة وحتى مرحلة الشباب ماذا قال فيها النبيّ ﷺ: «**من كان له ثلاث بنات فيؤدبهن ويرحمهن، ويكفلهن وجبت له الجنة**»، فقال له أحد من الصحابة: واثنتين يا رسول الله؟ قال: «**واثنتين**»[2]. وقال الله فيهن: ﴿وَأَخَذْنَا مِنْهُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾ [الأحزاب: 7]. ولفظة الميثاق هذه لم ترد إلا في ثلاث مواضع، مع النساء، والأنبياء، وبني إسرائيل.

بعد ذلك يقول سبحانه وتعالى: ﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ﴾ [النساء: 19]، وليس معنى ذلك أن تكف الأذى عنها، لا بل أن تتحمل الأذى منها، تماماً كما صبر النبيّ ﷺ على زوجاته. بعدها يقول النبيّ ﷺ: «**أمك ثم أمك ثم أمك**»[3]، ثم يقول: «**الجنة تحت أقدام الأمهات**»[4].

فكل من آدم وحواء خُلِق من الشيء الذي سيتعامل معه. فآدم خُلِقَ من الأرض؛ لأنه سيتعامل مع الأرض: مزارع وصانع

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3331)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 3632).

(2) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 5147)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1916)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 3169)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 235).

(3) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 5971)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6447)، وأخرجه **ابن ماجه** (الحديث: 2706).

(4) أخرجه **الحاكم** في «المستدرك» (الحديث: 2/ 70).

ومجاهد، وحواء خُلِقت من ضلع آدم؛ لأنها ستتعامل مع آدم.

هناك طُرفة جميلة للقرطبي يقول فيها: سألت الملائكة آدم: أتحبها يا آدم؟ فقال: نعم وقلبه يمتلىء بالحب لها، فقالت لحواء: أتحبينه؟ فقالت: لا، وفي قلبها أضعاف أضعاف ما في قلبه من الحب، ويكمل القصة بكلمة طريفة جداً: لو صدقت امرأة في حبها لزوجها، لصدقت حواء في حبها لآدم.

وهذه القصة طبعاً ليست حقيقية ولكنها على صعيد الطرفة فقط.

والآن أترى معي عِظَم خلق الله فينا؟

مرة بدون ذكر أو أنثى: آدم.

ومرة بذكر من غير أنثى: حواء.

ومرة بأنثى من غير ذكر: عيسى عليه السلام.

ومرة بذكر وأنثى: كلنا.

لماذا؟ ليبيّن لك أن مشيئته مطلقة، يفعل ما يشاء ويخلق ما يشاء.

فهل هذه الثلاث الأُوَل معجزة والرابعة لا؟

تصوّر نقطة من منيّ الرجل في رحم المرأة، تنشىء عينين وأذنين وفم ولسان، و.. و.. و.. تخيل.. أليس هذا بمعجزة؟

ولنعُدْ الآن للحظة سجود الملائكة لآدم: ﴿فَسَجَدَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ

كُلُّهُمْ أَجْمَعُونَ﴿٣٠﴾ إِلَّآ إِبْلِيسَ أَبَىٰٓ أَن يَكُونَ مَعَ ٱلسَّٰجِدِينَ﴿٣١﴾﴾ [الحجر: 30، 31]، كيف كانت نظرة إبليس لآدم في تلك اللحظة؛ بل وكيف كانت نظرة آدم لإبليس هنا؟ ألم يعرف بأنه عدو؟ ورغم ذلك زين له المعصية. لكن على الأقل كانت مع آدم مرة واحدة فقط تعلم منها وأخذها عبرةً، وجعل من هذه المعصية دستوراً لحياته.

أما أنت أيها الإنسان الضعيف المسكين، كم مرة يضحك عليك ابليس في اليوم؟ كم مرة في اليوم يوقعك في المعصية؟ عشرات المرات.

مشكلة إبليس

فما مشكلة إبليس الأساسية؟

المشكلة الأولى: الكِبر: ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ خَلَقْتَنِى مِن نَّارٍ وَخَلَقْتَهُۥ مِن طِينٍ﴾ [الأعراف: 12]، فرد الله عليه: ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا﴾ [الأعراف: 13]، وهذا كان أول ذنب ارتُكِبَ في الكون. وأول مثالين لهذه المشكلة: إبليس ﴿قَالَ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْهُ﴾ وفرعون ﴿فَقَالَ أَنَا۠ رَبُّكُمُ ٱلْأَعْلَىٰ﴿٢٤﴾﴾ [النازعات: 24]، لأنهما اعتدَّا «بالأنا».

ومستحيل أن يدخل الجنة متكبر، كما أخبر الرسول ﷺ: «**لن يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كِبر**»[1].

وهذا الكِبر يتمثَّل في ذلك، في احتقار الناس، والموضوع خطير يا اخواني.

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 261)، وأخرجه الترمذي في (الحديث: 1999)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 296).

ومن أشكال الكبر، عدم رغبتك في الدعاء. فاسمع ماذا تقول هذه الآية: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾﴾ [غافر: 60]، فقمة الاستكبار أن تستغني عن دعائك لله.

ألا ترى حافزاً لدعائه؟ فلماذا لا تدعوه؟

ومن أشكال الكِبر أن ترى إمكانياتك فتُعجب بها، وكذلك رفض النصيحة يعتبر شكلاً من أشكال الكِبر. وأن تعلم الحق وترفض أن تفعله أو تقوله لمجرَّد أنك لا تريد الرجوع بكلامك.

إياك والكبر، واستمع معي لهذا الحديث: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة كأمثال الروم في سودة بشر يدوسهم الناس بأقدامهم يغشاهم الذل من كل مكان**»[1]. والروم: النمل.

فما هو الحل؟ الحل هو أن يبتعد كل منا عن التكبر، الحل هو أن نتذلل لله، ندعوه في كل كبيرة وصغيرة، نقول: يا رب ليس لنا أحد سواك، وأن نتعامل مع الناس برحمة وتواضع.

فهل علمت الآن كيف يريد إبليس التخلص منك؟

---

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2492)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 178).

يريد أن يطبع صفاتك على صفاته، هو من نار، فيريد أن يحرقك بصفاته، فهل علمت الآن لماذا لا يدخل الجنة متكبر، لأنها الصفة الأساسية لإبليس، ولن يدخل إبليس الجنة بصفاته.

وهل تدري أنت عندما تصلي فتسجد ماذا يقول إبليس؟ يقول: يا ويلتي أُمِرَ بالسجود فسجد، وأمِرت بالسجود فأبيت، فتخيل إحساسه، صرخته.. أنت نفّذت وهو لم ينفّذ.

ارفع يديك وادعوه بتذلل كما كان الرسول ﷺ يفعل، وقل له: يا رب، يا رب.

واحذر من داء إبليس الذي يتفشَّى في الشركات، هذا يريد أن يكون كلامه هو النافذ، وبين الأزواج و.. و.. احذروا من دائه يا إخواني.

كان الإمام أحمد بن حنبل ذات مرة يطوف بالكعبة فرأى رجلاً يقول: يا رب، جلبابي بسيط كما ترى، وابنتي ضعيفة كما ترى، وامرأتي بسيطة كما ترى، يا من يرى الذي بنا ولا نرى، فجاءه الإمام أحمد يعطيه مالاً، فقال الرجل: لا أنا غني، أنا من بلد كذا، وضيعتي ضيعة كذا وكذا، فقال له الإمام: ولماذا تطلب هذا وتفعل ما تفعل؟ قال: يا إمام، يحب الله أن ندخل عليه من باب الذل، فقمت أتذلل لربي.

خصائص إبليس:

وإذا أردت أن تعرف خصائص إبليس، حلّل خصائص النار، أليس إبليس مخلوق من نار؟

فأول صفة للنار: الاستعلاء، الشباب دائم النظر إلى الأعلى إلى جانب الحدة والطيش، لذلك لا يحب الاعتذار، من أجل ذلك يريد إبليس أن يُطَبِّع صفاته على صفاتك.

وفي النهاية ماذا يريد إبليس؟ يريد أن يثبت أنك لا تصلح لتكون خليفة، وأنه أولى منك في الخلافة، فماذا سيفعل.

لإبليس معنا سبع محطات:

1 ـ يدخلنا قعر جهنم: (بأن نكفر والعياذ بالله).

2 ـ الشرك بالله: (بأن يكون لغير الله شريك في قلبك).

3 ـ فعل الكبائر: (فإن رفضت يأخذك لما بعدها).

4 ـ الإكثار من الصغائر: (حتى تنفذ حسناتك وتصبح كبائر). فتستغفر وتتوب، فينزعج، ويأتي للبند الخامس.

5 ـ تضييع الوقت: (دون استغلاله في الحسنات والدين).

6 ـ إشغال العقول بالأقل أهمية عن الأكثر أهمية: أن يجعل عمارة الأرض آخر هَمٍّ في حياتك.

7 ـ أذيتك: (بأن يسلط عليك شياطين الإنس والجن) كأن يأتي أصحابك ليهزأوا بك. كأن يهزأوا مثلًا بالحجاب الذي تضعينه على رأسك.

فأنت في أي محطة منهم؟ ولا تكن كالذي قال الله فيهم:

﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ ﴿٢٠﴾﴾ [سبأ: 20]، بل كن من هؤلاء: ﴿إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾.

وكيف يتغلب إبليس عليهم؟ اسمع لقول الله تبارك وتعالى: ﴿لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ [الأعراف: 16-17]

انظر إلى العداوة؟ إنها معركة حقيقية حقّاً، معركة طويلة بدأت منذ بداية الخلق وستبقى إلى يوم الدين. ﴿قَالَ أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ [الإسراء: 62]، يقال: احتنكت الناقة: وضعت اللجام في فمها وشدقيها، كلمة بذيئة جدّاً، تخيل ماذا يقول عنك! ﴿قَالَ ٱذْهَبْ فَمَن تَبِعَكَ مِنْهُمْ فَإِنَّ جَهَنَّمَ جَزَآؤُكُمْ جَزَآءً مَّوْفُورًا ﴿٦٣﴾ وَٱسْتَفْزِزْ مَنِ ٱسْتَطَعْتَ مِنْهُم بِصَوْتِكَ وَأَجْلِبْ عَلَيْهِم بِخَيْلِكَ وَرَجِلِكَ وَشَارِكْهُمْ فِى ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَوْلَٰدِ وَعِدْهُمْ ۚ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴿٦٤﴾﴾ [الإسراء: 63، 64]، استفززهم بصوتك، بالمال بالقوة.. أجلب عليهم بخيلك ورجلك، معركة دائمة بينكم، لكن لا تخف، فإن الله سبحانه وتعالى يقول: ﴿إِنَّ عِبَادِى لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَٰنٌ ۚ﴾ [الإسراء: 65].

وكذلك قالها إبليس: ﴿إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ ﴿٤٠﴾﴾ [الحجر: 40]، كأن الله يقول لك: إبليس جهز جيشه ضدك، وأنت لك جيشك.. أنا معك. أنا سأجهّز لك جيشك.

جيشك: ذكر وعبادة وقيام وصوم رمضان، حصنك: صون المؤمنين، والعمل للدين، وإصلاح الأرض.

معك قرآن، معك ذكر، معك صلاة، معك عبادة، معك سجود، معك أذكار الصباح والمساء، معك رمضان، وأنا معك سأسدِّدك، معك التوبة ستجعلك قريب مني. ففي النهاية سيقف إبليس في النار ويقول للذين اتبعوه: ﴿وَقَالَ ٱلشَّيْطَٰنُ لَمَّا قُضِىَ ٱلْأَمْرُ إِنَّ ٱللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ ٱلْحَقِّ وَوَعَدتُّكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ ۖ وَمَا كَانَ لِىَ عَلَيْكُم مِّن سُلْطَٰنٍ إِلَّآ أَن دَعَوْتُكُمْ فَٱسْتَجَبْتُمْ لِى ۖ فَلَا تَلُومُونِى وَلُومُوٓا۟ أَنفُسَكُم ۖ مَّآ أَنَا۠ بِمُصْرِخِكُمْ وَمَآ أَنتُم بِمُصْرِخِىَّ﴾ [إبراهيم: 22].

تعالوا ناخذ على أنفسنا عهداً..

ان صدق قول ابليس فينا في السنوات الماضية، فلن يصدق قوله فينا هذا العام.

سنكون من عباده المخلصين، كيف؟

بالتذلل لله ﷻ.

ثمن الجنة غال...

إننا على الصراط الآن، كلما سرنا قليلاً، رأينا نوراً من الجنة يملأ قلبنا سروراً وبهجة، وها نحن قد وصلنا إلى باب الجنة، لكننا لا نستطيع الدخول؛ لأن الباب مقفل، والرسول ﷺ قائم معنا. وهو القائل عليه الصلاة والسلام: «**إن بين المصراعين من مصاريع الجنة إلى عضادتي الباب لَكَمَا بين مكة وهجر**»[1]، تخيل مساحة عرض هذا الباب، وعلى الرغم من ذلك، يقول الرسول ﷺ: «**إن الناس ليتزاحمون عليه**»، فتخيل تلك الأمواج البشرية! غير أننا لا

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 479).

ندخل وحدنا؛ بل معنا سيد الخلق أجمعين، وكل مجموعة من الناس تدخل مع من تحب، سيدنا آدم عليه السلام يدخل مع حواء؛ لأنه يحبها ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [البقرة: 35]، إن الله يأبى أن ندخل الجنة فرادى.

الناس التي أحبت بعضها في الدنيا تدخل بسهولة إلى الجنة، الناس الذين صلوا وصاموا وبكوا وخشعوا يدخلون سويّاً إلى الجنة.

وها أنت يا مؤمن قد دخلت الجنة، يا ترى ماذا ستفعل الآن؟ ستجري فرحاً؟ ستعانق الرسول؟ ستبكي شاكراً، ماذا ستفعل؟

ويأخذ الرسول ﷺ بيديك ويدخلك قصرك، وما شكل هذا القصر؟ لبنة من ذهب ولبنة من فضة، تخيل شكل هذا القصر، لمعانه، شكل الفخار فيه، والآنية! حصاؤها لؤلؤ، وسقفها ماذا؟ عرش الرحمٰن.

فتخيل أن كل ما أمرت به طاعات في الدنيا، نتيجته أن لك الجنة، والرسول ﷺ يقول في ذلك: «**لقاب قوسين في الجنة خير من الدنيا وما فيها**»[1].

المتر في الدنيا بكم؟ المتر على البحر بكم؟

ـ المتر في الجنة بركعتي صلاة.

ـ المتر في الجنة بيوم صيام.

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1651)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 3/ 157).

ـ المتر في الجنة بغض البصر عن المعصية.

إن بلد أمِّنا وأبينا هي الجنة، ونحن نريد أن نرجع إلى الجنة، نمكث قليلاً في الدنيا ثم نغادر.

خاطب الله ﷻ آدم عليه السلام بقوله: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾﴾ [طه: 118، 199]، ووعد الله ﷻ الصالحين أن: «**أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا خطر على قلب بشر**»[1]. فعباد الله لهم أشياء مخصوصة، تصور أنك ترى ما لم تَرَهُ عيناك، ولم تسمعه أذنك، ولم يخطر على قلبك أو بالك. تدخل الجنة فتتمنى وتعطى، ولك ما لم تتمنه لأنك لم تتخيله أصلاً.

إنها سبيل الشيطان... تزيين المعصية...

قال الله ﷻ: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾، فما علاقة العريّ في هذه الآية؟ هل تذكر القصة التي درسناها صغاراً في المدرسة، قصة الرجل القديم أو الإنسان القديم الذي كان شبه عريان.... إلخ.

والحق أن البشرية لم تعرف العري في زمانها الأول إلا بعد أن تقدَّمت وتطورت، فالمعلومة التي لدينا خطأ، كأن الله سبحانه وتعالى يقول له: إن من صفات وجودك في الجنة أنك مكسو غير عريان: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾﴾، فالجنة فيها آلاف

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 438).

الأشجار، كل الفواكه التي تشتهيها نفسك، إلا شجرة واحدة حرّمها الله على آدم. فكيف أقنعه الشيطان وأغواه أن يأكل من تلك الشجرة دون سواها؟!

هنا تكمن السبيل الأساسية التي يتبعها إبليس معنا في إغوائنا بكل محرّم.

سبيل واحدة اتبعها إبليس اللعين مع أبيك آدم، ويتبعها مع كل البشر، فما هي؟

تزيين المعصية... أن يزين لك المعصية فتراها أجمل مما تملك في يدك.

نعم هذه هي الطريق الوحيدة التي يتبعها معنا جميعاً، فهو على الأقل يجعلك تكره الطاعة التي تملكها بين جوانبك، فمثلاً: ترى رجلاً متزوجاً من امرأة جميلة جداً، أخلاقها حميدة عاقلة وناضجة وترضيه في كل ما يطلب منها، وفجأة تراه يجري وراء امرأةٍ أخرى ويعصي ربه بها. فيلومه الناس، بأن هذه المرأة لا تساوي شيئاً أمام زوجتك ولا تملك ما تملكه من مواصفات، فأين عقلك؟

نعم... إنها سبيل الشيطان القديمة، تزيين المعصية وهذا ما اتبعه مع سيدنا آدم عليه السلام، جعل هذه الشجرة أجمل من آلاف الأشجار الموجودة حتى يزينها له.

فاسأل نفسك... كم مرة أغواك الشيطان ليزين لك الحرام، ويكرّه إليك الحلال، كم مرة؟

قال تعالى: ﴿وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ﴾ [الأعراف: 20]، فعرف الشيطان من أين يأتي سيدنا آدم، مخلوق من صلصال، وحمأ مسنون، إنها الغريزة البشرية. وتصور أنه ما زال حتى الآن أناس يتصورون أن في الجنة شجرة الخلد، فأنى هذا وقد أكل منها سيدنا آدم ومات. فلاحظ تغيير الشيطان للأسماء، هي اسمها: شجرة محرمة، فيسميها له: شجرة الخلد.

لهذا ذكرنا موضوع العري... اعلم أن العري حرام، ومن يسميه: موضة، يسمي الأشياء بغير اسمها حتى يزينها لك. قال تعالى: ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّى لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾﴾ [الأعراف: 21]، أي: حلف لهما على صدقه، وواضح أن آدم وحواء لم يوافقا بسهولة حتى يضطره الأمر إلى الحلف. ومعنى هذا أنهما كانا يملكان شيئاً من المقاومة والإرادة؛ لأن آدم ﷺ لا يزال يعرف عن عالم المثالية (عجينة آدم وخلقه).

فلما حلف له الشيطان أنه من الناصحين، وأن هذه شجرة الخلد صدّق وحواء فأكلا منها. ﴿فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ﴾ [الأعراف: 22]، وقف ينظر بسخرية غير آبه بعقابهما.

عرّيهم يفعلوا لك ما بدا لك..

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا﴾، تعرّوا، وهل أتى العري من قليل؟ ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾، ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، حتى يداريا سوءاتهما من

الخجل، ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾، فتخيل لحظة النداء هذه، وإحساس سيدنا آدم وحواء ما وصفه؟

فتخيل فترة سيدنا آدم عليه السلام منذ أن خلقه الله ﷻ ومنذ سجود الملائكة له و... إلى هذه اللحظة ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ﴾، فلما أكلا من الشجرة وطفقا يخصفان عليها من ورق الجنة، أصبحا يجريان في الجنة فناداه الله ﷻ: أفراراً مني يا آدم؟ فقال: لا، ولكن حياءً.

وهنا ملحوظة غريبة يا إخوتي، ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا﴾ [الأعراف: 20]، أي: أن الشيطان كان يريد ويقصد تعريتهم بأي طريقة. فهدف الشيطان كان تعرية آدم وحواء. وهذا له علاقة كبيرة بعصرنا اليوم يا إخوتي وما نرى فيه.

فإبليس عرف أنهما إذا أكلا من الشجرة سيعريا؛ لأن الله تعالى قال: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾﴾ [طه: 118]، ولماذا هذا الهدف يا ترى؟

لأن أسرع طريقة للإفساد، العري. فهو يتبع طريقة: «عرِّيهم يفعلوا لك ما بدا لك»، عري يعني: نظرات متبادلة، اختلاط مستهتر، زواج عرفي، والخلاصة التي بيَّنها الله سبحانه وتعالى بعد هذه الحادثة: ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَٰرِي سَوْءَٰتِكُمْ وَرِيشًا ۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ۚ ذَٰلِكَ مِنْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ كَمَآ أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ ٱلْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا

لِيُرِيَهُمَا سَوْءَٰتِهِمَآ﴾ [الأعراف: 26، 27]، فبداية غواية الشيطان: ينزع عنهما لباسهما، والعجيب أن هذه طريق الشيطان على مر الزمان وفي كل مكان، «العري».

الشيطان يدخل لكل جيل بما يناسبه...

قال للعرب في أيام الجاهلية: لا تطوفوا بالبيت بثيابٍ قد عصيتم الله بها، فطافوا عراة، فضحك عليهم من نافذة العبادة.

وفي عصرنا الحالي عصر التقدّم والتطوّر، زيّن الشيطان للإنسان حب العري والملابس الخلاعية على أنها تطور حضاري وتقدّم فكري..

فأصبحت الحرية أن تتعرى النساء.

الموضة اليوم لباس ضيق، والموضة اليوم التعري... فهل عرفتم ما هي قضية الحجاب اليوم؟

ويقولون: إن آية الحجاب ذكرت مرة واحدة في القرآن.

يا اخوتي... انها قصة آدم... قصتنا كلنا نحن البشر، فايتها النساء تحجبن، ولا تدعن الشيطان يقترب منكن في هذه الناحية.

يا نساء، يا بنات، يا أمهات، يا آباء، انتبهوا لهذه القضية الخطيرة، أرجوكم.

انتبهوا لمعنى الحجاب والحشمة. انظر حديث الرسول ﷺ:

«صنفان من أمتي لا يدخلون الجنة، ولا يجدون رائحة الجنة، وإن رائحة الجنة لتشم من بعد خمسمئة عام».

والصنف الآخر: **«نساء كاسيات عاريات، مائلات مميلات»**[1]، فهل ما زلت مقتنعة بلباسك الخلاعيّ؟!

فتعلموا يا إخواني أن الشيطان يدخل لكل جيل بما يناسبه.

وانظر إلى سورة «الأعراف» من الآية (20) إلى الآية (26)، سترى أن الله تعالى ذكر مسألة العري أو السوءة أكثر من خمس مرات في صفحة واحدة من القرآن. فلماذا سميت في القرآن بالسوءة وليس بالعورة؟

لأنه يسوء الإنسان كشفُها ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ﴾، مع أنه لا يوجد غيرهما، فلماذا أراد أن يداريا أنفسهما؟ لأن الحياء جزء من فطرة آدم وحوّاء.

فلماذا أصبح لدينا هذا الأمر عاديّ وليس بعيب أو حرام؟

لماذا على أجهزتنا ومجلاتنا؟ ولماذا بناتنا؟ لماذا نريد تقليد الغرب في سيئاتهم ولا نقلدهم في حسناتهم؟

أرجوكم... أرجوكم... الحجاب والعِفّة. إن لم تكوني قادرة على الحجاب وتفتقدين الإرادة فأرجوكِ العِفّة... أرجوك.

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 5547)، و(الحديث: 7123).

احبائي... هل حواء هي السبب في معصية آدم...

هناك أسئلة دائماً تطرح، هل حواء هي التي أغوت آدم ليأكل من الشجرة؟ فهل هي السبب في معصية آدم؟ هل هي من أنزل آدم من الجنة؟

والحقيقة أن كل الشرائع قبل الإسلام تقول هذا، إلا الإسلام والجواب: لا وألف لا، فكيف هذا الأمر إذن.

الاثنان مشتركان في المعصية، ولذلك تجد في القرآن، كلما ذُكِرت قصة هذه المعصية، ذُكِرت بالمثنى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُۥرِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَٰتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةِ إِلَّآ أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ ٱلْخَٰلِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّىٰهُمَا بِغُرُورٍ ۚ فَلَمَّا ذَاقَا ٱلشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَٰتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ ٱلْجَنَّةِ ۖ وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا ٱلشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾﴾ [الأعراف: 20-22].

قصة آدم عليه السلام

إن إبليس نجح أن يوسوس إلى آدم وحواء ليأكلا من الشجرة التي نهاهما الله عنها.

فكانت السبب بهبوطهما من الجنة إلى الأرض، ووسوسة الشيطان لهما ليخرجهما مما فيه تؤكد معنى كبيراً ومهماً، ألا وهو عداوة إبليس للإنسان منذ أن خلق الله سيدنا آدم عليه السلام، ولم يرض أن يسجد لآدم بعد أن سجد له كل الملائكة وهو يعني ذلك الشعور الأزلي بهذه العداوة من خلق آدم إلى يوم القيامة.

وهنا يأتي قول الله تعالى: ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى وَهُمْ لَكُمْ عَدُوٌۢ ۚ بِئْسَ لِلظَّٰلِمِينَ بَدَلًا﴾ [الكهف: 50].

ماذا تعني هذه الآية:

تعني: أنك اتخذت الشيطان بدلاً من رضى الله ورضيت أن تعصي الله، فهل أنت مستعد لهذه العداوة؟! هذا أسوأ استبدال في الدنيا وهو أن تستبدل رضى الله ﷻ بعدوك، وإبليس قد حسم تلك العداوة منذ أن خلق الله سيدنا آدم عليه السلام، وهو ملعون إلى يوم الدين.

ولذلك جعل الله لنا عبادة نقوم بها لمعاداة الشيطان ألا وهي الصلاة، بالإضافة إلى عبادة الحج، فعندما يذهب الحاج إلى

بيت الله الحرام ويأتي يوم رمي الحجارة، وفي المكان الذي أمرنا الله أن نرجمه كما فعل سيدنا إبراهيم عليه السلام عندما ذهب ليذبح سيدنا إسماعيل عليه السلام في ذلك المكان، وهناك وسوس له الشيطان بأن يعود عن ذلك عدة مرات، فأمر الله أن يكون ذلك هو المكان لرمي ورجم الشيطان بالحجارة وذلك لمدة أربعة أيام وبسبعين حجراً وبكل حجرة يقول: بسم الله، وهذا ما يدعونا إلى أن نتخذه عدوّاً.

قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ صَدَّقَ عَلَيْهِمْ إِبْلِيسُ ظَنَّهُ فَاتَّبَعُوهُ إِلَّا فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٠﴾﴾ [سبإ: 20].

نتائج معصية الله من أكل الشجرة

يجب علينا أن نتذكر دائماً قصة سيدنا آدم عليه السلام وحواء عندما أكلا من الشجرة، فالاثنان مسؤولان، وآدم عصى الله ونتائج معصية الله أربعة هي:

1 ـ الفضيحة: ﴿بَدَتْ لَهُمَا سَوْءَاتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾ [الأعراف: 22].

2 ـ إخراجه من الجنة: ﴿وَقُلْنَا اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ﴾ [البقرة: 36].

3 ـ النداء عليه باسم العصيان: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾ [طه: 121].

4 ـ العتاب: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [الأعراف: 22].

وللعلم إن أصعب شيء يوم القيامة هو العتاب من الله سبحانه وتعالى على عبده حيث يقول الله تعالى: ﴿اَقْرَأْ كِتَٰبَكَ﴾ [الإسراء: 14].

غضب الله من غضب الوالدين

فمثلاً: لو وقفت أمام والديك بعد قيامك بعمل يغضبهما فكيف سيكون موقفك أمامهما، فما بالك بموقفك أمام رب العزة وأمام كل الخلائق يوم القيامة؟ ويقول لك الله سبحانه وتعالى: ألم أرزقك، ألم أعطيك، ألم أنعم عليك، ألم أنزل القرآن على هذه الأمة ليتعلموا منه ويعملوا به؟!

هل جهزت نفسك يابن آدم لهذا اليوم؟! هل نسيت أنك ستلقاني؟!

يوم القيامة

ومن كرم الله على عباده أنه ينادي عبده فيقول: ادنُ مني يا عبدي ويرخي عليه ستره، أتذكر ذنبك الفلان ويظن أنه هالك ويقول له: سترتها عليك في الدنيا وها أنا أغفرها لك الآن، أي: في الآخرة.

كل ذنب آدم أنه أكل لقمة واحدة، وكان هذا أثر المعصية فكيف بنا نحن الآن، إن المعصية تورث غضب الله ﷻ، وهنا حديث قدسي للإمام أحمد في مسنده: **«أنا الله لا إله إلا أنا، إن أُطِعت رضيت وإن رضيت باركت وبركتي ليس لها منتهى، وإن**

عُصيت غضِبت وإن غضبت لعنت ولعنتي تصل إلى سابع من الولد».

نتائج المعصية

ومن نتائج المعصية أيضاً حديث الرسول ﷺ: «**يكرهك المؤمنين**»، يقول الحسن البصري: ليحذر أحدكم أن يلعنه المؤمنين وهو لا يشعر... يعمل في معصية الله فيكرهه المؤمنين.

ومن نتائجها أيضاً: وحشة من الله فتشعر أنك بعيد من الله، وحشة بينك وبين الناس، تتمثل في العلاقة مع الأهل والأقارب.

فتجد نفسك محروماً من الطاعة قليل الرزق كثير الأمراض والعلل، كل ذلك من نتائج المعصية.

يقول الحسن البصري: وإن من نتائج طاعة الله ﷻ:

بياض في الوجه، ونور في القلب، ومحبة في قلوب الناس، وسعة في الرزق وبركة وقوة في البدن.

أما نتائج المعصية هي: سواد في الوجه وقلة في الرزق وضعف في البدن، وظلمة في القلب وبغضة في قلوب الناس.

طلب المغفرة

نعود إلى قصة سيدنا آدم عليه السلام، فبعد أن عصى ربه لا يعرف ماذا يفعل، ولا يعرف كيف يتوب إلى الله ويطلب المغفرة منه، روي في الأثر أن الله تعالى قال: أفراراً مني يا آدم؟ فقال: لا ولكن حياءً

وذلك بعد أن ظلّا يجريان هو وحواء في الجنة.

عليك أن تخجل من الله من الذنب، يقول ابن القيم: «فرحك بالذنب أشد عند الله من الذنب»، الفرحة أسوأ من المعصية نفسها وهذا من خطورة المعصية، وضحكك وأنت تفعل الذنب بملء فيك هو أعظم عند الله من الذنب، وحزنك على فوات الذنب إذا فاتك هو أشد عند الله من الذنب، فإذا أردت أن تعصي الله مثل أن تغازل الفتيات ولم تستطع أن تفعل ذلك فتحزن لهو أشد عند الله من ذلك الذنب، فعليك أن تفرح لأنك لم تفعل.

وحرصك أن تستر نفسك وأنت تذنب وأن لا يطلع عليك أحد، ولا يضطرب قلبك لحظة وبأنّ الله مطلع عليك هو أشد على الله من الذنب.

وأراد آدم أن يتوب إلى الله، ولكنه لا يدري ماذا يفعل ليغفر الله له.

قال تعالى: ﴿فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾﴾ [البقرة: 37] هذه الآية تجعلك تحب الله حباً عظيماً، ومعنى هذه الآية أن الله ﷻ قال لآدم: هل تريد أن تتوب؟ فقال له آدم: نعم، فقال له ﷻ: قل هذه الكلمات فأتوب عليك، فقالها فتاب عليه.

من نفخ فيه الروح ومن سجد له الملائكة ومن سكن الجنة، ومن أنعم عليه الزوجة ومن أبى إبليس أن يسجد له... يذنب فيتوب فيسامحه الله ويغفر له بكلمات استغفر ربه بها!!

التذلل إلى الله ﷻ

قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٢٣﴾﴾ [الأعراف: 23]، عليكم بالتذلل إلى الله ﷻ، فمنذ خلق الله آدم وهو عبد له، عليك أن تتذلل لله وتعترف بخطئك وتطلب المغفرة، وإلا فسوف تضيع، أي: أن تقول دائماً وتدعو وتتذكر: ربنا ظلمنا أنفسنا وإن لم تغفر لنا سنضيع ونندم..

قال رسول الله ﷺ: **«اللهم أنت ربي لا إله إلا أنت خلقتني وأنا عبدك، وأنا على وعدك وعهدك ما استطعت أعوذ بك من شر ما صنعت، أبوء لك بنعمتك عليّ وأبوء بذنبي فاغفر لي فإنه لا يغفر الذنوب إلا أنت»**[1].

وقال آدم عليه السلام لربه: يا رب، ألم تخلقني بيديك، ألم تنفخ فيّ روحك ألم تسكنني الجنة، يا رب، ألم تقل لي أن رحمتك سبقت غضبك، يا رب، إن تبت إليك أأنت مرجعي إلى الجنة؟ فقال له الله ﷻ: **«نعم أنت وزوجك»**.

الإسراع إلى التوبة

أسرع سيدنا آدم عليه السلام إلى التوبة عندما أذنب، ونحن أولى ـ إخواني ـ أن نسارع إلى التوبة من كل ذنب فعلناه ومن كل معصية

---

(1) أخرجه **أبو داود في** (الحديث: 5070)، وأخرجه **ابن ماجه في** (الحديث: 3872)، وأخرجه الإمام **أحمد في** «مسنده» (الحديث: 4/ 122)، و(الحديث: 4/ 125).

ارتكبناها، ونطلب من الله أن يغفر لنا وأن لا نُصر على الذنب وننوي ذلك من قلبنا ونقول: يا رب إننا نتوب إليك من هذا الذنب ونطلب الرحمة والمغفرة منك.

قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ﴾ [الزمر: 53]، يقول الرسول ﷺ في الحديث الصحيح: «**إن الله يقبل توبة عبده ما لم يغرغر**» وقال رسول الله ﷺ فيما يرويه عن ربّه: «**إن رحمتي سبقت غضبي**»[1]. ويقول الرسول ﷺ أيضاً: «**إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم أكثر من سبعين مرة**»[2].

ويقول الصحابة: كنا نَعُد في الجلسة للرسول أكثر من مئة استغفار وهو النبي المعصوم من الخطأ والمغفور له ما تقدم وما تأخر من ذنبه وهو يستغفر إلى الله في اليوم أكثر من سبعين مرة، فأين نحن من ذلك؟ كم نستغفر الله في اليوم الواحد، وكم نتوب ونطلب المغفرة والرحمة من الله.

يقول الرسول ﷺ: «**إن الله يبسط يده في الليل ليتوب مسيء النهار ويبسط يده في النهار ليتوب مسيء الليل**»[3].

---

(1) ذكره **السيوطي** في «الدر المنثور» (الحديث: 3/ 6).
(2) أخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 3817).
(3) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 31)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 4/ 395).

حياة جديدة

عليك أن تبدأ بداية جديدة وكأنها حياة جديدة بأن تطلب المغفرة والعتق من النار، واعلم أن الله يفرح بتوبة عبده كثيراً. فمن الذي يكون أكثر فرحاً بالتوبة المعطي أو الآخذ والله هو الكريم الغفور.

فمثلاً: لو عصى شاب والديه وطرده والده من المنزل وعندما حل الليل حاول العودة ولكنه خاف من والده فنام على باب منزله. ولكنه لو ذهب إلى والديه وطلب المغفرة منهما لاحتضنوه وغفروا له، والله أرحم من هذا الأب بولده وهذه الأم بولدها.

فالله هو التواب الرحيم، هو الذي يساعدك على ترك المعاصي، وبعد أن تاب الله على آدم عليه السلام اجتباه فصار نبياً بعد المعصية، فيا أيها الشباب أيتها الفتيات... ادعوا الله أن يتوب عليكم من المعاصي.

سُئل رسول الله ﷺ: من هو أول الأنبياء؟ قال: «**هو آدم**»، فقال الصحابي: أكان نبيًا يا رسول الله؟ قال: «**نعم نبي مكلّم**»[1].

وهذا يعني أنه لو عصيت وتبت تعلو عند الله وتسبق الناس كلهم بالتوبة وذلك لأن قلبك يريد التوبة.

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 178)، و(الحديث: 5/ 265).

مخاطبة آدم... رسالة الله إلى آدم:

وبكى آدم فناداه الله بعد أن أُنزل إلى الأرض وهو حزين على فوات الجنة وجوار الله سبحانه وتعالى. وقال له: يا آدم، كنت تدخل عليّ دخول الملوك على الملوك، والآن تدخل عليّ دخول العبد على الملوك، وهذا أحب إلينا.

ويقول له أيضاً: يا آدم، إذا عصمتك وعصمت بنيك من المعصية فعلى من أجود برحمتي وأجود بعفوي، وعلى من أجود بكرمي. يا آدم، أنين المذنبين أحب إلينا من تسبيح المرائين، يا آدم ذنبٌ تتذلل به إلينا أحب إلينا من طاعة تتراءى بها علينا.

يا آدم، لا تجزع من قولي لك اخرج من الجنة، ولكن اهبط إلى أرض الله، وابذر البذور وجاهد في سبيلي، وأصلح هذه الأرض حتى إذا اشتقت إلي فادخل إلى الجنة.

رسالة جميلة نتذلل بها الى الله ﷻ، أريد أن تصلح في الأرض حتى اذا اشتقت الينا سأدخلك فيها اي: الى الجنة.

ان قمة العبادة الى الله، هو طلب المغفرة وطلب العفو والتذلل اليه ليتوب عليك وتنال رضاه ومحبته حتى تدخل بهما الجنة.

هبوط آدم على الأرض

هناك أشياء كثيرة لم نذكرها في قصة آدم عليه السلام فقد يسأل الإنسان نفسه: كيف دخل إبليس إلى الجنة؟ وكيف أكل آدم من هذه الشجرة؟ وما كانت تلك الشجرة؟ كل هذه الأسئلة ليس لها قيمة أو معنى وهي ليست مهمة لذلك لم يذكرها الله لنا.

آدم عليه السلام سينزل إلى الأرض، فقد اكتملت فترة تأهيله وتجهيزه واكتملت تجربته:

1 ـ اكتشف في نفسه أن له نفخة من الله عز وجل.

2 ـ أعطيت له صفات عظيمة.

3 ـ لا مثالية في الحياة بل واقعية، وأن لإبليس أهدافاً وهي الاستهزاء به ودعوته إلى المعصية.

4 ـ اكتشف أن في الحياة نظام توبة يعيده إلى الله عز وجل.

مرحلة الحياة على الأرض:

إن نظام الحياة على الأرض صعب، لذلك كان آدم بحاجة إلى فترة تأهيل وتجهيز، فكل واحد منا في الحياة هو بحاجة إلى مثل هذه الفترة، وتبدأ هذه المرحلة من بدء النمو إلى أن يصل إلى سن العشرين عاماً.

ولأن الإنسان هو المسؤول عن خلافة هذه الأرض فهو يحتاج إلى فترة كبيرة حتى يتم هذا التأهيل والنمو الصحيح، فهو ليس كالحيوان الذي ينمو بسرعة: يمشي خلال أشهر ويبلغ بعد سنة، كالشِّبل الذي يصبح أسداً بعد سنة ونصف فقط من ولادته، وذلك لأن الله تعالى خلق الحيوان للأكل والشرب فقط وهو سيكون في الآخرة تراباً لا عقاب له أو حساب.

إن بداية الإدراك الحسي يبدأ عند الإنسان منذ السبعة أعوام حتى يصل إلى سن العشرين.

وهل فكرت لماذا كان هناك فكرة الوالدين والأسرة، وأهمية بر الوالدين وإصلاح الأسرة؛ لأنهم هم الذين سيمكنونك بالارتباط بهذه الأرض حتى تقودها.

إن الأرض ابتدأت بأسرة وهي تزاوج آدم وحواء ونتيجة ذلك كان إعمار الأرض.

مسؤولية الأرض

قال الله تعالى لآدم وحواء... ثم لنا جميعاً: أنتم مسؤولون عن هذه الأرض، فمَدَّنا بالعقل والأسرة والوالدين وقانون التوبة ونفخة من روحه، ومن القوة والشجاعة والحماسة والوفاء والصدق وهي من صفات الله سبحانه وتعالى. فأنزل الله آدم وحواء وإبليس

هؤلاء الثلاثة فقط فقال: ﴿اَهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾ [البقرة: 36]، فالاثنان (آدم وحواء) هما مسؤولان عن إصلاح هذه الأرض، والواحد (إبليس) هو الذي سيفسدها، ومن سيأتي من ولد آدم صنفان منهم من سيمشي وراء آدم ومنهم من سيلحق بإبليس.

مكان الهبوط

وردت عدة أقوال عن مكان هبوط سيدنا آدم وحواء، هناك من يقول: إنه هبط في الهند وحواء في مدينة جدة ولذلك سميت جدة نسبة إلى حواء فهي جدتنا، فسار إليها آدم ووصل إلى جبل عرفات فالتقيا هناك، ولكن كل هذه الأقاويل ليس لها أصل ثابت.

مرحلة التزاوج

بدأ التناسل بين حواء وآدم بعد أن تزوجا وعملوا مع أولادهم لإصلاح الأرض وإعمارها.

ومنذ أول يوم هبط آدم إلى الأرض بدأ القيام بدوره في إعمار الأرض وبدأ بتحقيق دور الخليفة التي خلقه الله من أجله، ولم يستطع إبليس أن يهزأ به إلا مرة واحدة فقط عندما وسوس له وأكل من الشجرة التي حرمها الله عليه، لذلك قال الله تعالى: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: 62].

تكرار المعصية

هل من المعقول أن الشيطان قادر على أن يهزأ بالإنسان أكثر من عشرين مرة؟! تخيَّل شخصاً يقع في حفرة أمام بيته كل يوم مرتين ولمدة عشرين عاماً كيف يكون عقله؟! علينا أن نفهم من هذا المعنى.

لقد عاش آدم تسعمئة وأربعون عاماً، وعاش نوح تسعمئة وخمسون عاماً وكان طول آدم ستون ذراعاً، ومنذ ذلك الزمن بدأت الأعمار تتناقص والأحجام تتقلص... لماذا؟

إن التطور العلمي والتكنولوجي والتقدم المادي وأسلحة الدمار الشامل وتفشي الفساد بسرعة كل هذه تؤدي إلى سهولة المعصية، فلو عاش الإنسان ستمئة عامٍ مثلاً سيكون له مدة طويلة ليفسد أكثر ويعصي أكثر، ومدة أطول حتى يتوب، فلا داعي وقتئذٍ للدعوة إلى الله والتوبة والمغفرة، ولكن من رحمة الله بهذه الأمّة أنه قلص الأعمار حتى نتوب بسرعة، ولأن الحياة أصبحت قصيرة فلنسرع إلى طلب المغفرة والتوبة.

بناء البيت

وأوحى الله إلى آدم عليه السلام أن ابني لي بيتاً، وبذلك يكون أول من بنى بيتاً لله هو آدم عليه السلام، وبعد أربعين عاماً بنى بيت المقدس، قال تعالى: ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ﴾ [آل عمران: 96]، وسميت بكة لكثرة البكاء فيها من خشية الله تعالى.

ولقد سئل الرسول ﷺ: كم كان بينهما؟ فقال الرسول ﷺ: «**أربعون عاماً**»[1] فكانت له رحلة الإسراء من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى.

موت آدم عليه السلام

. . . وبدأت رحلة النهاية، نهاية أبو الأنبياء وأبانا هو أبو البشرية جميعها، فحضر ملك الموت إلى آدم وجاءت الملائكة فقبضته وغسلته وكفنته ودفنته وصلَّت عليه، وقالت لبني آدم: هذه سنَّتكم إلى يوم القيامة.

علاقة آدم بالنبي محمد ﷺ

سئل الرسول ﷺ: متى وجبت لك النبوة يا رسول الله؟ فقال الرسول ﷺ: «**وآدم بين الروح والجسد**»[2]، «**إني عند الله لخاتم النبيين وإن آدم لمنجدل في طينته**»[3].

وقد التقى النبيّ محمد ﷺ بسيدنا آدم في رحلة المعراج مع سيدنا جبريل عليه السلام.

فعندما صعد جبريل بسيدنا محمد ﷺ إلى السماء وَصَلا إلى السماء الأولى فلما طرقا الباب قال له آدم: من معك؟ قال: النبيّ

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3366)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 1161)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 689)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 753)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 150).

(2) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3609).

(3) أخرجه **الهيثمي** في «مجمع الزوائد» (الحديث: 8/ 223).

محمد فدخل، فقال الرسول ﷺ: «**رأيت رجلاً جالساً وعن يمينه سواد وعن يساره سواد عظيم فينظر إلى اليمين فيضحك، وينظر عن يساره فيحزن، فقال له جبريل: هذا أبوك آدم يا محمد**»[1]، فهو كان ينظر عن يمينه فيضحك لأنهم أبناءه من أهل الجنة، أما الذين عن يساره فهم أبناءه من أهل النار، فالذين عن يمينه قد تعلموا من تجربته فيفرح، أما الذين عن يساره فهم لم يتعلموا وعصوا وأصروا على المعصية وماتوا ولم يتوبوا إلى الله فيحزن. ويرد آدم التحية على الرسول ويقول له: مرحباً بالنبي الصالح والابن الصالح، أما باقي الأنبياء فكانوا يردون بالتحية على النبي محمد ﷺ: مرحباً بالنبي الصالح والأخ الصالح.

فكان هذا هو اللقاء بين النبيّ محمد ﷺ وسيدنا آدم عليه السلام في رحلة المعراج.

علاقة آدم بيوم القيامة

ينادي منادٍ يوم القيامة: يا آدم إن الله يأمرك بأن تخرج من ذريتك بعثاً إلى جهنم، فيقف آدم ويقول: يا رب كم؟ فيقول له: أَخرج من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون إلى النار ويبقى واحد يذهب إلى الجنة.

ويقول الرسول ﷺ للصحابة: «**وإن الله سبحانه وتعالى يأخذ**

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3342)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 413)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 448)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 1399).

من كل ألف شخص تسعمئة وتسعة وتسعون منهم إلى النار»، وبدأ الصحابة هنا يغطون رؤوسهم وبدأوا بالبكاء، فقال الرسول: «**منكم لا ولكن من أمة يأجوج ومأجوج ومنكم واحداً فأرجو أن يكون فيكم ربع أهل الجنة**» فيبدأون بالتكبير والتهليل، ثم قال: «**أرجو أن يكون منكم نصف أهل الجنة**»[1]، ثم عاودوا التكبير والتهليل والفرح بما وعدهم الرسول.

يقول الرسول ﷺ: «**وإنكم بين الأمم كالشعرة البيضاء في الثور الأسود أو كالشعرة السوداء في الثور الأبيض**»[2].

ويبدأ آدم يوم القيامة بما أمره الله، ويقول بعدها الخلائق: من يشفع لنا؟ متى يبدأ الله الحساب؟ ويقول الكافر: ليبدأ الحساب ولو إلى النار، ثم يسيرون إلى آدم فيطلبون منه أن يشفع لهم، فيقول آدم عليه السلام: عصيت ربي لأني أكلت من الشجرة فيقول: نفسي نفسي، فيذهبون إلى الرسول محمد ﷺ فيشفع لهم.

ملخَّص قصة آدم

تبدأ القصة بالتكريم ثم التكليف وهو المسؤول عن هذه الأرض وإصلاحها، ثم ينسى فيعصي الله سبحانه وتعالى، ويهبط إلى الأرض ويمنحه الله التوبة فيتوب فيغفر له ويبقى من بعده من يخلفه من أبنائه ثم يعود إلى الله ـ أي: إلى التكريم ـ

أين نحن من هذه الدائرة؟ كل منا حدث له كل هذه

---

(1) أخرجه **البخاري** (الحديث: 6528)، وأخرجه **مسلم في** (الحديث: 528)، وأخرجه **الترمذي في** (الحديث: 2547)، وأخرجه **ابن ماجه في** (الحديث: 4283).

(2) أخرجه **مسلم في** (الحديث: 528).

الأشياء... أي: أن كل إنسان مر بكل تلك المراحل ووقف عند شيء منها، إما النسيان أي: نسيان الطاعة، أو المعصية أي: الاستمرار على ارتكاب المعصية والإصرار عليها، أو الوصول إلى التوبة وإلى رضى الله وتوليه الخلافة فيكون الهدف إصلاح هذه الأمة وإصلاح كل مفسد.

هناك أناس توقفت عند المعصية وعند النسيان ولم تستطع الخروج، حاول أن تصل الى التوبة لتصل الى التكريم والى رضى الله ﷻ.

نوح عليه السلام

المدة الزمنية بين آدم عليه السلام ونوح عليه السلام

المدة التي كانت بين سيدنا آدم وسيدنا نوح عشرة قرون، والدليل حديث الرسول ﷺ: سئل الرسول ﷺ مرة: هل آدم نبياً؟ قال: «**نعم نبي مكلَّم**»، فقيل له: فكم كان بينه وبين نوح؟ قال: «**عشرة قرون**»[1].

فهل المقصود بالقرن هنا: المئة سنة؟ أو يعني: الجيل؟ إنما هو الجيل؛ لأن الرسول ﷺ يقول: «**خير القرون قرني**»[2]، أي: خير الأجيال جيلي.

لذا لو كان المقصود بالقرن هو الجيل، فسيكون مجاله أكثر من ألف سنة، خاصة أن أهل ذلك الزمان كانوا من المعمرين.

كان الفرد منهم يعيش خمس مائة سنة وسبع مائة سنة، وهكذا دواليك، فالجيل هنا إذن هو أكثر من ألف سنة.

وما المهم في هذه الحِسبة هنا؟ في رواية للبخاري: أنه كان

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 178).

(2) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2302).

بين آدم عليه السلام ونوح عليه السلام عشرة قرون، كلهم على الإسلام، أي: أن بداية الأرض كلها عبودية لله.

فما الحاصل الآن؟

كلما زاد المال في الأرض وكلما زادت التكنولوجيا، يتكبر الناس على خالقهم... بدل من أن تكون المعادلة: كلما زاد المال والعلم والتكنولوجيا، زادت المعرفة والإيمان بالله أكثر؟ فتخيل حوالي ثمانية آلاف أو عشرة آلاف سنة، كلها على الإيمان والطاعة لله! عبودية وصلاة وإصلاح في الأرض ووعي بأمور الخلافة في الأرض.

فما الذي حصل حتى يتكبَّر الخلق على الله سبحانه وتعالى؟

أرجوك أخي المسلم، مهما كنت غنياً، مهما كنت عالماً، مهما كان مركزك في الأرض، تواضع وتذلل لله سبحانه وتعالى. وهنا لا بد من لفت نظركم إلى هذه الملحوظة بالنسبة للإيمان بالله الذي كان سائداً يومذاك، أنه لم يكن في عصر نوح هذا العدد من الأنبياء الذي عهدناه في عصورٍ أخرى. فلماذا كثرة الأنبياء والرسل إذا كان الناس عارفين بالله وطائعين له؟ لذلك ترى بني إسرائيل قد أرسل إليهم العديد والعديد من الرسل والأنبياء حتى يؤمنوا ويرجعوا إلى الله، ولكن أبَوا إلا الكفر والعصيان والتكبر على الله ﷻ، بينما أمة محمد ﷺ لها نبي واحد يكفيها ليوم القيامة، انظر إلى هذه المعاني التي تجلت لنا من دراسة هذه الحسبة وأخذها بالحسبان،

ومن أجل ذلك لم يكن بين آدم ونوح سوى إدريس عليهم السلام ؛ لأن الأرض كانت كلها طائعة لله ﷻ يومذاك.

ونحن اليوم لدينا مشاكل كثيرة، فلماذا بُعِث لهذه الأمة نبي واحد؟

ذلك لأن أمة محمد ﷺ لديها خصوصية عن باقي الأمم، فما هي هذه الخصوصية؟ هذه الخصوصية هي أن الأمة كلها مكلفة بالذي كُلِّفَ به محمد ﷺ.

كأن الله ﷻ يقول لنا: مات نبيكم العظيم، وأصبح الآن دوركم أن تقلدوا نهج نبيكم وتنشروا الدين كما نشره، فهذه ليست مهمة الأزهر فقط، ولا مهمة الشيوخ فقط، بل مهمتنا جميعاً، كأننا حلَلْنا مكان الأنبياء لننشر هذا الدين العظيم في كل بقاع الأرض، هذا كان مراد الله ﷻ، ومن أجل ذلك كان محمد عليه الصلاة والسلام خاتم النبيين.

أمة محمد كلها مسؤولة عن الإسلام وعمارة الأرض...

تخيَّل أخي المسلم التقصير الذي أنت فيه الآن!

التقصير الأول: قال تعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30].

التقصير الثاني: أنتم مسؤولون عن هذا الدين إلى يوم القيامة، فأنت خُلِقت لأجل هاتين المهمتين:

عمارة الأرض، ونشر الدين، فأين أنت من هذا؟ فلا تقل: لا أملك معلومات.

سيدنا أبو بكر الصديق ﷺ، عندما أصبح من العشرة المبشرين بالجنة، هل كان لديه معلومات؟ كان له روح وغيرة وحب للإسلام، كان لديه شعور بالمسؤولية تجاه هذا الدين، هذا تشريف قبل أن يكون تكليفاً.

والمعنى الذي نريده هو أن أمة محمد كلها مسؤولة عن الإسلام، وهي المسؤولة عن الأرض.

يا اخوتي، نحن مسؤولون عن هذا الدين، ليس لنا الا نبي واحد لماذا؟ لأننا مسؤولون من بعده، فهذه مهمتي، ومهمتك ومهمة الجميع، أرجوك اسمع واعقل معي هذا الكلام.

فهل عرفتم الآن معنى قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم﴾ [آل عمران: 110].

فانظر كيف وضع لنا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قبل الإيمان بالله! لماذا؟

ذلك لأنك حين تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر يزيد إيمانك... أي كلما تصلح أنت، كلما يزيد إيمانك.

فإذا انتظرت وقلت: عندما يكتمل إيماني سوف أصلِح وأعمِر، ستموت وإيمانك لم يكتمل.

أو أن تأتي يوماً وتقول: إيماني اكتمل الآن، حينها ستصاب بالغرور ولن تعد صالحاً لهذه المهمة، التي لا يصلح لها المغرورون.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾، فلمَّا أنسانا الشيطان هذه المهمة ضعنا وخَربت الأرض.

فانت مسؤول في مدرستك، في جامعتك، في مَسْكَنِك، أنت مسؤول تجاه كل الناس، تجاه أقاربك، جيرانك أصحابك.

قصة سيدنا نوح تحثّنا على الدعوة لله، لذلك قال الرسول عليه الصلاة والسلام: «**بلّغوا عني ولو آية**»[1]، ولذلك كان عقب كل خطبة يقول: «**فليُعلم الحاضر منكم الغائب**».

وكذلك قال: «**نضَّر الله وجه امرىءٍ سمعها فوعاها فأدَّاها كما سمعها**»[2]، حبِّب جميع الناس بدينك، لا تقل: لا أجيد الكلام، أو أخجل، أعطهم شريطاً، افعل أي شيء فليس لك حجة مهما قلت ودافعت عن نفسك، والله تعالى يقول: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: 108]، فهل أنت متبع أم لا؟ فهل اتضح لك لماذا لم يرسل نبي بعد محمد ﷺ؟ لأنك أنت المكلف من بعده.

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3461)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2669)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 159)، وأخرجه **الدارمي** في (الحديث: 1/ 136).

(2) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2658).

لابن القيم كلمة جميلة في هذا المقام: اعلم أن مقام الدعوة إلى الله وإصلاح الأرض أعلى مقامات العبودية لله؛ لأنه مقام محمد ﷺ.

ما الذي أدى إلى بعثة نوح عليه السلام؟

عاش سيدنا نوح عليه السلام، عشرة قرون والأرض كلها في صلاح وثبات فما الذي أدى إلى بعثة نوح عليه السلام؟

فالرسول يُبعَث بعد أن ينتشر الفساد في الأرض، لماذا؟ حتى يمهل الله العباد أولاً، وحتى ينظر أيخرج منهم المصلحون أم لا؟ فيأخذون الثواب ويؤجل الله الأنبياء لمن يحتاجهم أكثر.

والقصة التي أدت إلى بعثة الرسول هنا، هي قصة الشيطان أتذكرون قول الشيطان لله ﷻ: ﴿قَالَ فَبِعِزَّتِكَ لَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٨٢﴾﴾ [صٓ: 82]، و﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ﴾ [الإسراء: 62]، مما يعني أن إبليس كان جادًا في دعوته، أفلا يكون عيباً علينا ألا نكون صادقين في دعوتنا؟

ويبدأ الشيطان يرقُب الجدية والصلاح في الأرض، فهو يريد أن ينفذ ما توعَّد به المصلحون.

قبل أن يُبعث سيدنا نوح عليه السلام كان قبله خمسة مصلحين وهم: وُدّاً، سُواعاً، يغوث، يعوق، نسراً، لم يستطع الشيطان أن يقرب منهم، فهو لا يستطيع الاقتراب من المصلحين، بل ظل يرقب ويتحيّن الفرص ليفسد في الأرض.

فمن أجل ذلك قال الرسول ﷺ: «**يبعث الله لهذه الأمة على رأس كل مئة عام من يجدِّد لها أمر دينها**»[1]، لا يوجد أنبياء لأن محمداً ﷺ خاتم الأنبياء، بل مصلحون يشتغلون بأمر دينهم أينما وُجِدوا وأينما حلوا.

وظل الشيطان يرقُب وقتها حتى مات أولئك الخمسة، فلما ماتوا، لم يظهر غيرهم، كما خصَّ الله أمة محمد بمصلحين كل مئة عام.

فاعتبر الشيطان أن هذه فرصةً له، فأخذ يقنع الناس أن المصلحين العظماء قد ماتوا وطُويت صفحتهم، فوجب عليكم أن تذهبوا وتزوروا قبورهم كل أسبوع، فنفذوا أمره.

بعدها قال: إني أخشى أن ينسى الناس دين هؤلاء الخمسة فاصنعوا لهم تماثيل؛ لأنكم أنتم من رأى شكلهم، فصنعوا، وتركهم على هذه الخطوة حوالي ستين أو سبعين سنة، وهو راضٍ عن هذه الخطوة، حتى مات من صنع هذه التماثيل.

وجاء بعدهم جيلٌ آخر، فجاء إبليس للشباب وقال: إن آباءكم الذين صنعوا هذه التماثيل من قبلكم، إنما صنعوها من أجل أن تعبدوها من بعدهم، فدخل الكفر والشرك إلى الأرض.

إن همّ الشيطان الأكبر أن يوسوس للعباد ويزين لهم قبيح

---

(1) أخرجه **أبو داود في** (الحديث: 4291).

الأعمال، فتراه يوسوس لك بشرب الدخان الذي يؤدي أحياناً عند الشباب لتعاطي المخدرات، ويقول للفتاة: اشربي (النرجيلة)، وبعد ذلك تعاطيها في الشارع فإن ذلك ليس عيباً، حتى يؤدي بك إلى نبذ الحياء بعد ذلك، وهذا مما لا مجال للشك فيه، ويأتي للمتدينين بطريقة تختلف عن الطريقة التي اتبعها مع قوم نوح، وهو يعلم أن الإصلاح إذا عم الأرض، فالخير سيعمُّها أيضاً.

فيأتي للمتديِّن ويقول له: تفرَّغ للعبادة، لم يعد هناك أي جدوى من الناس، أنت عليك بنفسك، ودع هموم الناس للناس يحلُّوها بأنفسهم واعمل أنت لآخرتك فقط، يا مسكين، ألم نتلو عليك قول الله تبارك وتعالى: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ وبيَّنا لك معنى الخلافة في الأرض ومعنى قمة العبودية لله تبارك وتعالى؟

تنَازَل عن الإصلاح في الأرض...

أترضى أن يكون حالك كما فعل إبليس مع عابد بني إسرائيل، إذ ذهب إليه وقال له: ليس هناك من فائدة في هذه الأرض، فاذهب وتفرغ لعبادة الله ﷻ، فرضي، فانحل الشيطان عن الوسوسة له مدة عشر سنين.

بعد عشر سنين، ذهب لثلاثة إخوة يريدون السفر، وقال لهم: دعوا أختكم في المكان المهجور قرب ذاك العابد ولا تدعوها في وسط البلاد، فعرضوا ذلك عليه مراراً حتى قبل، فوسوس له الشيطان: أن أطعمها الطعام واسأل عنها مراراً، حتى وقع بينهما الزنا، فحملت الفتاة، وخافت من الفضيحة بعد أن أتى إخوتها من

سفرهم، فقتلها العابد وقتل معها الولد.

فأتى إخوتها يسألون عنها فقال: ماتت، ففتحوا القبر، فوجدوها وابنها في القبر فعلَّقوه وأرادوا قتله، بعد ذلك أتى الشيطان وقال للعابد: أنا من وسوس لك هذا وأنت رضيت، اسجد لي وأنجيك من هؤلاء الثلاثة، فكيف بدأت المعصية؟ بالعكوف على العبادة فقط، وكيف انتهت؟ انتهت بالزنا والعياذ بالله، فسجد للشيطان، وهو ساجد قُبِضَت روحه أعاذنا الله.

فالبداية كانت بأن تنازَل عن الإصلاح في الأرض، وأنا أعرف الكثير والكثير من الشبان الذين كانوا متدينين والآن ضاعوا في متاهة الأرض لماذا؟ لأن بدايتهم كانت في التفرغ للعبادة فقط.

إذن رأينا كيف أن المصلحين الخمسة ماتوا وذلك قبل بعثة سيدنا نوح، فتاهت الأرض، ووصلت لقمة طغيانها، فبُعِث نوح عليه السلام، وظل يدعو الناس ألف سنة.

كم يبلغ عمر سيدنا نوح؟

كم يبلغ عمر سيدنا نوح؟ ألف سنة؟ خطأ.

فإن عمره يُقسَّم إلى ثلاث مراحل:

المرحلة الأولى: مرحلة ما بين الميلاد والبعثة. وقيل: إنها خمسون سنة.

المرحلة الثانية: مدة البعثة، وهي تسعمائة وخمسون سنة.

المرحلة الثالثة: مدة ما بعد البعثة وفترة الطوفان، وفترة استقرار الأرض حتى مات عليه السلام.

والنتيجة أن سيدنا نوح مات عن عمر أكثر من ألف سنة حتماً، وبالتالي، فهو أطول الأنبياء عمراً، حتى أطول عمراً من سيدنا آدم عليه السلام، ومدة دعوة قومه تسعمئة وخمسون سنة، فلماذا قال الله تعالى في القرآن: ﴿أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا﴾ [العنكبوت: 14]، ذلك لأن دعوته كانت تحمل تسعمئة وخمسين سنة من الشقاء، وخمسين عاماً من السعادة والهناء، فكأن لفظ سنة كان عند العرب يحمل معه العناء والشقاء، وعام يحمل معه معنى السعادة والراحة. ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾ [هود: 40]، وأكثر التفاسير قالت: ثمانون رجلاً.

انظر قول الله تبارك وتعالى في قصة «يوسف»: ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [يوسف: 47]، ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ ٱلنَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ ﴿٤٩﴾﴾ [يوسف: 49]، الله! هذا المعنى الذي يتراءى لنا من قصة نوح، معنى الصبر، تخيل أن يؤمن لنبي كل خمسة عشر سنة تقريباً شخص واحد.

سيدنا نوح حقق قمة العبودية، عندما أصلح في الأرض وصبر ألف سنة وقال: أجري عند الله، والصبر عبادة من أحب العبادات إلى الله.

من أجل ذلك، ذكرت قصة نوح في القرآن ما يزيد عن اثنين وخمسين مرَّة في ثمانية وعشرين سورة، منها سورة سميت باسمه

وهي: سورة «نوح»، وكلها سور مكية أو أغلبها لماذا؟ لأن جميع الصحابة في مكة كانوا محتاجين للصبر أمام تكذيب قريش، وَ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ [الزمر: 10].

فماذا فعل قوم نوح بنوح عليه السلام؟ كانوا يضربونه ضرباً مبرحاً حتى يُغشى عليه فيضعونه في الحصير ويلقونه ويقولون: سيموت، فيعود إليهم في الصباح الباكر ويدعوهم إلى الله تبارك وتعالى.

وصفوه بالسفيه، وبأنه ضلّ ضلالاً شديداً: ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٦٠﴾ قَالَ يَٰقَوْمِ لَيْسَ بِى ضَلَٰلَةٌ وَلَٰكِنِّى رَسُولٌ مِّن رَّبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٦١﴾﴾ [الأعراف: 60، 61]، وقالوا: مجنون ﴿إِنْ هُوَ إِلَّا رَجُلٌۢ بِهِۦ جِنَّةٌ﴾ [المؤمنون: 25]، وقالوا: كاذب ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ فَكَذَّبُوا۟ عَبْدَنَا وَقَالُوا۟ مَجْنُونٌ وَٱزْدُجِرَ ﴿٩﴾﴾ [القمر: 54]، وسخروا منه مرات عديدة: ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ﴾ [هود: 38]، استهزاء وغمز ولمز، وهدَّدوه بالقتل أيضاً: ﴿قَالُوا۟ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴿١١٦﴾﴾ [الشعراء: 116].

يا اخوتي، ادعوا الناس، وخذوا بايديهم، اشعروا بالمسؤولية التي وُجِّهت اليكم في الارض، يا اخي، ضجّ بمالك، ضع بجاهك، ضع برزقك، ضع بعمرك، تعلموا من الصحابة الذين قدموا أرواحهم ليعيش هذا الدين من بعدهم، ضحوا من أجل أن تعيش وتنعم أنت، فنالوا تلك المنزلة، فلماذا لا تضحي أنت حتى ينعم من بعدك ويكن لك منزلة رفيعة عند الله في الآخرة.

فانظر مثلاً لخباب بن الأرتّ، كانوا يضعونه على الجمر، فلا يطفِئه إلا شحم ظهره، القليل من التضحية من أجل الإسلام يا إخوتي.

ويأتي سيدنا أبو بكر فيجد المشركين حول النبي ﷺ، فيدفع هذا، ويدفع ذاك ويقول: أتقتلون رجلاً أن يقول ربي الله!

فيتركون النبي ﷺ ويأخذون أبا بكر مكانه، فيضعونه أرضاً ويأتي عقبة بن أبي معيط ويضربه بنعله على وجهه حتى ينتفخ من الضرب، وعندما يصحو يقول: ما فُعِل برسول الله؟

وكان قوم من المشركين يترقَّب مسيرة الرسول ﷺ حول الكعبة، فيأتون ويلقون التراب عليه، حتى يمتلىء صدره تراباً، وغير ذلك كثير.

وغيروا اسمه من محمد إلى مذمَّم، فبدأوا يقولون: أتى مذمَّم وذهب مذمَّم، فيضيق صدر الصحابة لهذا، فيقول لهم الرسول عليه الصلاة والسلام: «**دعوهم فإنهم يشتمون مذمماً وأنا محمداً**»[1].

فتحركوا لهذا الإسلام... لهذا الدين العظيم، كما يتحرك أحدكم لابنه وهو في مرضه الشديد، فينفق كل ما يملك من أجل شفائه.

انظر إلى (نيلسون مانديلا)، رقد في السجن ستة وعشرين سنة من أجل حقوق السود؛ لأنه يؤمن بقضيته.

---

(1) أخرجه **النسائي** في (الحديث: 3438)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 244).

فما بالك وأنت تحمل قضية إصلاح الأرض؟!

قال تعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ۝٦ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ۝٧ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ۝٨ ثُمَّ إِنِّي أَعْلَنتُ لَهُمْ وَأَسْرَرْتُ لَهُمْ إِسْرَارًا ۝٩﴾ [نوح: 5 ـ 9]، ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَن لَّمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدُهُ إِلَّا خَسَارًا ۝٢١ وَمَكَرُوا مَكْرًا كُبَّارًا ۝٢٢ وَقَالُوا لَا تَذَرُنَّ آلِهَتَكُمْ وَلَا تَذَرُنَّ وَدًّا وَلَا سُوَاعًا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسْرًا ۝٢٣﴾ [نوح: 21 ـ 23]، ﴿رَّبِّ اغْفِرْ لِي وَلِوَالِدَيَّ وَلِمَن دَخَلَ بَيْتِيَ مُؤْمِنًا وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ وَلَا تَزِدِ الظَّالِمِينَ إِلَّا تَبَارًا ۝٢٨﴾ [نوح: 28]، انظر التنظيم حتى في الدعوة، طلب المغفرة لنفسه، بعدها لوالديه، وبعدها لأهل بيته، وبعدها وسّع الدائرة ودعا لجميع المؤمنين والمؤمنات.

سورة نوح هذه صعبة علينا جميعاً، صعبة علينا في الصبر، صعبة علينا في العمل، صعبة علينا في الإصلاح.

قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَائِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ افهموا جيداً، ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: 110] وعُوا هذا الكلام حتى تدركوا مسؤوليتكم في الحياة.

إخوتي لا تابهوا لسخرية الآخرين...

لقد تعرض سيدنا نوح للأذى بشتّى أنواعه، للسخرية للعذاب، لكنّه أبى إلا أن يكون ممن يعمّر هذه الأرض بإيمانه ودعوته إلى الله، لماذا؟ لأنه خليفة، أو لأنه وعى دوره في خلافة الأرض.

لو تعجبت واستهزأ بك أصحابك، لا تسمعي ولا تابهي لهم.

لو التزمت أيها الشاب لا تابه لسخرية من حولك، سيدنا نوح تعرض لمثل ذلك بل أشد، لكنه وعى بأنه خليفة لهذه الأرض، فأدّ دورك كما أداه نوح عليه السلام وجميع الأنبياء من بعده.

فتصور بعد هذه السخرية وهذا العذاب... قوله بدون يأس، بل بكل رضى، رضى بالدعوة التي أرسل من أجلها، لا بالنتيجة التي وصل إليها، رضى بخلافة الله على الأرض: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝٥﴾ [نوح: 5]، دون يأس أو ملل، ودون تردد. وأخيراً: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، لكن المهم أنه أدى دوره بكل جدارة وكل صبر، أتصبر على صديقك ثلاثة أشهر تدعوه ثم يتولى عنك؟ أتصبرين على أذى جارتك وأنت تنصحيها وتعظيها لتصلح حالها وهي تسخر منك وتستهزىء بك؟ كم ستتحملين؟ شهر، اثنان، سنة، عشرة، كم؟ نوح عليه السلام تحمل تسعمئة وخمسين سنة، تخيلي!

وآخر محصّلة دعوته ثمانون شخصاً هل أنتم متصورون معي هذه المفارقة العجيبة؟ تسعمئة وخمسون سنة، مقابل ثمانون شخصاً فقط، والأمر العجيب الذي يجب إدراكه أن نوح عليه السلام لم يكن معه معجزات أثناء فترة دعوته؛ لأن الطوفان كان في نهاية الأمر وقت الهلاك، لماذا؟ حتى يكون قدوة لكل مصلح فينا اليوم، حتى لا تضع المعجزة حجة لك، بل قدَّر الله أن يكون سيدنا نوح قدوة لكل واحد منا، ندعو إلى الله، حتى ولو كنا لا نملك معجزات ظاهرة كالأنبياء من بعده.

لنترجم خلافة الأرض إلى الحس العملي

ما رأيك أن تقول: سآخذ بيد واحد من أصحابي هذه السنة، وأظل أتابع معه حتى يهتدي؟ لا تقل: أنا ضعيف أو لا أملك القدرة، بل أنت تملك كل شي، تملك العقل، والبصيرة، والدين ميسر بين يديك، قم بهذه الخطوة، والله سيفتح عليك.

إذا شعرت أنك لا تملك وسيلة للإقناع بالكلام، أعطه شرائط كاسيت، أعطه كتاباً، انصحه، ادعُ إلى الله ولو بكلمة واحدة، اشعر بأنك مسؤول عن الدين تماماً كما الأنبياء أدركوا هذا الأمر: ﴿قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِيٓ أَدْعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ﴾ [يوسف: 108]، وقال الرسول ﷺ: **«لأن يهدي الله بك رجلاً واحداً خيرٌ لك مما طلعت عليه الشمس»**. وفي رواية: **«خير لك من حمر النِعم»**[1]، وهي النوق، أكرم الدواب.

كأن يُقال اليوم مثلاً: خير لك من أجمل سيارة تملكها حتى ولو كانت آخر موديل. وانظر الحديث الذي يقول: **«من دعا إلى الخير فله مثل أجر من عمل به إلى يوم القيامة لا ينقص من أجره شيء»**[2].

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3009)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6173).

(2) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 6745)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 4609)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2674)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 397).

فتخيل لو أنك هديت شخصاً للإيمان، ستجد ثواب ذلك في ميزان حسناتك يوم القيامة ولو هدى هو الآخر شخصاً، تجده أيضاً في ميزان حسناتك، فعلاً ما أجمل هذا الدين العظيم.

فتخيل أن كل الصلوات في مساجد بلاد الشام مثلاً في ميزان أبو عبيدة بن الجراح أو عمرو بن العاص ﷺ، شيء مذهل فعلاً.

يا اخوتي، هناك أناس في عقولهم قناعة عن الإسلام، وأناس آخرون لديهم انتماء للإسلام.

وأغلب المسلمين لديهم قناعة بالإسلام، لكن الانتماء الى الإسلام هو أن تطبق كل ما يطلب اليك تنفيذه... اي أن تكون فعلاً خليفة.

من أجل ذلك أتى قول الله تبارك وتعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَلَوْ ءَامَنَ أَهْلُ الْكِتَٰبِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَٰسِقُونَ﴾ [آل عمران: 110]، فكلما أخذتم بأيدي الناس سيزيد إيمانكم، يقول أحد التابعين: إنني كلما دعوت شخصاً فيستجيب شبعت نفسي وارتوت، وصار لا حاجة لي بطعام ولا شراب، هل تستطيع أن تكون كذلك؟

تخيل نفسك يوم القيامة مثلاً وراء سيدنا نوح، وتقول: يا رب دعوت فلان للإيمان بك، فاستجاب، تخيل الثواب! وحبُ الله لك في هذه اللحظة، وإحاطته لك في هذه الدنيا.

الأمة تحتاج للرجال وللنساء، هذه الأمة العظيمة تحتاج اليوم لرجال صالحين ونساء صالحات، بل مصلحين ومصلحات، يحملون الدين على ظهورهم، ويبلغوا رسالة ربهم في هذه الحياة الدنيا.

أربعة أمور أساسية للدعوة وكسب الفلاح...

إن الله سبحانه وتعالى وضع أربعة أمور أساسية للدعوة إليه، وردت في سورة «نوح»، لو أجدتها أجدت الدعوة إلى الله وهي:

1 ـ قال تعالى: ﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾﴾ [نوح: 10]، أي: ركز على الترغيب في رحمة الله ﷻ، وإياك وأن تنفِّر الناس من هذا الدين أو تدعو إلى التقنيط من رحمة الله وغفرانه.

2 ـ قال تعالى: ﴿يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾﴾ [نوح: 11]، تخيل صحراء ومطر! ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ [نوح: 12]، أي: عدهم بما لهم في الدنيا والآخرة معاً، من جراء الاستجابة لدعوة الله ﷻ، لا تقل جنة ونار فقط، بل عدهم بالسعادة الدنيوية أيضاً كما فعل نوح مع قومه، ﴿وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ﴾ [نوح: 12]، أَدخل دائماً المكاسب الدنيوية بجانب المكاسب الأخروية هذا هو الحال، الناس يريدون مكاسب.

3 ـ قال تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ﴿١٥﴾﴾ [نوح: 15]، أي: تدعوهم للنظر في ملكوت الله، تريهم قدرة الله وبدائعه في الكون.

ادعهم لقراءة القرآن والتفكّر في معانيه، قم معهم برحلة لرؤية الجبال والبحار والسماء والتأمل في قدرة الخالق ﷻ.

4 ـ قال تعالى: ﴿ثُمَّ يُعِيدُكُمْ فِيهَا وَيُخْرِجُكُمْ إِخْرَاجًا ﴿١٨﴾﴾ [نوح: 18]، أي: ذكّرهم بحقيقة العودة إلى الله بعد أن يأخذ الأمانة. فهذه أربع نقاط أساسية في الدعوة إلى الله، لو أجدتها تكون ملكت سعادة الدنيا والآخرة بين يديك. تخيل مثلاً لو أتى العام المقبل فملِئت المساجد بالمصلين لدرجة أننا نحتاج لبناء مساجد أخرى، كيف سيكون وضع الأرض حينها؟ طبعاً أفضل بكثير مما نحن عليه الآن.

نتيجة دعوة نوح عليه السلام

قال تعالى: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، فماذا يقول لهم بكل إيمان؟ ﴿مَّا لَكُمْ لَا تَرْجُونَ لِلَّهِ وَقَارًا﴾ [نوح: 13]، قلبه يعتصر ألماً، لأن ما باليد حيلة، فهل الأرض اليوم موقرة لله؟ هل الغالب على الأرض هو الوقار لله ﷻ؟ أم العكس؟ أجب أنت.. فلماذا لا تبدأ بنفسك؟

انظر قول الله تبارك وتعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ﴿١﴾ قُمْ فَأَنذِرْ ﴿٢﴾ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ ﴿٣﴾﴾ [المدثر: 1 ـ 3]، ليس أن تقول: «الله أكبر»، بل بأن تُعلي شأن هذه الكلمة في قلوب من تدعوهم إلى الله، أن تكبِّر اسمه في أفعالك لا في أقوالك، كبّر اسم الله في الأرض قدر استطاعتك، فأنت عليك أن تدعو إلى الله، لا أن تحصي عدد الذين آمنوا، بل لك أن تدعو.. ادعُ إلى الله.

لم أعطاك أرضاً ازرعها، لا عليك انتبهت أو لم تنتبه،

ازرعها فقط وخذ الثواب من الذي وعدك به على انتاجك فقط.

انظر ماذا يقول رب العزة للرسول عليه الصلاة والسلام في كتابه العزيز: ﴿لَيْسَ لَكَ مِنَ ٱلْأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١٢٨﴾﴾ [آل عمران: 128]، ليس لك بالنتائج شيء، المهم أن تزرع، واترك النتائج لله ﷻ القادر على كل شيء، حتى سيدنا محمد ﷺ، ظل في مكة يدعو أهلها وآخر الأمر آمن معه سبعون فقط، ليس لك بالنتائج بل اتركها لله ﷻ، هو يقدِّر ويفعل ما يشاء.

دعوة نوح على قومه

بعد ذلك دعا نوح على قومه بالتهلكة، لكن متى؟ وهل يجوز أن يدعو النبي على قومه؟

الجواب أنه ما دعا عليهم إلا بعد أن نزل وحي من الله يخبره أنه لن يؤمن له من الناس أحد بعد إلا من قد آمن.

حينها دعا عليهم، بعد أن أيقن بالهلاك المحتم لهم، فدعا: ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا ﴿٢٦﴾ إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا۟ عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوٓا۟ إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا ﴿٢٧﴾﴾ [نوح: 26، 27]، انظر وعِ، حتى الدعوة لم تكن لنفسه، بل كانت من أجل الثمانين الذين آمنوا معه، خاف عليهم أن يبقى أحد من الكافرين يضلهم ويبعدهم عن الحق.

هل تستطيع أن تصب الناس هكذا؟ هل تستطيع أن

تدعو بإخلاص كما فعل نوح عليه السلام؟ شخصية المصلح تتمثل بحب الخير لكل الناس.

بعث الرسول ﷺ الطفيل بن عمير وقال له: «**يا طُفيل، ادع قومك**»، فدعاهم ثلاث سنين، لم يؤمن منهم إلا رجل واحد وهو: أبو هريرة رضي الله عنه، فرجع إلى الرسول ﷺ وقال: يا رسول الله، كفرت دوس وعاندت وتكبرت ولم يؤمن إلا هذا الرجل، فرفع النبي يديه إلى السماء، يقول الطفيل: فوضعت يدي على رأسي وقلت: سيدعو النبي على قومي، فقال النبيّ: «**اللهم اهد دوساً وائتِ بهم، اللهم اهدِ دوساً وائتِ بهم، قم يا طفيل ولا تعد إلا ومعك قومك**»[1]، فرجع الطفيل يهدي قومه عشر سنوات حتى هاجر النبي إلى المدينة، وفي يوم رأى الصحابة غبار عظيم يغطي المدينة، فسألوا: ما هذا؟ فقيل: إنه الطفيل، عاد ومعه دوس أسلمت كلها.

أتستطيع أن تفعل هذا... مع أصحابك، مع جيرانك مع كل من تقابلهم؟

ولتعلم أنك عندما تكون مع الله، فإن حلاوة الدنيا ستزيد، وستشعر بحلاوة الدنيا وتستشعر حلاوة الآخرة.

الأمر ببناء الفلك (السفينة)

قال تعالى: ﴿وَٱصۡنَعِ ٱلۡفُلۡكَ﴾ [هود: 37]، الفلك؟ هل تدري ما

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 6397)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 2/ 243).

معنى هذا الكلام؟ إنهم كانوا في صحراء قاحلة، ليس فيها شجر ولا شيء، فمعنى هذا الكلام: ازرع من الأول يا نوح.

سنزرع الأرض أنا والثمانين من حولي، وليس أي بذور، نريد أغصاناً قوية تحملنا على الفلك، هذا طوفان يا إخوتي.

فلك سيُحمل فيه الثمانون رجل ونوح ومن جميع الدواب: ذكر وأنثى، هل أنتم متخيلون هذا الموقف؟ فبعد الطوفان سيعمر الكون بهذه الكائنات من جديد.

أتعرف كم استغرق هذا الأمر؟ مئة عام جديدة. وهل كانوا يعرفون الفلك حينها؟ لا، بل كان هذا اختراع جديد من نوعه، الدليل أن الله أخذ يصف لنا هذا الفلك بجميع تفاصيله: ﴿وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: 13]، ألواح مربوطة بمسامير وعُقد و.. و.. كل هذا؟

لماذا كل هذا العناء ونحن نعلم أن الله قادر على أن يهلك الكافرين بثانية؟ من أجل أن يربي المؤمنين ويزرع في نفوسهم المواظبة على الكد والعمل والدعوة إلى الله.

فالمتصعبة التي كان والدها ينهيانها عن الصحاب، كان الله يختبر ايمانها، والزوجة التي تصبر على أذى زوجها، الله يختبر ايمانها.

فهؤلاء الثمانون هم المسؤولون عن الأرض بعد الطوفان، تخيل صحراء، وفلك، فمن أين الماء؟ من عند الله القادر على كل شيء، سمعاً وطاعة يا نوح، ويعملون في كدٍّ ونشاط، وينجح أولئك في الاختبار.

ليس المعنى أن أكون متديناً وفاشلاً في الحياة، سيدنا نوح عليه السلام صبر على الدعوة وكان مخترعاً وهكذا ينبغي أن نكون، ولكننا للأسف ما زلنا ننتظر اكتشافات واختراعات الغرب ونحن ننظر ونستهلك فقط، يا إخوتي كونوا أمة منتجة، أرجوكم اعرفوا هدفكم في الحياة: ﴿وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا﴾ [البقرة: 31]، وسيدنا نوح كان أعلم من قومه إذ عرف قاعدة علمية وهي أن الخشب يطوف فوق الماء، وسيدنا محمد ﷺ أول كلمة نزلت عليه كانت: ﴿ٱقْرَأْ﴾ [العلق: 1]، فأين نحن من هذا العلم؟

قال تعالى: ﴿وَٱصْنَعِ ٱلْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا﴾، يشعرك بأن الله معك فعلًا، ناظر إليك، ومؤيّدك، وما دام الله مؤيدك، فلا تخشى شيئاً إلا الله، من أجل ذلك أقول لكم: تذللوا لله ﷻ.

بعد ذلك يقول: ﴿وَلَا تُخَٰطِبْنِى فِى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ ۖ إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ﴾، لماذا كان هذا الحوار؟ تخيل تسعمئة وخمسون سنة من العذاب، ولم يزل نوح يطلب الرحمة لهم وإعطاءهم فرصة أخيرة.

كما حصل مع النبي ﷺ حينما حفروا له حفرة في الأرض في غزوة أحد، فوقع النبي في الحفرة حتى ارتطم وجهه بصخرة وسقطت الرباعيتان منه، وأتى أحدهم وضرب النبي ﷺ بسيفه على الخوذة فدخل من حديد الخوذة في وجه النبي، فحاول أبو بكر أن يخرجها فلم يستطع، ونجح أبو عبيدة بإخراجها وما إن خرجت حتى شُجّ دم النبيّ ﷺ من وجهه الكريم، فصبَّ علي رضي الله عنه الماء على وجه النبي وزاد الدم غزارة، فرفع الرسول ﷺ يديه الشريفتين إلى السماء حتى ظنوا أنه سيدعو عليهم، فقال: «**اللهم اهدِ قومي فإنهم لا يعلمون**»[1].

---

(1) ذكره **السيوطي** في «الدر المنثور» (الحديث: 2/ 298).

قال تعالى: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ [هود: 38]، تخيل كل هذه السنين سخرية واستهزاء، ما هذا يا نوح؟ سفينة وأين تجري بها؟ هنا ستنقلب هذه الصحراء إلى مياه، تخيل السخرية وقتها! ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٣٩﴾﴾ [هود: 39]، فهل لأجل أن الأمة تعبت اليوم، ثقتنا بالله تهتز؟ فلمَ لا تكن ثقتنا بالله كثقة نوح عليه السلام به؟

قال تعالى: ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ [غافر: 51]، اعمل واجتهد وتذلل لله تعالى فنحن منصورون بإذن الله تعالى، سفينة في صحراء؟ لماذا؟ من أجل الثقة بالله ﷻ.

يا أخي، تخيل سيدنا نوح سيأتي يوم القيامة ويكذبه قومه، فيقول الله ﷻ: «من يشهد لك يا نوح؟»، فيقول: أمة محمد، تخيل.. ونحن لا نملك ربع الثقة التي كانت مع أصحابه الثمانين.

قال تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ [النور: 55]، ويقول الرسول ﷺ: **«زوى الله لي الأرض فرأيت أن مُلك أمتي سيبلغ ما زوى لي الله من الأرض»**[1].

يا إخوتي النصر مهيأ، لكن ابنوا السفينة، اصبروا جدُّوا، اعملوا لله، والله لن يضيعنا أبداً ما دمنا له طائعين.

---

(1) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 7187)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 4252)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2176)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 3952).

إصرار سيدنا نوح على إصلاح الأرض:

إخواني قصة سيدنا نوح هي قصة الإصرار على إصلاح الأرض؛ لأن أول سؤال نُسْأله يوم القيامة هو: هل أصلحتم في هذه الأرض جميعاً؟

وقصة نوح هي قصتنا كلنا فنحن لم نُخلق في هذه الدنيا للأكل والشرب فقط، وإنما خلقنا حتى نصلح في هذه الأرض.

إن كل قصص الأنبياء تدور حول نفس المعنى وهو معنى الإصرار على إصلاح الأرض.

وإصلاح الأرض لا يكون فقط بالتدين والعبادة؛ بل هو علم وهندسة وزراعة وتكنولوجيا، ومع كل هؤلاء الاستقامة بالله، وإنها أيضاً قصة عبادة وصيام وصلاة ودعاء وتذلل إلى الله لكي يساعدنا على إصلاح هذه الأرض، فمن أجل ذلك كانت دعوة سيدنا نوح تسعمئة وخمسون عاماً من الكفاح والصبر والتضحية والجهد والشجاعة والإيمان بالله وحده.

لم يفكر سيدنا نوح بالنتائج بل كان مصراً على تنفيذ أوامر الله، كان صابراً ويعرف دوره في الحياة، كل هذه المدة وكل تلك السنين قضاها سيدنا نوح في كفاح ودعوة إلى الله سراً وجهراً ولم ييأس ولم يقنط.

يقول الله ﷻ: ﴿وَمَآ ءَامَنَ مَعَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلٌ﴾، أين نحن من هذا الإصرار؟ إنه ليس دور العلماء وشيوخ الأزهر وعلماء الدين فقط؛ بل درونا جميعاً رجالاً ونساءً، على قدر استطاعتك، قال تعالى:

﴿وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُۥ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ ءَامَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَفْعَلُونَ﴾ [هود: 36].

سبق وقلنا: لم يؤمن مع سيدنا نوح إلا ثمانون رجلاً فقط، أي: أنه طيلة دعوته لم يؤمن معه غير هؤلاء الثمانين شخصاً ولن يزيدوا... ومن بعدهم حدث الإهلاك والطوفان.

صناعة السفينة

عندما أمر الله سبحانه وتعالى سيدنا نوح بأن يقوم باختراع اسمه: «سفينة» أوحى إليه بكيفية صناعتها، وأمره بزراعة الشجر، وهنا بدأ دور سيدنا نوح وأصحابه بزراعة الأشجار، وبعد مدة أثمر الشجر فطلب من الصناعيين أن يصنعوا من هذا الشجر ألواحاً كبيرة، وبدأ يعلمهم كيف تتم صناعة السفينة كما أوحى الله له بعد أن قام هو بتصميمها.

سيدنا نوح ليس مجرد نبي؛ بل هو تاريخ نجاح في الحياة، ونحن في هذه الحياة بحاجة أيضاً إلى الاقتصادي الناجح والرياضي الناجح والمزارع الناجح.

فصناعة الفلك استمرت حوالي مئة عام، فكانت تلك السنين اختبار للمؤمن وصدقه وإصراره على الطاعة، مئة عام وهو يعمل على هذه السفينة، مئة عام وهو يتقرب إلى الله أكثر فأكثر، مئة عام وهو يأخذ بأيدي الناس ليؤمنوا بالله، مئة عام وتكذيب الناس يزيد، مئة عام والناس تستهزىء به إلى أن أثمر الشجر وتم تقطيعه، وصُنِع منه الألواح، والكافرون ينظرون إلى السفينة إلى أن تم دق آخر

مسمار فيها، ويخاطب سيدنا نوح الله ﷻ بأنه أكمل عمله كما أمره.

وهنا ينظر المؤمنون إلى الكفار وهم فرحون بما صنعوا، لقد حان الوقت ليهلكهم الله، سينجي الله المؤمنين، ويهلك الكافرين بشر أعمالهم.

فوران التنور

قال تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمۡرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، لقد أعطى الله ﷻ علامة لسيدنا نوح لموعد إهلاك الكفار ونجاته هو ومن آمن معه، وهذه العلامة هي فوران التنور، أي: الفرن الذي سيخرج منه الماء وتفيض الأنهار، وتغرق الصحراء بالمياه ويبدأ الطوفان، وسيهلك كل شيء إلا ذلك الاختراع، أي: السفينة التي صنعها سيدنا نوح عليه السلام مع المؤمنين.

كان الله قادراً على أن يهلك الكافرين ويرسل عليهم الطوفان قبل تسعمئة وخمسين عاماً، ولكنه لم يفعل، وليس هذا من أجل الكفار؛ بل من أجل المؤمنين؛ لأنه أراد أن يختبر الصابرين والصادقين في إيمانهم، وإصرارهم على العمل، فبتلك الصفات والتميز سيدخلهم الله الجنة وينجيهم من الطوفان.

التمايز هو الذي سيدخلك الجنة ويرفعك الله في الفردوس الأعلى، أما الحسرة والندم فلن تدخلك إلا إلى النار، ولن تنفعك يوم القيامة.

لماذا لم يحدد الله موعداً معيناً لسيدنا نوح، لماذا لم يحدد له

ذلك اليوم الذي سيهلك فيه الكفار بأن يقول له مثلاً بعد شهرين سيهلكهم، كما فعل مع سيدنا لوط عليه السلام عندما قال له: ﴿إِنَّ مَوْعِدَهُمُ ٱلصُّبْحُ أَلَيْسَ ٱلصُّبْحُ بِقَرِيبٍ﴾ [هود: 81]، لماذا هي علامة وليس موعداً محدداً؟ لقد أراد الله أن يعرف كيف ستكون علاقة سيدنا نوح مع المؤمنين، وعلاقة المؤمنين مع بعضهم البعض، فمن الممكن أن ييأس بعضهم، أو يذهب لينتظر موعد الطوفان ولا يقوم بأي عمل، ولا يرى بعضهم البعض طيلة تلك المدة حتى إذا جاء الموعد ـ أي: الشهرين ـ أسرعوا بالذهاب إلى السفينة.

ان علاقتك أيها المسلم هي أن تضرج من هذه الدنيا بصديق صالح وإصلاح في هذه الأرض عند ذلك يكون الفوز بالجنة.

وهذا يعني: إن أردنا أن ننجح في الحياة وندخل الجنة علينا اختيار الأصدقاء الصالحين الذين يأخذون بأيدينا ونأخذ بأيديهم لإصلاح هذه الأرض ومَن عليها، ودون ذلك سيكون الخسران ويكون الطوفان.

قال الله تعالى: ﴿وَٱلْعَصْرِ ۝١ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ ۝٢ إِلَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلْحَقِّ وَتَوَاصَوْا۟ بِٱلصَّبْرِ ۝٣﴾ [العصر: 1 ـ 3]، ويقول الإمام الشافعي: لو لم ينزل من القرآن إلا هذه الآية لكفت.

أخي المسلم عليك أن تختار الصحبة الصالحة، عليك

أن تضالط الناس جميعاً دون النظر الى المستوى الاجتماعي لكل واحد... ولكن عليك أن تختار الصالحين منهم، هؤلاء الذين يصطحبونك معهم لقراءة القرآن والذين تحضر معهم دروس الوعظ والإرشاد.

قل لي من هم أصدقاؤك أقل لك هل ستنجو أم لا؟ ليس المهم عمر ذلك الصديق بل المهم هل هو صالح أم لا.

كان الرسول ﷺ يحتاج إلى صحبة وإلى أصدقاء صالحين في هذه الدنيا، وقد اختار منهم من سيعينه في هذه الدعوة.

يقول الله ﷻ: ﴿وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ﴾ [الكهف: 28]، هل تريد أن تقدم هدية للإسلام؟ اختر صحبة صالحة وخذ بيده إلى الخير، ابحث عن شخص بحاجة إليك وأصلحه وساعده، وهنا أقول لك بأنك ستنجو بإذن الله من النار ومن الغرق ومن الطوفان.

قال سيدنا موسى عليه السلام عندما ذهب يدعو فرعون وأهل مصر: ﴿وَٱجْعَل لِّى وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِى ﴿٢٩﴾ هَٰرُونَ أَخِى ﴿٣٠﴾ ٱشْدُدْ بِهِۦٓ أَزْرِى ﴿٣١﴾﴾ [طه: 29 ـ 31]، أي: يقول لك الله تعالى: إني لن أُدخل الجنة إلا مجموعات وأفواج مع بعضهم البعض، فحاول أن تختار مجموعة صالحة حتى تدخل معهم الجنة، ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ﴾ [هود: 40]، وبدأ المؤمنون بشبك أيديهم ببعضهم البعض حتى ينجوا من الطوفان.

قال تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ رَبَّهُمْ إِلَى ٱلْجَنَّةِ زُمَرًا﴾ [الزمر: 73]، ثم يقول الله لهم: ﴿فَإِذَا جَآءَ أَمْرُنَا وَفَارَ ٱلتَّنُّورُ فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ﴾ [المؤمنون: 27]، ويعني هذا: أن يا نوح اجمع من كل الخلائق زوجين اثنين، أي: مثلًا اجمع دجاجتين وديكين وبقرتين وثورين، أي: من الذكر والأنثى؛ لأن بهم سيبدأ خلق جديد وعالم جديد.

فكانت أول علامة أن الله سبحانه وتعالى ساق كل تلك المخلوقات لوحدها إلى السفينة فهي ستكون مأمورة من الله بالذهاب.

فالأرض ستغرق ويموت مَنْ عليها إلا المخلوقات التي أمرها الله أن تركب السفينة؛ فالحياة الجديدة ستبدأ من هذه المخلوقات التي آمنت بالله.

فتخيل كم كان كبر السفينة ومساحتها وحجمها، كل من آمن مع نوح ركبها، ومع كل تلك المخلوقات ستكون البشرية الجديدة والحياة الجديدة والأرض جديدة، وستكون أدوات الحياة.

إصلاح الأهل أولاً

من أصعب الأمور في حياتك هو أن تصلح من حولك من الأصدقاء وغيرهم وتترك أهلك، أي: عائلتك من والديك وإخوتك، وعليك أن تحرص على أهلك أكثر من أي شيء في الدنيا، قال تعالى: ﴿فَٱسْلُكْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ

﴿إِلَّا مَن سَبَقَ عَلَيْهِ ٱلْقَوْلُ مِنْهُمْ﴾ [المؤمنون: 7]، أي: أن الكل سيركب في السفينة من المؤمنين إلا من سبق عليه القول وهي امرأته وابنه؛ لأنهم لم يؤمنوا بالله.

قال تعالى: ﴿ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱمْرَأَتَ نُوحٍ وَٱمْرَأَتَ لُوطٍ ۖ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَٰلِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا﴾ [التحريم: 10]، الخيانة هنا ليست خيانة عرض؛ بل هم لم يؤمنوا أو لأنهم آمنوا ثم ارتدوا إلى الكفر، الثمانون مؤمناً ثبتوا على الإيمان إلا امرأته، وهذا هو الابتلاء العظيم، لأن امرأة نوح لم تتحمل الاستهزاء وصعوبة الموقف، والبعد عن مظاهر الحياة، ولم تصبر فلم تركب السفينة وتنجو من الغرق.

فنحن أحياناً نعرف أين النجاة، وأين الحق، ولكننا لا نريد الالتزام؛ لأن زخرف ومظاهر الدنيا تأخذنا إلى الضلال.

يقول الرسول ﷺ: «**دخلت الجنة فرأيت فقراء المسلمين وأطفال المسلمين، فقلت: أين الأغنياء؟ فقيل لي: هم على أبواب الجنة يحاسبون**»، سوف يتأخرون؛ لأن حسابهم أطول؛ لأنهم يحاسبون على أموالهم، «**ثم قلت: أين النساء؟! فقيل لي: أما النساء فألهاهنّ الأحمران**»[1]، والأحمران هما الذهب والحرير، وسميا بذلك؛ لأنهما يبرقان العيون، ولكن ليس ذلك طبيعة كل النساء.

هناك نساء يبكين من خشية الله وإيمانهن يتعلم منه الرجال، وهناك نساء تشغلها الدنيا ولا فائدة منهن.

---

(1) ذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (الحديث: 3/ 209).

يقول الله ﷻ: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: 11]، ﴿وَمَرْيَمَ ٱبْنَتَ عِمْرَٰنَ﴾ [التحريم: 12]، إن غرائز الإنسان من الشهوات وحب الجاه والسلطة والمال هي من أسباب ضياعه في الدنيا وهلاكه في الآخرة.

وامرأة فرعون لم تُرِدْ هذا السلطان، وقالت: ﴿رَبِّ ٱبْنِ لِى عِندَكَ بَيْتًا فِى ٱلْجَنَّةِ﴾ [التحريم: 11]، أما مريم رمز العفة فقد صبرت واتقت حتى أكرمت، فهما مثال لنا لنتعلم منهما في حياتنا.

نصر نوح والمؤمنين

استمر نوح يدعو ربه تسع مائة وخمسين عاماً وصنع السفينة كما أمره الله، وأصلح في الأرض وأخذ بأيدي الناس حتى آمن منهم ثمانون شخصاً، وبدأ التنور بالفوران ودخلوا وركبوا في السفينة ما عدا زوجته وابنه، وبدأت الصحراء تختفي وفاض الماء من كل جهة وبدأ الكفار ينظرون إلى السفينة وهي تتمايل في الماء، فعرفوا أنه الحق، قال تعالى: ﴿فَدَعَا رَبَّهُۥٓ أَنِّى مَغْلُوبٌ فَٱنتَصِرْ ﴿١٠﴾﴾ [القمر: 10].

ودعا نوح ربه إني مغلوب فأرجو أن تنصرني، فهو كان خائفاً من الكفار أن يميلوا عليه، كما كان خائفاً من الماء.

ان هذه الآية من أجمل الآيات التي تدعو بها ربك ان أردت أن تدعو الى نصرة المسلمين واخوانك في فلسطين او في مكان آخر.

قال تعالى: ﴿فَفَتَحْنَآ أَبْوَٰبَ ٱلسَّمَآءِ بِمَآءٍ مُّنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا ٱلْأَرْضَ

عُيُونًا فَٱلْتَقَى ٱلْمَآءُ عَلَىٰٓ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾ وَحَمَلْنَٰهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَٰحٍ وَدُسُرٍ ﴿١٣﴾﴾ [القمر: 11 ـ 13]، وتسير السفينة بأعيننا، أي: بأمان وطمأنينة، لقد ضحى نوح طيلة التسعمئة وخمسين عاماً وصبر من أجل أن ينتصر هذا الدين، ففتحت له أبواب السماء واستجيبت له دعوته.

قال تعالى: ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الصافات: 79]، سنبعث سلاماً لكل العالم، أي: سلام للعالمين حتى تعرف مكانتك عندنا يا نوح.

لو أحبك الله بكرمك ولو أبغضك ستضيع، لو أحب الله عبده سيعطيه ويكرمه ويستجيب لدعوته.

ان حب الله للمصلحين أضعاف أضعاف حبه للصالحين؛ لأن المصلحين عملوا على اصلاح الأرض وإصلاح عباده، أما الصالحين فعبدوه فقط.

فمثلاً هناك ملك طلب من عبدين عنده أن يبرهنا عن مدى محبتهما لملكهما فقال لهما: إن كنتما صادقين في محبتكما لي فابذلا جهداً واذهبا وعرّفوا عبادي عني.

أما الأول فقال له: سمعاً وطاعة، فذهب وأخذ يصلح عبيده، **أما الآخر** فقال له: اجعلني بقربك لأصلي في معبدك، وهذا الفرق بينهما، **فالأول**: دعا إلى إصلاح العبيد فكثر أحبابه، **والثاني**: ظل وحيداً بقرب سيده.

محبة الله للأنبياء

لقد أحب الله سيدنا نوح، وبعد أن استهزأ به قومه وضربوه

حتى أغشي عليه من شدة الضرب، نجاه الله من القوم وجعل ذريته من الصالحين.

وانظر إلى سيدنا إبراهيم عليه السلام كيف أراد أن يصلح قومه ويدعوهم إلى عبادة الله الواحد، فوضعوه في النار فجعل الله النار عليه باردة، وقال لها: ﴿يَٰنَارُ كُونِي بَرۡدٗا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ٦٩﴾ [الأنبياء: 69]، وكان مخلداً في التاريخ.

ولقد أحب الله سيدنا إسماعيل أيضاً ونجاه، وذلك عندما أمر الله إبراهيم أن يذبح ابنه فأطاعه وأخذ السكين ووضعها على رقبة إسماعيل، فأنزل الله مكان إسماعيل كبشاً ليُذبح بدلاً عنه، ولذلك أصبحت هذه المناسبة يوم عيد يحتفل به المسلمون كل عام وهو عيد الأضحى، وجعلها مناسبة للذبح في ذلك المكان.

وأحب عبده يعقوب عليه السلام عندما أخذ منه بصره وابنه وحبيبه يوسف، ولكن بعد مدة أعاد الله له بصره وابنه وأصبح ملكاً يقود المنطقة ويحكم مصر.

وأحب موسى عليه السلام بعد أن هاجر من بلده وترك مصر وذهب لكي يرعى الغنم لمدة عشر سنوات، فجعله يعود إلى بلده، أي: إلى مصر وشق له البحر نصفين وقال له: ﴿إِنِّي ٱصۡطَفَيۡتُكَ عَلَى ٱلنَّاسِ بِرِسَٰلَٰتِي﴾ [الأعراف: 144]، وأحب عيسى عليه السلام وأمه مريم، فاتهمت أمه بحملها فيه، ولكن بعد أن وضعته أصبحت سيدة نساء العالمين ورمز العفة، وأصبح عيسى معجزة الله في الأرض.

أحب محمداً ﷺ وكان يقال له: اليتيم، وأُخرج من مدينته

التي أحبها وهي مكة سنين طويلة وبعد أن ضربه قومه وأدموه قال الرسول ﷺ: «**اللهم إليك أشكو ضعف قوتي وقلة حيلتي وهواني على الناس إن لم يكن بك علي غضب فلا أبالي**»[1].

فأعاده الله إلى تلك المدينة التي أُهِينَ فيها معززاً مكرماً فاتحاً ومنتصراً، ورافعاً راية لا إلٰه إلا الله، وعفا عن قومه وقال لهم: «**أنتم الطلقاء**»[2]، ولكن بعد أن ضُرب النبي أرسل الله له فتًى اسمه: عدّاس قبَّل قدميه، ويبعثه الله برحلة وهي رحلة الإسراء والمعراج ليريه مقامه في السماء وليوصله إلى مكان لم يصل إليه أحد من قبله أو بعده من العالمين، وليقول له: هذا مكانك عندي في الآخرة.

وعقب كل هذه الابتلاءات من الله للأنبياء وصبرهم عليها، اجتباهم ورفعهم إلى أعلى المراتب.

أحب الله ﷻ السيدة خديجة لذلك نزل جبريل عليه السلام على النبي ﷺ يقول له: إن الله يقرئك السلام ويقول لك: بشر خديجة ببيت في الجنة من قصب لا صخب فيه ولا نصب.

إكرام المؤمن

أخي المؤمن، لا تعتقد أن المهانة والذل والصبر التي عاشها وتحملها سيدنا نوح مع قومه ذهبت هدراً طيلة تسعمئة وخمسين عاماً؛

(1) أخرجه **البغوي** في «السنة» (الحديث: 6/ 167).
(2) ذكره **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 9/ 118).

بل إن الله أكرمهم؛ لأنهم أصلحوا، وذلك كله لله.

والله يدافع عن المؤمنين إذا عملوا من أجل مرضاته وهاجروا في سبيله وأصلحوا في الأرض، فحين يأتي يوم القيامة ويسأل كل واحد: يا فلان، يا فلانة، إني راضٍ عنك فهل أنت راضٍ عني؟ تخجل حينها من الله، ويقول لك: عرفت لماذا خلقتك؟ فتمنّ تُعطَ.

لقد حزن النبي ﷺ كثيراً عندما تأخر نزول الوحي عليه فقال له ربه: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ ۝١﴾ ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ ۝٤﴾، فماذا فعلت أنت حتى يحبك الله...؟ هل جاهدت؟ هل أصلحت وأعطيت؟ هل ساعدت أحداً للوصول إلى طريق الخير والإصلاح؟ عليك أن تصبر وتتحمل الصعاب حتى تستحق حب الله.

نتيجة الصبر

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ارْكَبُوا فِيهَا بِسْمِ اللَّهِ مَجْرِاهَا وَمُرْسَاهَا إِنَّ رَبِّي لَغَفُورٌ رَحِيمٌ ۝٤١ وَهِيَ تَجْرِي بِهِمْ فِي مَوْجٍ كَالْجِبَالِ﴾ [هود: 41، 42].

لقد حلّ اليوم الذي وعد الله به المؤمنون طوال كل تلك السنين الطوال التسعمئة وخمسين عاماً وقال لهم:

اركبوا السفينة التي صنعتموها بأنفسكم واستعدوا للرحيل عن هذه الأرض، وعن هؤلاء القوم الظالمين، كانت السفينة من ألواح ودسر، أما الآن فهي سفينة عطاء ونجاح وتطور وقدرة على القيادة... حتى لو استهزأ الناس بها.

قال تعالى: ﴿وَقِيلَ يَٰٓأَرۡضُ ٱبۡلَعِي مَآءَكِ وَيَٰسَمَآءُ أَقۡلِعِي وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ وَقُضِيَ ٱلۡأَمۡرُ وَٱسۡتَوَتۡ عَلَى ٱلۡجُودِيِّۖ﴾ [هود: 44]، فأمر الله الأرض أن تبلع الماء وأمر السماء أن تقلع، ومن يأمر بهذا غير الله؟! وهؤلاء يطيعوا أوامر الله: أمر الماء أن تفيض واستوت السفينة على جبل الجودي بعد أن جفَّت الأرض، وأمر الماء أن تنزل عن الجبل فالله قادر على كل شيء، قال تعالى: ﴿وَقِيلَ بُعۡدٗا لِّلۡقَوۡمِ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾، هنا أصبح الظالمون بعيدين وأُغرقوا في الطوفان وكان هذا جزاء معصيتهم واستهزائهم بسيدنا نوح وقومه، ومعصيتهم لله ﷻ.

لا إصلاح بدون مجتمع متماسك

لا يوجد إصلاح ولا نهضة بدون أسرة قوية ومترابطة بعضها ببعض، فعندما تتفكك الأسرة يبدأ المجتمع بالانهيار.

ولا يوجد هناك إصلاح بدون مجتمع متماسك، فالغرب متفوق علينا بأشياء كثيرة... كنا نقول دائماً: نحن متفوقون عليه بالأسرة وبالعائلة، لكن بعد عشر سنوات بدأت الأسرة والعائلة تتفكك وتنهار.

أسباب الانهيار:

الحب هو أهم الأسباب، لأن قيام عائلة أو أي زواج يجب أن يكون مبنيًا على الحب والرحمة والتفاهم والثقة.

يجب على الشاب والفتاة أن يختارا الشريك الصالح الطائع

لله، أما لو كان العكس فكيف سيكون هذا المجتمع بدون أساس؟! هو حتماً سينهار.

ونحن نرى في أيامنا هذه كيف أن العلاقات بين الأزواج يملؤها الحقد والكراهية والخيانة والغيرة، والأنانية واللامبالاة لأي شيء أو لأية مسؤولية.

فالمشاكل الزوجية تكبر وتتعقد والرحمة قليلة وعلاقة الأولاد بالآباء ضعيفة، ولا يوجد بينهم غير الرابط المادي.

أصبح دور الوالد يقتصر على كسب المال وتأمين كل ما يحتاجه أولاده من الأشياء المادية، أما الأم فكل واجباتها هو عمل المنزل وتحضير الطعام والتسوق، أصبح لكل منهم غرفته الخاصّة وكأن كل واحد يعيش في عالمه الخاص به، لا يجتمعون إلا على عشاء أو مناسبة ضرورية جداً.

لا يوجد عائلة كبيرة في الأغلب إلا وفيها شاب أو فتاة يتعاطون المخدرات، والوالدين آخر من يعلم والأصدقاء أول من يعلم، فأصبح تأثير الأصدقاء على الأولاد أكبر وأكثر من الوالدين.

أريد أن أرسم صورة جميلة لعائلة

الأب والأم كالأصدقاء وأفراد الأسرة جميعهم أصدقاء، وكلنا يعمل من أجل بناء نهضة.

نريد عودة العائلة المترابطة التي يتناقش أفرادها مع

بعضهم من أجل حل مشاكلهم.

إن أحد أسباب التفكك في مجتمعنا هو العزلة، فكل واحد منا يعيش بمفرده مع تجاربه، حبذا لو يعامل كل والد ابنه كالصديق يحدثه عن أيام شبابه مثلاً وعن الأخطاء التي وقع فيها، والمشاكل التي واجهها وكيف استطاع حلها، وتسعى كل أم لمعرفة ما تعانيه ابنتها من مشاكل وتعاملها كصديقتها، بأن تناقشها في الأمور التي حدثت معها في مثل سنها، وفي الأمور والمشاكل التي تواجه شباب وفتيات هذا العصر، وعندها فقط نستطيع أن نبني جسراً من الثقة والألفة بيننا وبين أولادنا حتى نكون على معرفة بجميع مشاكلهم ومساعدتهم على حلها، وحتى قبل الوقوع بأية مشكلة نساعدهم على مواجهتها، وهنا فقط نستطيع أن نقول بأن أسرتنا هي تلك الأسرة المتماسكة المترابطة التي تستطيع إنقاذ مجتمعنا من الانهيار.

انظر مثلاً إلى سيدنا يعقوب عليه السلام كان يعامل ولده يوسف ـ منذ الصغر حتى بلغ اثنا عشر عاماً ـ معاملة الصديق لصديقه، فلما ذهب يوسف إلى والده وقص عليه الحلم الذي رآه: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ﴾ [يوسف: 4]، ماذا كان رد سيدنا يعقوب عليه السلام؟ قال: لا تقصص رؤياك على إخوتك فيكيدون لك، إن الشيطان سيوقع بينكم.

وانظر أيضاً إلى سيدنا إبراهيم وابنه إسماعيل والعلاقة بينهما فقد قال إبراهيم عليه السلام: ﴿يَٰبُنَيَّ إِنِّيٓ أَرَىٰ فِي ٱلْمَنَامِ أَنِّيٓ أَذْبَحُكَ﴾، فما

كان رد إسماعيل على أبيه؟ قال له: انظر ماذا ترى... أراد إبراهيم أن يشاركه ابنه في القرار، ولو أراد الله أن يفعل إبراهيم ذلك دون مراجعة ولده لفعل، ولكن إبراهيم صادق ابنه منذ الصغر وعندما بلغ الثانية عشر، أصبح رجلاً ناضجاً، وكل هذه الأحداث تحمل في طياتها معانٍ سامية ونبراساً نستضيء به في حياتنا.

علاقة الأب بولده

قال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ وَكَانَ فِي مَعْزِلٍ﴾ [هود: 42]، علاقة سيدنا يعقوب بيوسف كانت علاقة حميمة، وكذلك كانت علاقة إبراهيم بابنه إسماعيل.

ولكن العلاقة بين سيدنا نوح وابنه كانت غير صحيحة، فابن سيدنا نوح يعيش في معزل ـ أي: منغلق على نفسه ـ لا يريد أن يسمع ما يقول له والده، لا يريد أن يكون هناك صداقة مع والده، وعندما بدأ موعد الطوفان قال له: يا بني، اركب معنا، لو كان ولداً مطيعاً لأطاع الله وأطاع والده، ولنجا من الغرق والموت والهلاك. قال تعالى: ﴿قَالَ سَـَٔاوِيٓ إِلَىٰ جَبَلٍ يَعْصِمُنِي مِنَ ٱلْمَآءِ﴾ [هود: 43] أي: أستطيع أن أتغلب على مشاكلي وأذهب إلى هذا الجبل ليحميني من الهلاك والغرق، فرد عليه سيدنا نوح عليه السلام قائلًا له: ﴿لَا عَاصِمَ ٱلْيَوْمَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ إِلَّا مَن رَّحِمَ﴾ [هود: 43].

في هذا الزمن وهذا العصر لا عاصم اليوم من الهلاك والتفكك إلا صحبة صالحة وأسرة متماسكة، إذا كان والدك غير متفرغ

فاذهب أنت وكلّمه وناقشه في مشاكلك وفي شؤون حياتك.

قال تعالى: ﴿وَحَالَ بَيْنَهُمَا ٱلْمَوْجُ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُغْرَقِينَ﴾.

لقد رأى سيدنا نوح ابنه وهو يغرق أمامه، ولم يستطع أن يفعل له شيئاً، يا شباب، ارحموا آباءكم فلو سمع ابن نوح من والده وأطاعه لما غرق، وكم كانت حرقة نوح على ابنه وهو يغرق وسط الطوفان، وحال بينهما الموج.

يا شباب، لا تغلقوا على أنفسكم لأن حالة الموج تصول كل يوم وتصول في كل منزل كمثل الفتاة تتزوج زواجاً عرفياً.

يا أمهات ويا آباء أين دوركم في هذه الحياة؟ لكل منكم دور غير كسب المال وتدبير شؤون المنزل، هناك دور أكبر ألا وهو التقرب من أولادكم والعمل على حل ومعالجة مشاكلهم، وأن تأمروهم بعبادة الله والتمسك بطاعته.

كان الرسول ﷺ يذهب إلى بيوت الصحابة ويطلب منهم أن يجمعوا أولادهم حتى يدعوا لهم، وقد أراد النبي بذلك اجتماع العائلة على طاعة الله ومرضاته حتى تكون عائلة متماسكة.

وهنا سأروي لكم قصة حدثت معي وأنا في سن العشرين، كنت بزيارة رجل أعرفه من الأزهر في أحد البلاد الغربية، فطلب مني أن أذهب معه لشراء هدية لزوجته، وكان مهتماً كثيراً في اختيار نوعية الهدية وحريصاً على أن تنال إعجابها مع العلم أنه في عمر

الستين، وهي في عمر الخمسين، وبعد عدة سنوات عاد إلى مصر وقمت بزيارته فاستقبلني، وبعد انتظار دام نصف ساعة عاد إلي فاعتذر مني وقال: إن هذا اليوم كان يوم قراءة القرآن لجميع العائلة!! فهل عرفت من أين أتت هذه العائلة بالمحبة والتماسك طوال تلك السنين.

صداقة والدِيْك

يا شباب، يقول الرسول ﷺ: «**احفظ ود أبيك لا تقطعه فيطفىء الله نورك**»[1]، وهذا يعني: أن حياءك ووجهك وقلبك سيظلم فحافظ على علاقتك به، وحافظ على الحوار معه وإلا سيطفىء الله نورك فتُظلم.

ويقول الرسول الكريم ﷺ: «**إن من العباد عباد لا يكلمهم الله**»، فقيل له: ومن هم يا رسول الله؟ فقال: «**المتبرىء من والديه**»[2].

المتبرىء هو الذي رمى بوالديه أو أحدهما في دار العجزة أو الذي يخجل منهما أمام الناس أو يخجل أن يخرج معهما إلى أي مكان، وذلك خوفاً من أن يقال عنه لا زال صغيراً.

ولا تترك الإعلام الغربي يحرِّضك على معصية والديك، يقول تبارك وتعالى: ﴿وَصَاحِبْهُمَا فِي ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا﴾ [لقمان: 15]، سأل صحابي الرسول ﷺ: من أحق الناس بحسن صحبتي؟، فقال له:

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 5/ 3).
(2) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 3/ 440).

«أمك»، قال: ثم من؟ قال: فأعادها عليه ثلاث مرات ثم قال له: «ثم أبوك»[1].

لو عادت العلاقة الصميمة بين الأب والأم والأولاد بشّرنا بالخير.

زار الرسول ﷺ قبر أمه فبكى بكاءً شديداً وأبكى من حوله، صاحب والديك وإلا حال بينكما الغرق، أي: الموت.

فعندما يضيع الشاب أو الفتاة فلا ينفعه الشفاعة والغرق، عندها قال نوح: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُۥ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ٱبْنِى مِنْ أَهْلِى وَإِنَّ وَعْدَكَ ٱلْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ [هود: 45]، فالرد هو أن ابني عصاني ولم يسمع مني ولم يطيعني، فقال له الله تعالى: ﴿يَٰنُوحُ إِنَّهُۥ لَيْسَ مِنْ أَهْلِكَ إِنَّهُۥ عَمَلٌ غَيْرُ صَٰلِحٍ﴾ [هود: 46]، لم يقل إنه ولد غير صالح، بل إنه كله غير صالح، فهو لم يطع ربه ولم يطع والده فهذه رسالة إلى الآباء والأبناء والزوجات؛ لأنها هي التي ستصلح.

لم يذكر في القرآن الكريم أن سيدنا نوح طلّق زوجته، لأنها كانت امرأة ضعيفة فَلم تستطع أن تقاوم شهوات الدنيا ولم تطع زوجها وغرقت مع المغرقين.

أسباب عدم الصحبة

من أسباب عدم الصحبة في أسرنا «الخجل». خجل الولد من والده ليطلعه على أموره ومشاكله أو العكس، وخجل الزوجة من

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 5971)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6447)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 2706).

زوجها عند عرضها لمشكلة ما خوفاً منها أن يرمي عليها المسؤولية ويتنصّل منها بحجّة العمل أو على العكس أيضاً.

أيها الشباب... اختاروا الزوجة التي تساعدكم على دينكم في هذه الحياة الصعبة، وكذلك الفتيات عليكنّ اختيار الرجل أو الشاب التقي الصالح المطيع لله ولوالديه.

نهاية قصة نوح

نريد أن ننهض ببلادنا وهذا الأمر لا يتم إلا بهاتين الصفتين:

1 ـ الصبر.

2 ـ التضحية.

ختام قصة نوح: صبر جميل وشديد وتضحية كبيرة، إن آخر آية في القصة ﴿فَٱصۡبِرۡۖ إِنَّ ٱلۡعَٰقِبَةَ لِلۡمُتَّقِينَ﴾، في هذا العصر والزمن أصبحت هذه الصفة ضعيفة عندنا فنحن نسأم بسرعة ولا نستطيع التحمل، ونستعجل الأمور دائماً ونريد لأمورنا أن تتحقق بسرعة، ولكن اعلم أن كل شيء لا يحدث إلا في أوانه، فالله خلق السمٰوات والأرض في ستة أيام، والطفل لا يولد إلا بعد تسعة أشهر، والشجر لا ينبت إلا في وقته، فالشجاعة وراءها الصبر، كما أن كلّ الصفات العظيمة وراءها الصبر.

وكل الصفات السيئة وراءها عدم الصبر، فالسرقة لا تحدث إلا عند عدم الصبر على الرزق الحلال، والزنا لا يحدث إلا عند عدم الصبر على الزواج في ظل الشرع والقانون، ولا يمكن أن يحصل نقلة أو تقدم أو قيمة للمسلمين بدون هذه الصفة.

والصبرُ: صبر على الطاعات وصبر على المعاصي وصبر على انتصار المسلمين، فلا يأس مع الحياة ولا حياة مع اليأس، هيّا لنصنع مجتمعاً متماسكاً قوياً حتى يعيد الحياة الى هذا الدين.

المعنى الأساسي

قديماً كانت هذه الأمة تتمتع بهذه الصفات، لذلك كانت ذو عزة وكرامة ومجد وتاريخ كبير، وهيبة وقوة، وكان لها حضارة كبيرة وعظيمة.

فلما ذهبت تلك الصفات وخاصة في هذا الجيل الحالي، أصبحنا أمة ضعيفة ويائسة ومحبطة ومستسلمة وهزيلة، ومقطعة الأوصال، وأخيراً محتلة.

فقصة سيدنا نوح كانت قائمة على صفتي: الصبر والتضحية. فبهما نصر الله نوحاً عليه السلام ونجّاه من الغرق، وهذه القصة كانت هي المفتاح الذي سنستعمله في فتح كل أبواب الحياة، وذلك بالسير على منهاجهم وخططهم.

الفكرة المركزية

يقول علماء النفس: إن الجنس البشري في هذه الدنيا لديه فكرة مركزية في عقله، وهي التي تتحكم به وتحرك كل إمكانياته، فمثلاً فكرة المال أو العمل أو السلطة أو العائلة، كل هذه الأفكار ليست محرمة بل هي أهم شيء في حياتنا.

فقد تجد عند بعض الناس أن العمل هو أهم شيء في حياته، وعند البعض الآخر السلطة والمركز أهم شيء حتى من والديه، والبعض الآخر يهمه مظهره أمام الناس.. وهكذا.

سأطرح عليك سؤالاً: ما هي مركزيتك؟ إذا أردت أن تعرف أقول لك:

اليوم عليك أن تقرر وتكون صادقاً، وتعرف ماذا تريد، وأن تكون على استعداد بأن تضحي بأي شيء لأجله.

لذلك يضعنا الله ﷻ في اختبار بين شيئين وهو أعلم بما يجول في خواطرنا، فمثلًا: أنت أمام اختيار إما أموالك أو عائلتك، فعندما تختار عائلتك تدرك أنها هي مركزيتك. أو أن تختار بين عائلتك أو عملك... فتختار عملك؛ لأن العائلة ليست مهمة بالنسبة لك فأنت ستضحي بكل شيء من أجل عملك.

إذن مركزيتك هنا العمل والمال والمنصب ولا أهمية للأب والأم والعائلة، وهذا الشخص مستعد لأن يسحق الناس من أجل أنانيته ونفسه فقط.

مركزيتك طاعة الله

هل تريد أن تضحي بكل شيء وتفوز يوم القيامة؟ لتكن مركزيتك طاعة الله ورضاه، وحبه والتذلل له، وإصلاح هذه الأرض وإصلاح الناس؟ إذن أنت ملزم أن تكون مركزيتك طاعة الله ﷻ لماذا؟ لأن القرآن الكريم الذي أنزله الله ﷻ، أمر بذلك...

يقول الله ﷻ: ﴿قُلْ إِن كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَجِهَادٍ فِى سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِىَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾﴾ [التوبة: 24]، من ستكون مركزيته هذه الأشياء أو الأشخاص التي عددها الله ﷻ في هذه الآية؟ مع العلم أن الله تبارك وتعالى أمرنا أن نهتمّ بعائلتنا وأمرنا بأن نعمل لكسب رزقنا، ولكن لا أن يكونوا مركزيتنا في الحياة، بل الله ورسوله وجهاد في سبيله، وإصلاح في هذه الأرض، وإطعام اليتيم وتعليم القرآن وإصلاح الناس.

ويأتي يوم القيامة فيقف أمام الله تبارك وتعالى، ووراءه أهم شيء كان له في الدنيا: مركزيته.

يقول النبي ﷺ: «**تَعِسَ عبد الدرهم**»[1]، المركزية هنا مهمة وخطيرة، لأنها قضيّة مصير، هل أنت مستعد الآن أن تغيرها؟ عليك أن تختار إما أن تكون مركزيتك المال مثلاً وتعيش حياتك تعساً وتخسر آخرتك، وإما أن تختار أن تكون مركزيتك طاعة الله ورضاه وتعيش سعيداً وتفوز بالجنة.

تريد أن تُعدِّلْ مركزيتك؟ فابدأ منذ الآن؛ لأن يوم القيامة سيقف كل شخص وراء الشيء الذي هو الأهم في حياته وكان محور مركزيته، فمثلاً: يقف عبد الدرهم وراء ماله، ويقف عبد

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 2886)، و(الحديث: 6435)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 4135)، وأخرجه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 9/ 159).

السلطة وراء كرسيه، وتقف الفتاة التي عبدت الأزياء والملابس وراء هذه الأشياء، أما الذي كانت مركزيته طاعة الله ورضاه فقط، فهو الوحيد الذي سيقف وربنا راضٍ عنه.

نجاح الفكرة

يقول علماء الدين والاجتماع والتاريخ وعلماء النفس: إن كل نهضة حدثت في تاريخ البشرية كان سببها الصبر والتضحية، الغرب نجحوا في حياتهم وتفوقوا؛ لأنهم وضعوا فكرتهم المركزية «المال» ولو على حساب العائلة (الأسرة) أو الدين ونجحوا؛ لأنهم ضحوا وصبروا لذلك وصلوا إلى تحقيق كل مخططاتهم.

فأنا أدعوكم لأن نُكَوِّن فكرتنا المركزية وأن نجعلها طاعة الله ورضاه، لنضعها أمام أعيننا، فهي لا تتعارض مع فكرة المال، أو الأسرة، وإن كنت ستضحي بالمال أو النفس فلن يزيد ذلك من مالك أو من عمرك.

يقول النبيّ ﷺ: «**إن روح القدس نفث في روعي، أن نفساً لن تموت حتى تستكمل رزقها وأجلها**»[1].

لماذا لا تكون فكرتك الأساسية هي طاعة الله ورضاه، لا تجعل الشيطان يوسوس لك ويغير فكرتك، عليك أن تكون واثقاً من نفسك.

---

(1) أخرجه **البغوي** في «السنة» (الحديث: 14/ 304).

قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام

حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام

عاش سيدنا إبراهيم طويلاً، وهو منذ ولادته يقدم التضحيات من أجل فكرته المركزية التي كانت أهم شيء بالنسبة له، ومحور عقله وهي: طاعة الله تبارك وتعالى.

وكان الله يضرب لنا به الأمثال، لقد كان لكم فيه أسوة حسنة كرسول الله محمد ﷺ.

وسنبدأ هنا بترتيب مراحل حياته؛ لأنها ستكون سجلاً للإنسان ولهذه الأمة ليتعلم منها ويعرف ما ستكون مركزيته:

مراحل حياته:

المرحلة الأولى:

بدأت هذه المرحلة بعد أن أصبح عمره ستة عشر عاماً، وبدأ بـ:

1 ـ دعوة والده.

2 ـ دعوة قومه.

3 ـ تحطيم الأصنام.

4 ـ رميه في النار.

من أجل أن ينفّذ فكرته المركزية اجتمع كل من في القرية على رميه في النار وكان في السادسة عشرة من عمره، يا لهذا الموقف الكبير في هذا العمر؟!

المرحلة الثانية: الهجرة المستمرة بين البلاد:

1 ـ مواجهة الملك (النمرود): دعاه سيدنا إبراهيم عليه السلام إلى الله ﷻ فطرده، كان هذا الملك جباراً يحكم العالم ، وعندما دعاه سيدنا إبراهيم إلى عبادة الله لم يقتله، أتعرف لماذا؟ لأنه علم أن قومه ألقوه في النار ولم يُحرق، فخاف منه واعتقد أنه ساحر؛ لأن مركزية هذا الملك كانت السلطة وليس الله تبارك وتعالى، فمن الطبيعي أن يكون رجلاً جباناً وضعيفاً وخائفاً أمام رجل قوي وشجاع مثل نبينا إبراهيم عليه السلام.

2 ـ الهجرة من العراق إلى الشام.

3 ـ الهجرة من الشام إلى مصر.

4 ـ الهجرة من مصر إلى فلسطين.

لماذا ضحَّى سيدنا إبراهيم عليه السلام باستقراره وماله مع العلم أنه كان رجلاً غنياً وحقق تجارة عالية، وحتى عائلته ضحّى بها؟ كل هذه الأشياء ليست مهمة في حياته فهي ليست مركزيته ولا فكرته الأساسية.

فكرته المركزية التي خطط لها وعاش من أجلها هي طاعة الله ورضاه.

المرحلة الثالثة: مرحلة الشيخوخة:

1 ـ تَرْكُهُ لزوجته هاجر وابنه إسماعيل بوادي مكة: لقد ترك سيدنا إبراهيم زوجته وطفله في الصحراء، وترك ذلك الطفل بعد أن رزقه الله تبارك وتعالى إياه في عمر الشيخوخة، وخيّره بينه وبين طفله.

2 ـ قصة ذبح إسماعيل عليه السلام.

3 ـ قصة بناء الكعبة.

4 ـ الوفاة.

منذ أن أصبح في سن السادسة عشرة من عمره رماه قومه في النار، وبعد أن نجّاه الله تبارك وتعالى هَاجَر من بلد إلى بلد، وبعد أن تزوّج ورزقه الله ﷻ بولد، أمره الله بأن يتركهما في الصحراء، وطلب منه أن يذبح ابنه وأن يبني له بيتاً، كل ذلك كان اختباراً من الله ﷻ لسيدنا إبراهيم، وليكون هو المثل والنموذج في حياة الأمم.

ضع هدفاً في حياتك لله، هناك نساء كثيرات ضحّوا لله وأجزاهم الله الثواب والخير الكثير.

ما الذي يمنعك من ارتداء الحجاب؟ الناس وكلامهم؟ أيهما أهم...؟ ارضاء الناس أم ارضاء الله ﷻ، أين السعادة؟ في ارضاء الناس أو ارضاء الله تبارك وتعالى، ومن سيفوز في النهاية؟

نتائج الفكرة المركزية

قال تعالى: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾ [البقرة: 124].

معنى هذه الآية: أن الله سبحانه وتعالى اختبر سيدنا إبراهيم عليه السلام بكل هذه الاختبارات، فعندما أتمّهن ونجح في كل اختبار وأثبت فكرته المركزية، قال الله عز وجل له: ﴿وَإِذِ ٱبْتَلَىٰٓ إِبْرَٰهِـۧمَ رَبُّهُۥ بِكَلِمَٰتٍ فَأَتَمَّهُنَّ ۖ قَالَ إِنِّى جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا ۖ﴾، فجعله إماماً للناس. وهذه الاختبارات ليست لإبراهيم فقط، بل لكل الناس، قال تعالى: ﴿وَٱجْعَلْنَا لِلْمُتَّقِينَ إِمَامًا﴾ [الفرقان: 74]، فجعله الله عز وجل إماماً لكل الناس إلى يوم القيامة، فأنت عندما تصلي وتذكره فأنت تصلي عليه في كل صلاة. قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ كَانَ أُمَّةً﴾ [النحل: 120]، وتعني هذه الآية: ثوابه عند ربه بثواب أمة كاملة، فيوم القيامة توضع كل حسنات الناس في كفة من الميزان، وتوضع صالحات وحسنات سيدنا إبراهيم عليه السلام في الكفة الثانية، (هو قام بدعوة والده ودعوة قومه ورموه في النار وهاجر إلى بلاد كثيرة، وترك ماله وزوجته وابنه في الصحراء).

فأنت الآن كم تزن؟ ماذا ستقدم حتى تضعه في ميزانك؟

هناك قاعدة تقول: كن رجلاً بألف رجل فإن لم تستطع فكن رجلاً ولا تكن نصف رجل، ويقول الله عز وجل: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ﴾، ويقول أيضاً: ﴿فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ﴾.

إن هذه الآيات تعني: أن الله عز وجل يوزنك حسب حالتك

الإيمانية، أي: إن كنت صابراً ومؤمناً وقوياً، فأنت تزن عشرة رجال، أما إذا خف إيمانك وقَلّ صبرك فأنت لا تزن أكثر من رجلين.

ميزان الإنسان:

ما هي مركزيتك؟ وكم تزن الآن؟ سؤالان مهمان جداً.

عندما أرسل سيدنا عمر بن الخطاب ﷺ عمرو بن العاص ليفتح مصر، أرسل عمرو بن العاص يطلب من عمر أن يرسل له ألف رجل يدعمون جيشه في المعركة، فأرسل له رجل واحد فقط يدعى: القعقاع ، فتعجّب عمرو بن العاص من هذا العمل، وأعاد طلبه على عمر بإرسال ألف رجل، ويسأله لماذا أرسل له رجلاً واحداً فقط؟

فغضب عمر بن الخطاب وقال: والله لصوت القعقاع في المعركة وهو يقول: الله أكبر، خيرٌ من ألف رجل أُرْسِلُهُ إليك.

وعندما بدأت المعركة وتمّ محاصرة المسلمين في حصن بابليون في مصر، احتار عمرو بن العاص ماذا يفعل، فما كان من القعقاع إلا أن وقف بعد صلاة الفجر ونادى جيش المسلمين: يا عباد الله، انصروا الله ينصركم، وما إن سمع جيش الرومان ذلك الصوت حتى ظنوا أن المسلمين سيهجمون عليهم من كل جهة فتراجعوا، وهكذا هجم المسلمون عليهم فعلاً وانتصروا بفضل الله. رحم الله عمر بن الخطَّاب فمن مثله يعلم قدر الرجال.

هناك نساء في هذه الدنيا تزن مئة رجل، وهناك رجل

يزن خمسين رجلاً، وهناك من يزن عشرة أو أقل، وتصت الصفر.

إبراهيم عليه السلام كان أُمة، أنت كم تَزِن؟ إن كانت فكرتك المركزية طاعة الله، حتماً سيكون وزنك كبيراً، أما إذا أتيت يوم القيامة وأنت مسلم عاصٍ فإنك لن تَزِن جَنَاح بعوضة.

يقول النبيّ ﷺ: «**فينظر إلى كفَّة الحسنات والسيئات، فيجد أن السيئات رجحت، فيقول: ضعوا من حسناته فيجدوا أنها لا تزن شيئاً، فيكون ضخم الجثة فيلقي نفسه في كفة الحسنات، فلا تزن عند الله جناح بعوضة**»[1]، عليك أن تَزِن نفسك في الدنيا قبل أن توزن يوم القيامة، استعرضوا تاريخ حياتكم واسألوا أنفسكم ماذا جمعتم في ميزان الحسنات؟

قال تعالى: ﴿وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾﴾ [النجم: 37]، أي: أنه وفّى بعبادته وأخلاقه ومعاملته لزوجته... وفَّى بكل شيء من أجل المركزية.

مركزيته طاعة الله عز وجل ورضاه، ومفاتحهما التضحية والصبر قال تعالى: ﴿إِنَّ إِبْرَٰهِيمَ لَحَلِيمٌ أَوَّٰهٌ مُّنِيبٌ ﴿٧٥﴾﴾ [هود: 75]، معناها هنا: أنه كثير التذلل وكثير التوبة والعبادة، أواه: أي كان كثير التأوه، وعندما يذكر الله يبدأ بالبكاء من خشيته.

فلتكن لك فريضة تسير عليها وتنفذها، وعليك أن تجتاز كل الاختبارات وأن تصبر وتضحي من أجل تحقيق فكرتك

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 5/ 154).

الأساسية التي هي عبادة الله ﷻ والتذلل له.

ادخل إلى غرفتك وأقفل بابك وابدأ من جديد يوضع خطة جديدة، واعبد ربك وتذلل له بإخلاص، واطلب من الله ﷻ أن يساعدك، وأن لا يجعل وزنك جناح بعوضة عندما تَلْقَاه، واعلم أنك لو عبدته وكان مركز حياتك ستعيش حياة سعيدة لا مثيل لها.

يقول الله تبارك وتعالى: ﴿وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبْرَٰهِيمَ خَلِيلًا﴾ [النساء: 125]، يعني إلى درجة الحب لإبراهيم، لذلك هو خليل الله تبارك وتعالى.

يقول نبينا ﷺ: **«ألا إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك، ألا وإن موسى نجيّ الله وهو كذلك، ألا وإن آدم اصطفاه الله وهو كذلك، ألا وإن عيسى كلمة الله وهو كذلك، ألا وإني حبيب الله ولا فخر»**[1].

فبقدر ما يكون مقام الله ﷻ في قلبك يكون قدرك يوم القيامة، أنت الذي تختار شكل العلاقة.

كان في زمن النبيّ ﷺ رجل يدعى: معاوية بن معاوية المزني، وكان الرسول يحبه حباً شديداً، وعندما ذهب الرسول مع جيشه إلى معركة تبوك لم يذهب معهم لأنه كان مريضاً. ولمّا مات معاوية نزل جبريل عليه السلام من السماء من أجله خاصة، وقال للنبيّ ﷺ: قم يا محمد وصلِّ على معاوية فلقد مات هذه الليلة، فيقول النبيّ ﷺ: **«في هذا الليل وهذا البرد القارس فلننتظر للصباح»**

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3148)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 4308)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 1/ 5)، و(الحديث: 1/ 281).

أي: الفجر، فقال جبريل عليه السلام: ينتظرك في الباب صفين من الملائكة ما نزلوا من السماء من قبل هذا اليوم، فلما مات معاوية استأذنوا ربهم أن ينزلوا ليصلوا عليه، قال النبيّ ﷺ: «**ماذا فعل معاوية؟**» قال جبريل عليه السلام: لقد عاش هذا الرجل لله عز وجل وكان يحب سورة: ﴿قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ ۝١﴾ [الإخلاص: 1].

وكلنا يعرف قصة سيدنا أُبي بن كعب رضي الله عنه ونزول سورة «البيِّنة»، عندما قال له النبيّ ﷺ: «**يا أُبي، أمرني ربي أن أقرأ عليك هذه السورة**»، قال أُبي: يا رسول الله، أسمَّاني ربي؟ قال النبيّ: «**نعم، قال لي: اقرأ هذه السورة على أُبي فإني أحبه**»[1].

فنحن إن شاء الله الفائزون في الدنيا وحتى يوم القيامة بهذا الدين العظيم، انظر محبة الله تبارك وتعالى للناس الذين أحبوه ومدى إكرامه لهم.

ذهب أحد الصحابة قبل يوم من وفاته وقال للرسول ﷺ: ادعو الله لي أن أموت شهيداً، قال له النبيّ ﷺ: «**يقول الله** عز وجل: **إن من عبادي من يموت في فراشه سيموت شهيداً**»[2]، في اليوم التالي مات هذا الصحابي وكان عمره اثنان وعشرون سنة، فخرج الرسول ليدفنه فقال لسيدنا أبو بكر وعمر رضي الله عنهما وهما يحملاه: «**ادنوه**

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3809)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 1862)، أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3792).

(2) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 4907)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 1520)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 1653)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 3162)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 2797).

مني»، فاحتضنه وقبّله وقد نزلت دموعه على الكفن ورفع يديه إلى السماء، وقال بعد أن دفنه وصلى عليه ونزل إلى قبره لتكن رحمة عليه: «**اللهمّ أشهدك أني راضٍ عنه، اللهمّ أشهدك أني راضٍ عنه فارض عنه، اللهمّ أشهدك أنه قد وفى**»، وكان اسم الصحابي: ذو البجادين.

إن أول شخص يُكسى يوم القيامة هو سيدنا إبراهيم عليه السلام، ودعاؤه مستجاب، وأمته مستمرة إلى يوم القيامة، كل ذلك بفضل عمله وفكرته المركزية التي خطط لها وعاش من أجلها، وبذل كل التضحيات التي ذكرناها فنجح، فأثابه الله ﷻ وأجزاه بما صبر.

وأنت ماذا سيكسيك في الآخرة؟ هل ستكون عرياناً أم هل ستعد شيئاً تكسى به؟! فليكن الإيمان اذن.

بعض مهارات الحياة

إذا كنت تريد أن تصلح في هذه الأرض وتنجح في عملك، يجب أن يكون لديك مهارات، حتى أصحاب الدعوة إلى الله هم بحاجة إلى تلك المهارات لإيصال الدعوة إلى الناس بشكل صحيح.

الصفات الأساسية والمهمة جداً للعمل والمعاملة هي:

1 ـ فن الحوارات والتعامل.

2 ـ المبادرة الإيجابية.

3 ـ الفن العقلي.

4 ـ كيف تخطط لفكرتك.

المواجهات في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام

بدأت مواجهاته وهو في سن السادسة عشرة وهي:

1 ـ مع والده.

2 ـ مع قومه.

3 ـ مع الملك.

4 ـ مع عبدة النجوم.

1 ـ **مع والده**: كان والد سيدنا إبراهيم عليه السلام كافراً، قاسياً جداً وعنيفاً، يصنع الأصنام لمدينة بابل في العراق، والتي يعبدها قومه وكانت مصدر رزقه.

2 ـ **مع قومه**: كانوا من العراق، قوم كُفْر وعِنْد وتكبّر، يستهزئون بكل من وجدوه ضعيفاً .

3 ـ **الملك**: هو الملك نمرود، كان يقول عن نفسه بأنه الإله، وهو أعظم وأقسى الملوك على الأرض.

4 ـ **عبدة النجوم**: هم فلاحون طيبون بسطاء، يبحثون في النجوم ليعرفوا من إلاههم.

مهارة أدب التعليم:

1 ـ **مع والده**: عندما أصبح سيدنا إبراهيم عليه السلام في الرابعة عشرة من عمره، بدأ يكلم والده عن عبادة الأصنام وأنها لا تصلح

ولا تستحق كل هذا التقديس، يقول الله تبارك وتعالى: ﴿إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ لِمَ تَعْبُدُ مَا لَا يَسْمَعُ وَلَا يُبْصِرُ وَلَا يُغْنِي عَنكَ شَيْـًٔا ﴿٤٢﴾﴾ [مريم: 42]، يقول له بكل لطف ومحبة واحترام ولين: أنها لا تسمع لا تعقل ولن تفيدك بشيء، فارتد عنها وعن عبادتها، أعاد عليه وقال: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّي قَدْ جَآءَنِي مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَٱتَّبِعْنِيٓ أَهْدِكَ صِرَٰطًا سَوِيًّا ﴿٤٣﴾﴾ [مريم: 43]، لم يقل له: إنك رجل جاهل ولا تفهم وأنا أعلم وأفهم منك، هناك أناس كثيرون لا يعرفون كيف يتعاملون بكلام جميل مع والديهم، ويعاملونهم بطريقة فجة وقلّة احترام ولا مبالاة.

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَبَتِ إِنِّيٓ أَخَافُ أَن يَمَسَّكَ عَذَابٌ مِّنَ ٱلرَّحْمَٰنِ فَتَكُونَ لِلشَّيْطَٰنِ وَلِيًّا ﴿٤٥﴾ يَٰٓأَبَتِ لَا تَعْبُدِ ٱلشَّيْطَٰنَ ۖ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلرَّحْمَٰنِ عَصِيًّا ﴿٤٤﴾﴾ [مريم: 44، 45].

انظر إلى فن التعامل مع والده، إنه يكلمه بالحسنى وبالرقة وبكل محبة واحترام، فقد قال تعالى: ﴿فَلَا تَقُل لَّهُمَآ أُفٍّ﴾ [الإسراء: 23].

ماذا تعني: بمجرد أنه همس أو نظر نظرة غل إلى والديه... أو قال: أفٍ لهما تنزل في كفة السيئات ما يعادل ذنوب سنة، يا ترى من هو المسؤول الأهل أم الإعلام أم الأصدقاء؟ يقول النبيّ ﷺ: **«من أحَدَّ النظر إلى والديه فأنا منه بريء»**.

أعرف والداً خصص غرفة من منزله الصغير ـ رغم معارضة زوجته ـ ووضع فيها لعبة تسمى: (البينغ بونغ) أو التنس، حتى

يلتقي مع أولاده ويكون قريباً منهم، وقال لزوجته: هذه ستحافظ على علاقتي بأولادي، نريد أن تتعاملوا هكذا فتتقربوا من أولادكم وآبائكم.

قال تعالى: ﴿قَالَ أَرَاغِبٌ أَنتَ عَنْ ءَالِهَتِي يَـٰٓإِبْرَٰهِيمُ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ لَأَرْجُمَنَّكَ وَٱهْجُرْنِي مَلِيًّا ﴿٤٦﴾﴾ [مريم: 46]، يقول له والده: سأضربك بالحجارة وأطردك من البيت، عليك أن تكف عن هذا الكلام وأن تعبد ما يعبد آباؤك وقومك، فما كان رد إبراهيم عليه السلام: ﴿قَالَ سَلَـٰمٌ عَلَيْكَ سَأَسْتَغْفِرُ لَكَ رَبِّيٓ إِنَّهُۥ كَانَ بِي حَفِيًّا ﴿٤٧﴾﴾ [مريم: 47]، أي: مني لك كل سلام ومحبة ورحمة، هذه هي مهارة فن التعامل والدعوة.

2 ـ **مع قومه**: قال تعالى: ﴿قَالُوٓاْ أَجِئْتَنَا بِٱلْحَقِّ أَمْ أَنتَ مِنَ ٱللَّٰعِبِينَ ﴿٥٥﴾﴾ [الأنبياء: 55]، كان قومه إذا وجدوا شخصاً ضعيفاً استهزؤوا به، فعرف كيف يتعامل معهم فلم يواجههم كما فعل مع والده، بل كان قوياً وحازماً وجاداً، علم متى يكون شديداً ومتى يكون ليناً.

قال تعالى: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصْنَـٰمَكُم بَعْدَ أَن تُوَلُّواْ مُدْبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ [الأنبياء: 57]، وقال أيضاً: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾﴾ [الأنبياء: 66]، وأيضاً: ﴿أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: 67].

تعامل مع كل شخص وفق ما يحتاجه، فوالده لا يجوز أن يتعامل معه إلا بالحسنى واللطف والرحمة، أما قومه فلا تنفع معهم

هذه الطريقة، بل عليه أن يكون شديداً وقوياً، فهو مرسلٌ برسالة ربانيّة وعليه أن يوصلها.

3 ـ **الملك**: كان جباراً ورهيباً، كيف سيتعامل معه؟ مثل والده أم مثل قومه؟ أم مثل الناس الذين يعاملون الملوك برهبة وخوف وتذلل؟ انظر كيف دخل على ذلك الجبار وبدأ بمحاورته وبطريقة الواثق من نفسه والمعتز بفكرته، قال: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258].

أي: أنت تَدَّعي الربوبية وإلٰهي هو الذي يحيي الناس وهو الذي يميتهم، كلّمه بطريقة دبلوماسية... ليس عيباً أن تنزل إلى الناس كلٌّ حسب مركزه ومنصبه، المهم أن تصل رسالتك.

انظر إلى سيدنا محمد ﷺ عندما بعث برسائل إلى الملوك ليدعوهم إلى الإسلام ماذا قال لهم:

«من محمد رسول الله وخاتم الأنبياء إلى هرقل عظيم الروم، ومن محمد رسول الله إلى المقوقس عظيم مصر، ومن محمد رسول الله إلى النجاشي عظيم الحبشة»[1].

انظر تعامل سيدنا إبراهيم مع والده بكل محبة، ومع قومه بمنتهى القسوة، أما مع الملك بالدبلوماسية (أي: بالحوار)، أما مع عبدة النجوم بكل بساطة.

هناك رجال لا يعرفون كيف يتعاملون مع النساء إلا بالشدّة، عليك أن تعامل المرأة كلٌّ حسب عقلها وثقافتها

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 263).

وتعليمها أو كبر سنها، هناك رجال لا يفرّقون بين امرأة وأخرى.

المبادرة بدون خجل

طُرِدَ سيدنا إبراهيم عليه السلام من بلده أربع مرات، وكان بعد كل مرة يعود ويدعو الناس، لم يخجل من ذلك؛ لأنه مُصِرٌّ ومثابر.

علّموا أولادكم على المثابرة والمحاورة والمشاركة، وأن يبتعدوا عن الخجل والتردد؛ لأنه مرض نفسي عليكم معالجته. ومستقبلاً يؤدي إلى الخجل من إظهار الحق وهي مشكلة في الشخصية، ومن مسؤوليّة الأهل تقويم ذلك وتكرار المحاولة.

يقول بعض الناس: أنا أخجل أن أُهان أمام الناس وأمام الله ﷻ هذا شيء مختلف.

فيا أيها الشباب، تعلموا من إبراهيم المبادرة، فأنا أرى الشباب كل يوم يخرجون بمبادرات جيدة وهذا شيء جيّد.

أول شخص ذهب إليه ليدعوه كان والده (هذه هي المبادرة)، وكان صاحب الفعل ولم يكن أبداً صاحب رد الفعل لماذا؟ لأن صاحب رد الفعل يكون ضعيفاً، ولهذا السبب أصبح المسلمون ضعفاء، استمر على الفعل والمبادرة.

ولكن احذر من الحماسة والهوجاء، عليك أن تختار الوقت والمكان المناسبين، مبادرة فيها عقل واتزان متى؟

ومع من؟ وكيف؟ كل هذا مهم من أجل تحقيق الهدف.

ذهب إبراهيم إلى كبار قومه وهو في السادسة عشر عاماً، هذه هي المبادرة، كان يعلم أن قراره سيؤول به إلى النار ولكنه لم يتراجع، بل قال لهم: ﴿مَا هَٰذِهِ ٱلتَّمَاثِيلُ ٱلَّتِيٓ أَنتُمْ لَهَا عَٰكِفُونَ﴾.

المبادرون هم الذين يصنعون التاريخ، تخيل معي أنك توفيت ووضعوك في النعش وحملك أصدقاؤك وسار وراءك الناس، وأنت في النعش، سمعت الناس الذين يحملونك يقولون: ماذا فعل هذا في حياته؟ ماذا أضاف في هذه الدنيا؟ ماذا يكون موقفك؟

سيدنا إبراهيم دعا والده وقومه فرمَوْه في النار، وهاجر من بلد إلى آخر، ووقف أمام ملك جبار بلا خوف، وترك زوجته وابنه في الصحراء، أنت ماذا قدمت وأضفت إلى هذا العالم؟

شجاعة وحكمة

بعد أن حطَّم جميع الأصنام ترك أكبرها وعلَّق عليه الفأس الذي حطّمها به، ولكن... لماذا يحطّمها كلها وأبقى عليه؟!

هناك شيء يخطط له، فأخذوه إلى الملك ولكنّه لم يهتم، وقبل أن أكمل تعال واسمع معي هذه القصة...

بعث سيدنا سعد بن أبي وقاص أثناء معركة بين المسلمين والفرس الصحابي «ربعي بن عامر» ﷺ إلى ملك الفرس «رستم»؛ لأنه طلب منهم إرسال شخص منهم ليعلم ماذا يريدون، فكان هذا

الصحابي الجليل إنساناً بسيطاً وواثقاً من نفسه ومن دينه، وأراد الملك أن يُبهره فطلب من حاشيته أن يفرشوا الصحراء بالسجاد على طول المسافة بين قصره وبين جيش المسلمين ثم ملأ الطريق بالجواري والحاشية والزينة، فما إن وصل الصحابي ونزل عن فرسه ومعه حربته وسار إلى القصر، حتَّى أخذ بتمزيق السجاد دون مبالاة أو قصد خلال سيره.

فيدخل ربعي بن عامر رضي الله عنه ويقول له: أيّها الملك، جئنا إليك بعد طلب منك، جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة.

من هو الغالب هنا؟ من هو الواثق من فكرته أكثر؟

هناك نساء يضحكون من ارتداء الصحاب؟ أين المبادرة؟

أين الثقة بالنفس، قال تعالى: ﴿كِتَٰبٌ أُنزِلَ إِلَيْكَ فَلَا يَكُن فِي صَدْرِكَ حَرَجٌ مِّنْهُ﴾ [الأعراف: 2]، لا تضحك من دينك والله ﷻ هو عزتنا وكرامتنا فارفع رأسك به دائماً.

ونعود إلى قصة سيدنا إبراهيم... رأيناه كيف دخل على الملك وهو في عمر السادسة عشر وقال له: ﴿رَبِّيَ ٱلَّذِى يُحْىِۦ وَيُمِيتُ﴾ [البقرة: 258]، وهو الذي بدأ بالكلام أولاً فرد عليه الملك: هذا شيء بسيط أستطيع أن أحضر اثنين من السجن وآمر أن يُعدم هذا ويترك ذاك فأنا هنا أحيي وأميت، فلم يجادله إبراهيم بل انتقل إلى موضوع آخر، ﴿فَإِنَّ ٱللَّهَ يَأْتِى بِٱلشَّمْسِ مِنَ ٱلْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ ٱلْمَغْرِبِ فَبُهِتَ ٱلَّذِى كَفَرَ﴾، فَبُهِتَ الملك ومن معه وكان إبراهيم يتكلم بكل ثقة وقوة وشجاعة، لقد علموا لو قال له الملك: آتي بها

من المشرق ودع ربك يأتي بها من المغرب، إن إبراهيم حتماً سيجد ما يرد عليه، ويبهتهم جميعاً.

قال النبيّ ﷺ: **«المؤمن الذي يخالط الناس ويصبر على أذاهم خير من المؤمن الذي لا يخالطهم ولا يؤذونه»**[1].

مهارات... لا بد لك منها:

مهارات عليك أن تتصف بها... ولتكن صفة في شبابنا:

1 ـ مهارة الحوار والاتصال وأدبيات التعامل مع الناس.

2 ـ كن مبادراً.

3 ـ عرض فكرتك بإيجاز: كيف تستطيع أن تعرض الإسلام في نصف دقيقة وأن تقنع به من حولك؟

عندما هاجر سيدنا جعفر بن أبي طالب ﷺ ومن معه من المسلمين من مكة إلى الحبشة، ذهب عمرو بن العاص ـ ولم يكن قد أسلم بعد ـ وقال للنجاشيّ: نريد أن تعيد لنا هؤلاء الناس، فطلب الملك إحضارهم إليه واستمع إليهم أولاً، وماذا يقولون في هذا الدين الذي جعلهم يتركون بلادهم وقومهم ويأتون إليه لأجل نصرته وإعزازه:

فوقف سيدنا جعفر بن أبي طالب بدون أي تجهيز أو تخطيط لما سيقوله للملك، رتب أفكاره وبدأ يشرح للملك هذا الدين بطريقة سهلة وقصيرة.

---

(1) ذكره ابن حجر في «المطالب العالية» (الحديث: 2727).

وقسَّم الموضوع إلى خمسة أجزاء:

1 ـ عرض مساوىء الجاهلية: كان القوي منَّا يقتل الضعيف، ونقطع الأرحام، ولا يرحم بعضنا بعضاً.

2 ـ جاءنا رجل من بيننا نعرفه ونعرف نَسَبَه، وخُلُقَهُ وفَضْلَهُ.

3 ـ أمرنا أن نصل الرّحِم، وبإقامة الصلاة، وأن نكرم الضعيف ونرد الأمانة.

4 ـ بدأت العداوة بيننا وبين قومنا فعذبونا واضطهدونا.

5 ـ جئنا إليك واخترناك على سواك.

عرض الإسلام ومحاسنه وعرّف عن نبيه بهذه الكلمات، فقال له الملك: «اذهبوا فأنتم الطلقاء».

لا بد أن الرسول ﷺ كان عندما يجتمع بالصحابة في دار الأرقم، يعلّمهم كيف يدعون الناس إلى الإسلام، وكيفية توصيل هذا الدين بالطريقة السهلة التي يفهمها الناس ويقتنعون بها بسرعة.

انظر إلى إبراهيم عندما حطّم الأصنام وترك كبيرهم وعلق في رقبته الفأس، فعندما حضر قومه سألوه: من فعل هذا؟ ومن حطم تلك الأصنام؟ قال إبراهيم: لا أعرف اسألوا كبيرهم هو الذي فعل ذلك، لا بدّ أنه قد أحس بالغيرة منهم فضربهم، فنكسوا رؤوسهم وعرفوا أن هذه التماثيل جماد لا تنطق.

عبدة النجوم:

انظر كيف تصرّف مع عَبَدَة النجوم، عندما أتى الليل ذهب هؤلاء القوم إلى الساحة ليتأمّلوا النجوم؛ فهم يعتبرونها الإله، فخرج

معهم ليشاركهم النظر إلى النجوم، وقال لهم: هذا ربي! وبعد قليل اختفى النجم، فسأل: أين ربي؟ فقال له رجل: غداً سوف يعود. ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَآ أُحِبُّ ٱلْآفِلِينَ﴾، ثم قال لهم: سأختار إلٰهاً أكبر منه فهذا القمر أكبر من النجوم لنرى، ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَٰذَا رَبِّى﴾، انظر إلى الطريقة التي يحاورهم بها نزل إلى عقولهم وبساطتهم وبدأ يفهمهم الأمر شيئاً فشيئاً، ولكن ماذا حصل بعد ذلك؟ قال تعالى: ﴿فَلَمَّآ أَفَلَ قَالَ لَئِن لَّمْ يَهْدِنِى رَبِّى لَأَكُونَنَّ مِنَ ٱلْقَوْمِ ٱلضَّآلِّينَ﴾، إذن اختفى القمر أيضاً، فالنجم صغير والقمر أيضاً وهما ليسا ثابتان في مكانهما، لماذا لا نختار الشمس؟! هي أكبر وأقوى وتظهر في النهار، فلما حضروا في اليوم التالي نهاراً: ﴿فَلَمَّا رَءَا ٱلشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَٰذَا رَبِّى هَٰذَآ أَكْبَرُ﴾، انظروا حتى الشمس الكبيرة والشديدة الحرارة والقوية رحلت واختفت ولم تثبت في مكانها، وإن لم يهدني ربي لأكونن من الضالين.

﴿فَلَمَّآ أَفَلَتْ قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى بَرِىٓءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ إِنِّى وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ حَنِيفًا وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٧٩﴾﴾ [الأنعام: 79]، بدأ معهم في حواره من أصغر شيء إلى أن وصل إلى الشمس، حتى أقنعهم بضلال ما يفعلون، ولم يقل منذ البداية: هذا حرام لا تعبدوه، حاول إقناعهم وإفهامهم أن هذه الأشياء تأتي وتختفي فلا تستحق أن تكون إلٰهاً ونعبدها. منهج عقلي رهيب هذا هو الإسلام وهذا كله من القرآن، ﴿ٱلَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ ﴿٧٨﴾ وَٱلَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِينِ ﴿٧٩﴾ وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ ﴿٨٠﴾ وَٱلَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ ﴿٨١﴾ وَٱلَّذِىٓ أَطْمَعُ أَن يَغْفِرَ لِى خَطِيٓـَٔتِى يَوْمَ ٱلدِّينِ ﴿٨٢﴾﴾ [الشعراء: 78 ـ 82]، أي إن آلهتكم يحدها الزمان والمكان، أما إلٰهي

فليس له زمان أو مكان محدد، هو موجود دائماً بكل وقت وفي أي مكان في هذا الكون، منهج عقلي رهيب، ومهارات وتقنية وأفكار قوية نتعلمها من هذا النبيّ الكريم.

هدفنا تحقيق كل أفكارنا بعد أن نخطط لها بدقة وحكمة وصبر، وإتقان فن الحوار والتعامل مع الناس كل ذلك مهم لإيصال رسالتنا ودعوتنا الى الله ﷻ.

التوكل على الله

لمن يطلب الرزق خشية على أولاده، لمن تتأفف وتخشى على نفسها لأنها لم تتزوج بعد، لمن يخشى البطالة، لمن يخشى على نفسه من سوء الحالة الاقتصادية، لمن يخشى على أولاده من صحبة السوء... لا تخشى شيئاً ولا تقلق، تحرك واعمل واجتهد وأدِّ ما عليك، ثم اترك نفسك لله.. دع الأمور لله وتوكل عليه. تذكرَّ أن من أسمائه الحسنى (جل وعلا): الوكيل.

والوكيل: الذي يتصرف برحمته وإحسانه في شؤون عباده، فيصرِّفها للخير، ولا يسلمها للشر أبداً.

فالوكيل لن يضيِّعك بشرط أن توكله قبل ذلك. ولهذا ترى النبيّ ﷺ يقول حين توفي ابنه: «**لبّيك وسعديك، والخير كله بيديك، والشر ليس إليك**»[1].

---

(1) أخرجه **الحاكم** في «المستدرك» (الحديث: 2/ 363)، وذكره **الدارقطني** في «السنن» (الحديث: 1/ 298).

فالله تعالى وكيل بتصريف أمورك دون أن تطلب منه، فكيف لو طلبت ذلك؟ لكن المهم أن تتكل عليه بقلبك ووجدانك.

انظر إلى صُنْع الوكيل منذ أن خُلِقت وإلى الآن، جنين في بطن أمك، وهي لا تستطيع إطعامك، فيرسل لك طعاماً وأنت في جوفها عبر الحبل السرّي فتتغذى عن طريق الدم، وعندما تأتي للحياة، تبكي وتصرخ؛ لأنك فقدت رزقك، فيستبدل لك الدم بشيء خير منه، ألا وهو اللبن من ثديي الأم... بدل المورد موردان.

وتُفطم فتبكي؛ لأنك فقدت مورد رزقك، فيرسل إليك الوكيل طعامين وشرابين، لحم الحيوان والنبات، واللبن والماء.

ويأتيك الموت فتبكي لأنك ستفقد الرزق الذي تعوّدت عليه، فلو كنت صالحاً فُتِحت لك أبواب الجنة الثمانية، وقيل لك: ادخل من أيّها شئت، وكلما بَكَوْتَ زادك؛ لأنك جاهل بمن يصلح أمور حياتك. فالله تعالى تولى أمور حياتك دون أن تطلب منه، فما ظنك لو طلبت منه؟

هذه هي قصة الرزق معنا، فارضَ بالله وكيلاً. أصلح في الأرض، خُذ بأيدي الناس، قل الحق ولا تخشى لومة لائم. أصلح في الكون ولا تخشى على رزقك، فقط اتكل عليه، أرأيت حين تذهب للشهر العقاري وتقول: وكلت فلان على جميع أموالي، إن كان لك ثقة به ستُوَقّع بدون خوف، وإن لم يكن لك ثقة به سترتعش يداك. فما بالك بالله تعالى الذي يعطي ولا يأخذ؟ فاتكل على الله الذي لا تضيع ودائعه.

انظر إلى أولئك الذين يذهبون لعيادة طبيب حاذق ومشهور، وينتظرون بالساعات حتى يستأمنوه على حياتهم، فكيف نثق بالعباد ولا نثق بالمعبود، بالوكيل الأوحد لهذا الكون؟!

هل تعرف كيف تطرد النار؟ تقول: حسبي الله ونعم الوكيل؛ لأنها تعني: الاتكال الكامل على الله تعالى، ولكن لا تقلها إلا أن تمكن قلبك منها.

ولننظر إلى صفة الوكيل في أربعة مواقف من قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام:

الموقف الأوّل:

قصة الأصنام: ﴿فَجَعَلَهُمْ جُذَٰذًا إِلَّا كَبِيرًا لَّهُمْ لَعَلَّهُمْ إِلَيْهِ يَرْجِعُونَ ﴿٥٨﴾ قَالُوا۟ مَن فَعَلَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَآ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥٩﴾ قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٠﴾﴾ [الأنبياء: 58 ـ 60].

مما يرجّح أن عمره كان آنذاك لا يزيد عن الستة عشرة عاماً، فهذا أقصى عمر نحدد به كلمة فتى.

أتستطيع أن تأتي بهذا؟ أليك الحيرة؟

هل تستطيع أن تقف أمام كل الناس لتظهر الحق وتزهق الباطل؟!

قال تعالى: ﴿فَأَقْبَلُوٓا۟ إِلَيْهِ يَزِفُّونَ ﴿٩٤﴾﴾ [الصافات: 94]، أي: اجتمع قومه على ضربه وسبابه وشتمه وإيذائه بكل أنواع العذاب. فليس قليل أن نذكره في كل صلاة (الصلاة الإبراهيمية)!

لهذا حينما رُزق النبيّ ﷺ بمولود لم يجد أفضل من اسم سيدنا إبراهيم: ﴿قَالُوا۟ فَأْتُوا۟ بِهِۦ عَلَىٰٓ أَعْيُنِ ٱلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَشْهَدُونَ ﴿٦١﴾ قَالُوٓا۟ ءَأَنتَ فَعَلْتَ هَٰذَا بِـَٔالِهَتِنَا يَٰٓإِبْرَٰهِيمُ ﴿٦٢﴾﴾ [الأنبياء: 61، 62]، نعم إنه التوكل على الله... أن تقدم على أمرٍ جللٍ كهذا؟! لا بد وأن يكون داعم هذا الأمر هو «التوكل على الله».

لذا يا أخي العزيز، توكل على الله تكن قوياً، ولا تخشى إلا الله، طبِّق قصة إبراهيم على حياتك، وكن أنت سيد نفسك ولا تستسلم لضعاف النفوس فتضِلّ وتشقى، ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُۥ كَبِيرُهُمْ هَٰذَا فَسْـَٔلُوهُمْ إِن كَانُوا۟ يَنطِقُونَ ﴿٦٣﴾﴾ [الأنبياء: 63]، تصور قوة القلب والجرأة التي كان يتمتع بها سيدنا إبراهيم عليه السلام في هذا الموقف! ﴿فَرَجَعُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ فَقَالُوٓا۟ إِنَّكُمْ أَنتُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٦٤﴾﴾ الأنبياء: 64]، اضطهدهم وبهتهم، فأخذوا يتحاورون فيما بينهم: هو على بيّنة، لكن كيف؟ ﴿ثُمَّ نُكِسُوا۟ عَلَىٰ رُءُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتَ مَا هَٰٓؤُلَآءِ يَنطِقُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [الأنبياء: 65]، وبدون خوف يرد عليهم: ﴿قَالَ أَفَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا لَا يَنفَعُكُمْ شَيْـًٔا وَلَا يَضُرُّكُمْ ﴿٦٦﴾ أُفٍّ لَّكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٧﴾﴾ [الأنبياء: 66، 67].

أرأيتم التوكل على الله؟

أتقدر أن تأتي برُبع جرأته؟ أتقدر أن تأتي بخُمْس توكله؟

يا شبابنا، يا نساءنا، نريد منكم التوكل على الله حتى تصلح أحوالنا. ﴿قَالُوا۟ حَرِّقُوهُ وَٱنصُرُوٓا۟ ءَالِهَتَكُمْ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿٦٨﴾﴾ *[الأنبياء: 68]*.

قال النبيّ ﷺ مرة: «**من يُسمِع قريش القرآن؟**»، قال عبد الله بن مسعود: أنا يا رسول الله، فيقف عبد الله بن مسعود في

وسط مكة ويتلو: ﴿ٱلرَّحۡمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلۡقُرۡءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلۡإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلۡبَيَانَ ۝٤﴾ [الرحمٰن: 1 ـ 4]، فتقول قريش: من ذا ينادي بهذا؟ فيقال: هذا ابن مسعود، فأتوه فضربوه بالنِّعال حتى لكأنه يموت بين أيديهم، فيقول للصحابة رضي الله عنهم: والله لأعيدنها غداً. أتستطيع أن تأتي بمثله.. فيعيدها في اليوم الثاني فيقول للصحابة: والله ما رأيتهم أضعف من اليوم، والله لأعيدنَّها غداً، حتى نهاه الرسول ﷺ عن ذلك.

وانظر أي انتقام وتعذيب ينتظر سيّدنا إبراهيم... قال تعالى: ﴿قَالُواْ ٱبۡنُواْ لَهُۥ بُنۡيَٰنٗا فَأَلۡقُوهُ فِي ٱلۡجَحِيمِ ۝٩٧﴾ [الصافات: 97]، استغرق تشييد البنيان واشتعاله أربعة أشهر، وطوال هذه المدة وسيدنا إبراهيم مكبَّل بالحديد، وقد بنوه خارج المدينة حتى لا تحترق.

وكانت المرأة فيهم تقول مثلاً: لإن شفيت الآلهة ابني سأخرج وأُساعد في بناء بنيان حرق إبراهيم.

تخيل كم من حطب سيُجمع ويُقام في هذا البناء؟

أربعة أشهر وإبراهيم مقيد، والخطة جارية مجرى التنفيذ. الآلاف خرجوا ليتشفُّوا في إبراهيم الذي حطَّم آلهتهم. ومن شدة اللهب كانت الطير إذا مرَّت فوق البنيان سقطت من حمم النار.

فلماذا برأيكم لم ينزل المطر ويحمي إبراهيم من الحرق؟ ليرينا الله القادر على كل شيء عظمة قدرة «الوكيل». ويؤخذ سيدنا إبراهيم عليه السلام، فيرى البنيان ويقول في قلبه: «حسبي الله ونعم الوكيل».

وبقي لديهم مشكلة... من يرمي إبراهيم في النار؟ فمن اقترب معه منها لا بد وأن يحترق، فجاءت فكرة المنجنيق... وأخذوا يقيمون التجارب على أجسام وأخشاب وزنها من وزن إبراهيم، فتسقط مرة خارج النار، ومرة بالقرب منهم، ومرة فيها، كل هذا وإبراهيم عليه السلام ينظر.

لماذا كل هذا يا سيدنا إبراهيم؟

لأنه لا بد أن يأخذ بأيدي الناس أحد فيصلحهم ويجمع أمرهم.

ويؤتى بإبراهيم وهو يقول: «حسبي الله ونعم الوكيل» والآن تخيل معي هذا المشهد، سيُشد المنجنيق، فيأتيه سيدنا جبريل ويقول: يا إبراهيم، لك حاجة؟ فيقول: أما لك فلا، وأما لله فحسبي الله ونعم الوكيل، ويقذفونه بالمنجنيق، فيطير إبراهيم ويسقط في البنيان، فتفرح المدينة، وترفع الراية: انتصرنا، انتصرنا.

هم قالوا: حرِّقوه، لكن ماذا قال الله تعالى؟

﴿قُلْنَا يَٰنَارُ كُونِي بَرْدًا وَسَلَٰمًا عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ ﴿٦٩﴾﴾ [الأنبياء: 69]، يا نار، غيِّري الخاصية التي ميزتك بها منذ خلقتك. وهل يصعب هذا على الله؟ حاشا لله.

الذي قال للنار: لا تحرقي، هو الذي قال للسكين: لا تذبحي، هو الذي قال للصحراء: أخرجي ماءَ ونجِّي نوحاً، هو الذي نجَّاك سنين كثيرة وأنت تنساه.

كان ولم يزل وكيلك، لكنك لو توكلت عليه، لأراك بعينك بدائع ومعجزات وكالته.

وانتبه، لو قال الله تعالى: كوني برداً فقط، لمات من شدة البرد، ولو قال: كوني برداً وسلاماً فقط بدون «على إبراهيم» لتغيرت أوصاف النار إلى يوم القيامة، لكنه يريدها برداً وسلاماً على إبراهيم فقط لحقِّ توكله على الله.

ومضى إبراهيم عليه السلام ثلاثة أيام في النار، فماذا حصل؟

حطَّمت النار القيود التي على يديه ولم تلمس ثيابه.

روي أنه سُئل إبراهيم وهو في آخر أيام حياته: ما هي أجمل أيام عمرك؟ قال: الأيام التي قضيتها في النار، قالوا: كيف؟ قال: لم أستشعر بحلاوة القرب من الوكيل كتلك الليالي. «حسبي الله ونعم الوكيل»، كلمة قالها إبراهيم حينما أُلْقِيَ في النار، وقالها موسى عليه السلام حين قال له أصحابه: ﴿إِنَّا لَمُدْرَكُونَ﴾ [الشعراء: 26]، فانفلق البحر نصفين.

وقالها محمد عليه الصلاة والسلام وأصحابه حينما قيل لهم: ﴿إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ﴾ [آل عمران: 173].

كان الرسول ﷺ مرة نائماً في الصحراء، قد علق سيفه على شجرة، فأتى أعرابي وأخذ سيفه وقال له: من يمنعك مني يا محمد؟ ووضع السيف في عنقه الشريفة عليه السلام وقال: أتخافني يا

محمد؟ فيقول عليه الصلاة والسلام: «**لا**»، فيكرر: من يمنعك مني يا محمد؟ فيقول: «**الله**»، فيسقط السيف من يد الرجل من قوة كلمته ﷺ، فيأخذ النبي سيفه ويضعه في عنقه، ويقول: «**وأنت من يمنعك مني؟**»، قال: يا محمد، كن خير أخٍ[1].

عندما كنا صغاراً، إذا استشعرنا بالخوف نلجأ إلى أمنا نختبىء عندها، وحينما أصبحنا شباباً، أصبحنا نلجأ لأبينا؛ لأنه الأقوى والأجدر، ألا يجدر بنا حينما نصبح صحاحاً ناضجين أن نلجأ إلى أقوى الأقوياء؟ «حسبنا الله ونعم الوكيل».

يا أختي، وهل يتعلق الغريق بالغريق؟ أتستعين بمن هو مثلك؟ فكلنا غرقى الى أن ينقذنا الله تبارك وتعالى.

هجرة إبراهيم عليه السلام:

وكانت النتيجة، أن خرج سيدنا إبراهيم من النار، ولم يُصَب بأذى، تخيَّل الكِبْر لدى القوم! ويضطر إبراهيم عليه السلام أن يهاجر دون أن يسلموا لله، وهل الهجرة كلمة صغيرة وانتهى؟

ويهاجر إبراهيم عليه السلام للمرة الثانية، ويتزوج فيها السيدة سارة التي كانت من أجمل نساء الأرض. فقد قال النبيّ ﷺ: «**ما خلق الله أجمل من سارة إلا حواء**»، وتذكر أنه أتى من نسلها نبي آخر يوسف عليه السلام، فتخيل... سارة، يوسف وحواء، مما يعني أن المتدينين هم الأجمل في الأرض وليس العكس، كما يظن بعض

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 3/ 365)، و(الحديث: 3/ 390)، وأخرجه **الحاكم** في «المستدرك» (الحديث: 3/ 39).

الناس بأن المتدين أو المتدينة يجب أن يكونوا قبيحي المنظر. والدليل: سارة وحواء وغيرهما.

ويهاجر إبراهيم عليه السلام إلى الشام، متوكلاً على الله، يريد أن يرفع راية الدين عالياً، يدعو مع سارة عبدة الأصنام لعبادة الله فيهددوه بالقتل للمرة الثانية، وينجو.

وفي المرة الثالثة التي هدّد فيها بالقتل، حاول إقناعهم بالعقل والمنطق فيقول: ﴿وَكَيْفَ أَخَافُ مَآ أَشْرَكْتُمْ وَلَا تَخَافُونَ أَنَّكُمْ أَشْرَكْتُم بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ عَلَيْكُمْ سُلْطَٰنًا﴾ [الأنعام: 81]، إلى قوله: ﴿فَأَىُّ ٱلْفَرِيقَيْنِ أَحَقُّ بِٱلْأَمْنِ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾، من الذي يجب أن يخاف أنا أم أنتم؟ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱلْأَمْنُ﴾ [الأنعام: 82]، يا متوكل أنت في قمة الأمن، والله تعالى يقول: ﴿وَتِلْكَ حُجَّتُنَآ ءَاتَيْنَٰهَآ إِبْرَٰهِيمَ عَلَىٰ قَوْمِهِۦ﴾ [الأنعام: 83]، فسكتوا، فنجا منهم بالعقل والحكمة التي آتاه الله إياها، فيخشى الملك منه ويطرده وينجو من القتل للمرة الثالثة.

ويهاجر في المرة الرابعة إلى مصر، حيث كان هناك ملك جائر عرف أن إبراهيم عليه السلام آتٍ ومعه امرأة من أجمل نساء الأرض، فيأمر حراسه: ائتوني بهذه المرأة فإني أريدها لنفسي، وإن كان هذا الرجل زوجها فاقتلوه، فيأتي الحراس للسيدة سارة ويسألوها عن إبراهيم عليه السلام إن كان زوجها فترد: لا، بل هو أخي - انظر معي إلى المعنى في التوكّل على الله، فالتديّن وحُسن التصرف والذكاء هما أساس التوكل على الله - لا هو أخي. لا تخف الوكيل لن يضيعك.

فيأخذوها للملك، فيَهمّ أن يلمسها، فتقول: اللهمّ إن كنت تعلم أني آمنت بك وبرَسولك وحصنت فرجي إلا على زوجي، فلا تجعل هذا الفاجر يلمسني، فشُلّت يد الملك[1].

يا إخوتي، أترون الوكيل؟ أترون كيف يدافع عنكم في جميع أموركم؟ وانظر بماذا توسلت السيدة سارة، توسلت بعفتها، ولجأت للوكيل.

ولما شلت يد الملك هَمَّ الحراس أن يقتلوها، فتقول: يا رب، فُكَّه لئلا يقتلونني به، فتُفك يد الملك، فيعاود المحاولة للمسها ثانية، فتُشل يد الملك، فيقول لها: فكيني والله لن ألمسك ثانية أبداً. ومدها بمال وحلي وجارية اسمها: هاجر (مصرية)، سيأتي منها سيدنا إسماعيل عليه السلام.

هل ترى سير الأحداث؟ سير الأحداث يؤكد أن الله اسمه: الوكيل.

حكايات تدل على الوكيل ﷻ

سأروي لكم بعض الأحداث التي تدل على عظمة الوكيل...؟

سجن رجل بقضية سرقة وكان بريئاً، فجاء شيخ إلى السجن يقدم المواعظ للمساجين، وقال له: اتكل على الله، فرد عليه: إني تائه منهار وأنا بريء، وقد تركت في البيت زوجتي ومعها طفل رضيع، وليس في البيت غير خمسين قرشاً والطفل مريض، وتقول لي: اتكل على الله؟! فيعاود معه الشيخ من جديد حاول ولو

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3358)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6067).

بقلبك، فيقول له: سأحاول. وتمضي الأيام سنة وسنتين، ويخرج من السجن.

فيقابل الشيخ، ويقول له: يوم دخلت إلى السجن وبكيت؛ لأن زوجتي وابني لا يملكان أكثر من خمسين قرشاً، وكان ابني مريضاً، فتوكلت على الله ودعوته فاستجاب لدعائي فلقد قالت لي زوجتي عند خروجي من السجن: في يوم كذا عند الساعة الثانية مساءً قُرِعَ جرس الباب ـ في ذلك الوقت كنت قد توكلت على الله ودعوته ـ فقالت زوجتي: من؟ قال: أنا الطبيب، أين المريض؟ فدخل وكشف على ابني، وزوجتي لم تفهم شيئاً، أعطاها دواءً، وقال لها: سيكون ابنك معافًى في الصباح.

فسألته: ما الذي جعلك تقصد شقتنا في هذا الوقت المتأخر؟ فقال: أليست هذه شقة 24؟ فقالت: لا إنها شقة 25، أخطأ الطبيب بالشقة!! فسبحانه الوكيل على عباده.

في اليوم الثاني بعثت زوجتي بابني الأكبر ليشتري طعاماً، فوقع منه الطعام على الأرض، فناداه بائع الفول: يا ولد، ماذا حصل؟ فقال له: لقد أمسكوا أبي وهو بريء. فقال لزوجتي: لا ترسلي ابنك من الغدِ فصاعداً، سيأتي الطعام وفوقه خمسون قرشاً كل يوم.

وكان راتب هذا الرجل يومياً خمسون قرشاً.

انظر لكأن الله تعالى يقول له: توكل على الله، وأنا أتكفل لك برزق أولادك.

ألا تذكر قول النبيّ ﷺ عندما كان في غار حراء، وقال له أبو بكر: لو نظروا تحت أقدامهم لوجدونا فقال: «**يا أبا بكر، فما ظنك باثنين الله ثالثهما**»[1].

أعرف رجلاً ضاقت في وجهه الدنيا، حتى قال: لم أعرف مكاناً في الأرض أذهب إليه، وكانت ليلة السابع والعشرين من رمضان، فدخل وطاف بالحرم وقال: حسبي الله ونعم الوكيل، فشده رجل من ثيابه، وقال له: رأيت رؤيا البارحة، فقد رأيت رسول الله ﷺ يقول لي: قل لفلان ستتعب سنة، ثم سيكرمك الله بعدها إن شاء الله. وعندما خرج من الحرم، وجد رجلاً أخذه من يده وقال له: ستذهب مكاناً معيناً وتعيش فيه معززاً مكرماً. فقال هذا الرجل: دخلت الحرم ولم أعرف أين أذهب وأتوجه، وخرجت من الحرم معززاً مكرماً فقط لأنني وكلت أمري إلى الله.

أترون صلاة الوكيل يا إخوتي.

اتكلوا على الله، وكّلوه في جميع أموركم، وصدقوني لن يضيعكم أبداً.

توكل على الله باختيارك ينعم بحياتك:

الله وكيلٌ بك جَبراً، ألك يد في تسيير ضربات قلبك؟ فكيف لو جعلته وكيلاً باختيارك؟ والله، ستنعم بحياتك... وأنا أتحدى أي

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3653)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6119)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3096).

مخلوق أن يقول: وكلته وخذلني، لا بد وأن يكون هناك خللاً، إما أن تكون وكلته بلسانك وأهملت قلبك، وإما أنك لم تتكل عليه أصلاً.

اسمع قول الله ﷻ في هذه الآية التي تبيِّن أنه يريد توكلك: ﴿وَلِلَّهِ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ ٱلْأَمْرُ كُلُّهُۥ فَٱعْبُدْهُ وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ﴾ [هود: 123]، وبما أن كل شيء أمره إلى الله ﷻ فلا مفر من أن تتكل عليه، بل لا بد من أن تتكل عليه. فالله تعالى في كل موضع من كتابه العزيز يذكر فيه لنا قدرته ﷻ، يطلب منا التوكل عليه.

قال تعالى: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْعَزِيزِ ٱلرَّحِيمِ ﴿٢١٧﴾ ٱلَّذِى يَرَىٰكَ حِينَ تَقُومُ ﴿٢١٨﴾ وَتَقَلُّبَكَ فِى ٱلسَّٰجِدِينَ ﴿٢١٩﴾﴾ [الشعراء: 217 ـ 219]، وانظر أيضاً: ﴿وَتَوَكَّلْ عَلَى ٱلْحَىِّ ٱلَّذِى لَا يَمُوتُ﴾ [الفرقان: 58]، أترى الصفات المرفقة للوكيل؟ كلها ليرغبك في الاتكال والتوكل عليه. ﴿رَّبُّ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ فَٱتَّخِذْهُ وَكِيلًا ﴿٩﴾﴾ [المزمل: 9].

توكّلوا على الله يا اخوتي... توكّلوا عليه حق التوكّل، وانظروا كيف سيتغير مجرى حياتكم، لكن لا تنسوا الصبر، فربما أراد الله ﷻ أن يبتليك ليرى توكلك عليه ان كان صادقاً أم لا. فإذا ما نجحت في الاختبار تلقى من الله ما يرضيك لدنياك وآخرتك.

قلدوا سيدنا إبراهيم في توكله...

إخواني في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام خمس مواجهات في منتهى القوة:

1 ـ مع أبيه.

2 ـ مع قوم جبارين (في بابل).

3 ـ مع النمرود.

4 ـ مع عبدة النجوم في الشام.

5 ـ مع ملك مصر (الملك الشديد).

فما كانت نتيجة تلك المواجهات الخمس؟ أربع هجرات:

ـ **الأولى**: من العراق إلى الشام.

ـ **الثانية**: من الشام إلى مصر.

ـ **الثالثة**: من مصر إلى فلسطين.

ـ **الرابعة**: من فلسطين إلى مكة المكرمة.

وفي كل مرة كان يترك فيها أهله وأولاده... أمرٌ لا يُطاق. وخمس مرات يُحْكَم عليه بالموت وينجو، وهو صابر مُضَحٍّ، متوكل.

المرة الأولى: تهديد أبوه له.

المرة الثانية: عندما رُمي في النار.

المرة الثالثة: حين واجه النمرود فطرده.

المرة الرابعة: حينما أراد ملك مصر الاعتداء على زوجته

السيدة سارة عليها السلام فأراد قتله فطُرِد.

المرة الخامسة: تهديد عَبَدَة النجوم له بالقتل.

أيها الشباب لا تقلدوا الغرب في مجونهم، أو تقلدوا فلاناً وفلاناً في الرقص، في الملبس... قلدوا سيدنا إبراهيم فإنه نموذج لخيرة الشباب وتشييد الأمم.

اعملوا للإسلام، اصنعوا الحياة، أصلحوا في الأرض... وتذكروا أن كل هذه التضحيات التي بذلها سيدنا ابراهيم عليه السلام كانت في مواجهة صريحة، فهناك تضحيات قام بها وقدمها سيدنا ابراهيم كانت لغزاً في وقتها وغير مفهومة، لكنها أُدركت فيما بعد. فتعالوا نتعلّم التوكل على الله من سيدنا ابراهيم.

اختبار سيدنا إبراهيم في توكله على الله

تزوج سيدنا إبراهيم عليه السلام من سارة وعاش معها عمراً لكنها لم تنجب له أولاداً، فأهدِيَت هاجر لسارة فقبِلَتها، وأرادت تزويجها لسيدنا إبراهيم حتى تُنجب له.

فتزوجها وأنجب منها إسماعيل عليه السلام بعد خمسة وسبعين عاماً من الهجرة والمعاناة.

وبينما كانت هاجر وسارة تعيشان مع إبراهيم عليه السلام في فلسطين، وإذا بحادثة عجيبة جداً، أمرٌ من الله عز وجل لإبراهيم ـ وكان ابنه إسماعيل عليه السلام رضيعاً ـ بأن يأخذ هاجر وابنها ويخرج بهما إلى مكان بعيد ومعزول في صحراء خالية، ثم يرجع إلى فلسطين، ولا يسأل لماذا؟! هل تتخيل معي هذا الشعور؟! ويرضخ سيدنا

إبراهيم عليه السلام لأمر الله ﷻ؛ لأنه متوكل عليه، فيتركهم في الصحراء.

وهل يقوم بهذا الأمر إلا المتوكل على الله؟

وتنادي هاجر: لمن تتركنا يا إبراهيم؟ أين تتركنا يا إبراهيم؟ فلا يجيب، يركب راحلته ويعود من حيث أتى. فهلّا راجعت نفسك الآن ومواقف اتكالك عليه كيف كان شكلها؟ أكانت صادقة أم ماذا؟

وفي حديث صحيح للبخاري[1]: أنها سألته: يا إبراهيم، آلله أمرك بهذا؟ فأشار برأسه أن نعم، فقالت: إذن لن يضيّعنا الله.

والآن نفذ طعام هاجر وشرابها، وبدأ صراخ سيدنا إسماعيل يعلو ويعلو... إذن بدأ الاختبار، وانظر بماذا انتهى.

فتنزل وتسرع بين الصفا والمروة، وتبحث عن أناس ليساعدوها فلا تجد أحداً، من أجل ذلك نسعى بين الصفا والمروة في الحج لكي نتعلم ما معنى الوكيل.

وانظر لدعاء سيدنا إبراهيم عليه السلام في هذه الأوقات: ﴿رَبَّنَآ إِنِّيٓ أَسۡكَنتُ مِن ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيۡرِ ذِي زَرۡعٍ عِندَ بَيۡتِكَ ٱلۡمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ [إبراهيم: 37]، ماذا؟ لو كنت مكانه هل كنت لتفكر بالصلاة في مثل تلك الظروف؟ تصور أنه يدعو: أن يا رب، إذا عاش ابني ولم يمت في الصحراء اجعله مصلياً ذاكراً! أتستطيع أن تكون هكذا؟ أجب.

أحياناً يفرض الله عليك أمراً دون أن يبين لك الحكم منه ليرى

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3364).

مدى توكلك عليه. ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ وَٱرۡزُقۡهُم مِّنَ ٱلثَّمَرَٰتِ لَعَلَّهُمۡ يَشۡكُرُونَ﴾ [إبراهيم: 37]، ألا تشعر بهذا المعنى؟ أتتخيل معي سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو يدعو بهذا الدعاء ودموعه تسيل منه؟

إخوتي، هو توكّل حق التوكل نعم، لكن لا يستطيع أحد أن ينكر بأن الموقف صعب جداً. كأن إبراهيم عليه السلام يقول: يا رب، لن أخطىء بلساني ولكني قلق.

قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّكَ تَعۡلَمُ مَا نُخۡفِي وَمَا نُعۡلِنُۗ وَمَا يَخۡفَىٰ عَلَى ٱللَّهِ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلۡأَرۡضِ وَلَا فِي ٱلسَّمَآءِ ٣٨﴾ [إبراهيم: 38]، وبعد ذلك يعتذر ويقول: ﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى ٱلۡكِبَرِ إِسۡمَٰعِيلَ وَإِسۡحَٰقَۚ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ٣٩﴾ [إبراهيم: 39]، طبعاً؛ لأنه متوكل على الله.

وما درجة اختباراتنا أمام اختبار سيدنا ابراهيم؟ لا شيء، وعلى الرغم من ذلك، من منَّا يتوكل على الله حق الاتكال؟

جزاء التوكل على الله

ويستجيب الله سبحانه وتعالى لدعاء سيدنا إبراهيم، فيرسل سيدنا جبريل، ثم يضرب بجناحيه الأرض قرب رِجْلِ سيدنا إسماعيل فتنفجر الماء - ماء زمزم - التي ستبقى إلى يوم القيامة. وكانت السيدة هاجر تخشى أن تجري هذه الماء فتذهب سدى، فقالت لها: زَم، زَم، أي: زُمّي واجتمعي، فتجتمع هذه الماء.

فكلما شربت من زمزم، تذكَّر أنها جاءت من عند الوكيل سبحانه وتعالى.

وكذلك هناك قصة تدل على التوكل حصلت لسيدنا إبراهيم والسيدة هاجر، عندما غادروا فلسطين إلى مكة حيث انهار سد مأرب، فتفرقت القبائل وقتها لتبحث عن ماء، وكان فيهم قبيلة (جُرهم) وهي قبيلة عظيمة، فعندما حصل ما حصل ودعا إبراهيم ربه، مرت هذه القبيلة قرب مكان السيّدة هاجر فوجدت الطير تحوم فوق المكان، فعرفت أن هناك ماءً فنزلت، وكانت هذه الحادثة تحقيقاً لدعوة سيدنا إبراهيم: ﴿فَٱجۡعَلۡ أَفۡـِٔدَةٗ مِّنَ ٱلنَّاسِ تَهۡوِيٓ إِلَيۡهِمۡ﴾.

فطلبت القبيلة من السيدة هاجر أن تجاورها وتستقي من مائها، فوافقت: بشرطين:

1 ـ أن تأجروني على الماء.

2 ـ وأن تعلِّموا ولدي إسماعيل.

أتعرف ماذا حصل بعد ذلك؟

نشأ سيدنا إسماعيل عليه السلام في هذه القبيلة وتعلّم اللغة العربية الفصحى؛ لأن هذه القبيلة كانت من أعرق القبائل العربية، وتزوج منهم؛ لأنه سيأتي من نسله خاتم الأنبياء وسيد الخلق محمد ﷺ.

من أجل هذا كان لا بد وأن يتربى سيدنا إسماعيل في هذه الأرض ويتزوج من هذه القبيلة بالذات.

انظر التوكل على الله، سيدنا ابراهيم الذي توكل على الله في أمرٍ جَهِلَهُ، وكان الجواب عليه أو الحكمة فيه، بعد آلاف السنين.

فلماذا انهار سد مأرب؟ من أجل أمر سيتبين بعد آلاف السنين.

أترى معي كيف يدبر الملك الكون؟ أخفى الحكمة حتى عن إبراهيم ليضرب لنا مثلاً في التوكل.

ومن الممكن أن يكون إبراهيم عليه السلام والسيدة هاجر وإسماعيل عليه السلام ماتوا ولم يعرفوا الحكمة.

أعرف شاباً لديه ستة إخوة، يعمل مهندساً معمارياً، ومن المفروض أن يخدم في الجيش، والمهندس إذا خدم في الجيش يخدم أحياناً ثلاث سنين، وقد كان يصرف على إخوته الستة، فأراد أن يخفِّض الخدمة من ثلاث سنوات إلى سنة واحدة، فنصحوه أن يذهب لعمه ويكلمه في هذا الموضوع ويتوسط له، ففكَّر ملياً، يذهب أو لا يذهب؟! وكانت العائلة كلها تنصحه بالذهاب إليه، فقرر أن يعتمد على الوكيل الذي لا يضيع معه أحد.

فذهب لإتمام الكشف الطبي، سأله الطبيب: أتشتكي من شيء؟ قال: لا. قال: هل لديك واسطة؟ قال: لا. فكتب له: ضابط ثلاث سنوات.

وعندما أراد الخروج، ناداه الطبيب: لحظة من فضلك، فتبين له اشتباه بتقوّص العمود الفقري، فطلب منه صور أشعة، قام بها

وإذ بتشخيص الطبيب يأتي صائباً، يرفع للّجنة العليا، فيعطى إعفاءً من الخدمة وليس فقط تخفيض لسنة واحدة. أجل، إنه الوكيل يا إخوتي.

وأعرف قصة أخرى تدل على التوكل والوكيل.

رجل يعمل في مكان يقام فيه حفلات ويشرب فيها الخمر، فصادف يوماً أن مرّ الشيخ الشعراوي بالقرب من ذلك المكان، فخطر ببال الرجل أن يذهب ليسأله عن حكم الشرع في طبيعة عمله، وفعلًا كلّم الشيخ وسأله: هل عملي هذا حرام؟ فقال له: طبعاً حرام، فقال: وماذا أفعل؟ فرد الشيخ: اتركه. فقال: أعمل وأكسب لعيالي وبعد ذلك أستقيل، فقال له الشيخ الشعراوي : يا بني، إن الله يقول: ﴿وَمَن يَتَّقِ ٱللَّهَ يَجْعَل لَّهُۥ مَخْرَجًا﴾ [الطلاق: 2]، وقد شعر هذا الرجل ساعة رؤيته للشيخ أن هناك رسالة يريد الله أن يبعثها إليه.

فتوجّه إلى مكتبه وبدأ بكتابة استقالته، وإذ بجرس الهاتف يرن، فيكلمه المدير ويقول له: أريدك في أمر، إن مدير فرع الشركة في مكة استقال ونريد تعيينك مكانه فماذا تقول؟ الوكيل يا إخوتي لن يضيع أبداً من اتكل عليه.

ويروى أن أعرابياً سمع صحابياً يتلو: ﴿وَفِي ٱلسَّمَآءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ ﴿٢٢﴾﴾ [الذاريات: 22]، فتعجّب قائلًا: رزقي في السماء وأخشى على رزقي في الأرض؟ ونحر الناقة ووزعها على الفقراء والمحتاجين. وذكر للصحابي أن الله أبدله بالناقة بتسع جمال، فقال له الصحابي: أتدري ما نزل بعد الآية التي ذكرتها لك آنفاً؟ قال:

ماذا؟ قال: ﴿فَوَرَبِّ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ إِنَّهُۥ لَحَقٌّ مِّثْلَ مَآ أَنَّكُمْ تَنطِقُونَ﴿٢٣﴾﴾ [الذاريات: 23]، فتعجّب الأعرابي تعجب المتوكل على الله، وسأل: وما الذي فعلتموه حتى يقسم الله بالسماء والأرض، هل كنتم تشكّون بعظمة الله؟

ذبح إسماعيل عليه السلام

الاختبار الثاني لسيدنا إبراهيم عليه السلام كان يوم طلب الله منه أن يذبح ابنه، لماذا؟ هو أيضاً أمرٌ مجهول، وكانت الحكمة غائبة عن سيدنا إبراهيم، فقد كان يتوكل على الله، ويطيع أوامره دون أن يسأل.

يا إخوتي، الوكيل لا يُسأل أبداً. قال تعالى: ﴿وَقَالَ إِنِّى ذَاهِبٌ إِلَىٰ رَبِّى سَيَهْدِينِ﴿٩٩﴾ رَبِّ هَبْ لِى مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴿١٠٠﴾ فَبَشَّرْنَٰهُ بِغُلَٰمٍ حَلِيمٍ﴿١٠١﴾﴾ [الصافات: 99 ـ 101]، بعد خمسة وسبعون عاماً يرزق بمولود، وليس أي مولود؛ بل مولود حليم. ﴿فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ ٱلسَّعْىَ قَالَ يَٰبُنَىَّ إِنِّىٓ أَرَىٰ فِى ٱلْمَنَامِ أَنِّىٓ أَذْبَحُكَ﴾ [الصافات: 102]، لن يرميه من أعلى الجبل، ولن يبعثه في معركة حربية يقاتل حتى يموت؛ لا بل سيذبحه بيديه... الله ما أصعب هذا الاختبار. ولكن ماذا تعتقد سيكون ردّ الولد؟! ﴿قَالَ يَٰٓأَبَتِ ٱفْعَلْ مَا تُؤْمَرُ ۖ سَتَجِدُنِىٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾، ما هذه العائلة؟ أترى معنى التوكل الحقيقي في هذا النموذج؟

ويأتي دور إبليس اللعين، فيوسوس لإسماعيل بأن يرفض هذا الأمر، لماذا؟ لأنه يعلم أن هذا الأمر سيصبح عبرة إلى يوم الدين، فيأخذ إسماعيل سبع حصيات من الأرض ويرميه بها، وهذا كان مكان الرجم الذي نرمي فيه الجمرات عندما نؤدي فريضة الحج.

فيحاول مع السيّدة هاجر ما حاوله مع إسماعيل، فيدخل لها عن طريق العاطفة ويحاول إقناعها بالهرب وابنها، فتأخذ سبع حصيات من الأرض وترجمه بها.

ثم يحاول مع سيدنا إبراهيم ويقول له: هذه آخر فرصة لك أن يكون لك ولد... لا تفعل ذلك، فيأخذ سيدنا إبراهيم سبع حصيات ويرميه بها، وهي الرمية الكبرى.

ويأتي سيدنا إبراهيم بإسماعيل ويضعه على المنحر، وتتوارى السيدة هاجر حتى لا ترى ما ترى.

ويطلب إسماعيل عليه السلام أن يضعه سيدنا إبراهيم على جبينه؛ لأنه لا يتحمل أن ينظر إلى أبيه وهو يذبحه، يريد في المقابل أن يهون على أبيه، فيفعل.

ويحمل السكين، ويبدأ إبراهيم عليه السلام بالذبح، فلا تذبح السكين، فيسنها ويعاود من جديد، فلا تذبح، فيسنها ويعاود من جديد فلا تذبح. آه، إنه الوكيل الذي قال للنار: كوني برداً وسلاماً، الوكيل ذاته يقول الآن للسكين: لا تذبحي، توكَّلوا على الله، توكلوا عليه في الأمور الصغيرة والكبيرة.

واعلموا أن آية الذبح في القرآن لم تكن آية تعسفية، بل كانت آية أراد الله من ورائها تعليمنا معنى التوكل. ﴿فَلَمَّآ أَسۡلَمَا وَتَلَّهُۥ لِلۡجَبِينِ ١٠٣﴾ [الصافات: 103]، أوَ لم يكونا مسلمين من قبل؟ كانا ولكن هذا هو الإسلام الذي يريده الله منا ﴿وَفَدَيۡنَٰهُ بِذِبۡحٍ عَظِيمٖ ١٠٧﴾ [الصافات: 107]؛ لأنه نجح في الاختبار إلى آخره. وانظر ماذا يعطي الوكيل بعد نجاحك في الاختبار ﴿سَلَٰمٌ عَلَىٰٓ إِبۡرَٰهِيمَ ١٠٩ كَذَٰلِكَ نَجۡزِي

ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١١٠﴾ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١١١﴾ وَبَشَّرْنَٰهُ بِإِسْحَٰقَ نَبِيًّا مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ ﴿١١٢﴾﴾ [الصافات: 109 ـ 112].

ما أجمل البشرى بعد التضحية يا أختي.

وماذا لإبراهيم أيضاً؟

يشرِّفه الله وولده (إسماعيل) عليهما السلام ببناء الكعبة، وكل الناس ستحج إليها بناءً على كلامه. ﴿وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا﴾ [الحج: 27]، فيقول: يا رب، ومن يسمعني وأنا في الصحراء، فيقول الله تبارك وتعالى: «عليك الأذان، وعلينا البلاغ»، فيؤذن في الصحراء: أيها الناس حجوا لله. فنأتي نحن بعد آلاف السنين ونقول: لبيك اللهمّ لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك.

ما ينبغي ذكره، أن النبيّ ﷺ، حين عرج إلى السمٰوات، وجد إبراهيم عليه السلام يسند ظهره إلى البيت المعمور في السماء السابعة، والبيت المعمور هو فوق الكعبة مباشرة، فسلم عليه النبيّ ﷺ، فقال إبراهيم عليه السلام: أقرىء أمتك مني السلام، وقل لهم: إن الجنة طيبة التربة، عذبة الماء، وإن غراسها: سبحان الله، والحمد لله، ولا إلٰه إلا الله، والله أكبر[1].

أهلاً، وصلتنا رسالتك يا جدنا ابراهيم، سنفعل، سنطيع، سنتوكل. وتذكر أن النبيّ ﷺ سمّى ابنه على اسمه (ابراهيم)، وناداه مرة أحدهم قائلاً: يا خير البرية، فرد ﷺ: «لا، بل خير البرية أبي إبراهيم عليه السلام»، صلى الله على محمد وصلى الله على ابراهيم.

---

(1) أخرجه الطبراني في «المعجم الكبير» (الحديث: 10/ 214).

الثبات الأخلاقي:

هذه المشكلة موجودة في مجتمعنا العربي بشكل كبير وهي كما يقول الرسول ﷺ: **«يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً»**[1].

هناك أمثلة كثيرة من هذا التذبذب أن الرجل أو المرء منا يصبح صادقاً ويمسي كاذباً، ويصبح مخلصاً ويمسي خائناً لزوجته أو أخيه، ويصبح ويمسي وهو لا يعرف ما نهاية هذه الأخلاق.

الحمد لله أننا لم نصل إلى حد أن يصبح المرء فيه مؤمناً ويمسي كافراً وإلا كان على هذه الدنيا الخراب السريع والوصول إلى الهاوية.

في مجتمعنا العربي نرى أن التنازلات بالنسبة لأي شخص أصبحت سهلة: فمن السهل أن يخون الرجل صديقه أو زوجته، وأصبح من السهل أن يتقبَّل الرشاوي بل أصبح من الأمور السائدة، ومن السهل جداً أن يسرق ويكذب إلى أن يصل إلى حد القتل كما نرى في هذه الأيام.

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2195)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 391).

وعندما تسألهم عن السبب الذي أوصل هذا المجتمع إلى هذا الحد من الانهيار الأخلاقي يعودون بالسبب إلى الفقر، البطالة، العنوسة (أي تأخر الزواج بالنسبة للشباب والفتيات) وحتى عدم الزواج بسبب الأوضاع الاقتصادية وغيرها.

أما الارتفاع الكبير في نسبة الطلاق يعود سببه إلى التدنّي الأخلاقي، وهذا التدنّي الأخلاقي أيضاً يؤدي بالشباب إلى السرقة بحجة البطالة فهو يريد كسب المال، دون النظر إلى الوسيلة هل هي حرام أم حلال.

يقولون إن هناك ازدياد في نسبة ارتداء الحجاب بين الفتيات، وما الفائدة طالما أن الأخلاق تسوء أكثر فأكثر، هذا وحده لا يكفي، يقول بعض الشباب: إن لم أحصل على عمل بسرعة وراتب بكذا وكذا فسوف أضطر إلى السرقة، وإلا سأصاب باليأس والإحباط وسأقتل نفسي.

انظر إلى: «**يصبح الرجل مؤمناً ويمسي كافراً**»، يصبح الرجل أميناً ويمسي خائناً، يصبح الرجل مطيعاً لوالديه ويمسي عاصياً ويقتلهم آخر الليل لسببٍ ما في نفسه.

أين دعاة هذه الأمة؟ لماذا يشاهدون ما يحدث دون مبالاة يقولون لك نحن نصبر، لا هذا صبر سلبي، ونحن لسنا بحاجة اليه، بل نحن بحاجة الى صبر ايجابي.

كل الأنبياء كان صبرهم إيجابي

أجل كل نبي كانت دعوته لله باللسان ولكن أيضاً بالعمل

والجد، والمثابرة والتحدي والإصرار، والصبر الإيجابي أي: الطويل النفس، صبر بطريقة عقل وتخطيط.

لماذا لا نتفق الآن ويقول كل شخص لنفسه لو أن كل الناس سرقت أنا لن أفعل ذلك، ولو كل الناس خانت أنا لن أفعل ذلك، الإصرار والتحدي والثبات الأخلاقي مع الصبر الإيجابي هذا هو أمان هذه الأمة إلى النجاة.

لو أجمع الناس عامة على الكفر سأظل مسلماً مهما حدث، وهذا هو الحق، وأمل هذه الأمة لتبقى وتستمر وتقوى، لتقف أمام كل محاولات النيل منها بالسوء والإساءة إلى الدين الإسلامي.

قصتنا مع النبي يوسف قصة انهيارات أخلاقية أكثر من أن تكون معجزة نبي.

عندما تقرأ هذه السورة أي: سورة «يوسف» تشعر أنها تركز على الإنسان الذي صبر وثبت في الأخلاق، هي قصة مِحَنٍ متتالية وثبات أخلاق في مجتمع مليء بالانهيارات الأخلاقية، وفي قصتة توكل على الله سبحانه وتعالى.

وهذه القصة تركز على النبي الإنسان، وتركز على الصمود والتحمل والمأساة التي عاشها هذا النبي الذي هو مثال لكل شاب ولكل مؤمن.

يوسف مع اهله وإخوته:

لقد بدأ سيدنا يوسف حياته برؤية رآها وهو صغير فقال لأبيه:

﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَٰٓأَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَٰجِدِينَ ۝٤﴾ [يوسف: 4]، فما كان من النبي يعقوب عليه السلام والده إلا أن قال له: لا تقص رؤياك على إخوتك. ﴿لَّقَدْ كَانَ فِي يُوسُفَ وَإِخْوَتِهِۦٓ ءَايَٰتٌ لِّلسَّآئِلِينَ ۝٧ إِذْ قَالُوا۟ لَيُوسُفُ وَأَخُوهُ أَحَبُّ إِلَىٰٓ أَبِينَا مِنَّا وَنَحْنُ عُصْبَةٌ إِنَّ أَبَانَا لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ۝٨﴾ [يوسف: 7، 8]، لقد نفخ إبليس الحقد والحسد بين يوسف وإخوته، فيوسف وأخوه الصغير فقط هما من نفس الأب والأم أما الآخرون فهم أشقاء، وكان سيدنا يعقوب يحبه كثيراً فبدأت الغيرة والحسد والبغض يدبّ في قلوبهم، هذه إحدى صور الانهيار الأخلاقي.

قال تعالى: ﴿ٱقْتُلُوا۟ يُوسُفَ أَوِ ٱطْرَحُوهُ أَرْضًا يَخْلُ لَكُمْ وَجْهُ أَبِيكُمْ وَتَكُونُوا۟ مِنۢ بَعْدِهِۦ قَوْمًا صَٰلِحِينَ ۝٩﴾ [يوسف: 9].

لقد عاشوا في ضلال مدة عشرين عاماً من جرّاء كلمة قالوها لوالدهم. انظر واحذر كل الحذر وأنت تتعامل مع والديك، فأيّة إساءة إليهم ستؤدي إلى غضبهم عليك فتندم بعدها كل الندم.

انظر الى الانهيار الأخلاقي هنا كيف وصل بهم الى حدّ القتل، لماذا يضربنا الله تعالى بقصّة سيدنا يوسف؟ لتكون عبرة لنا ولكم ولكل أمة في الحياة، وتصلح وتأخذ بأيدي الناس الى العمل الصالح.

قال تعالى: ﴿قَالَ قَآئِلٌ مِّنْهُمْ لَا تَقْتُلُوا۟ يُوسُفَ وَأَلْقُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ﴾ [يوسف: 10]، الجب يعني: البئر وليس بئراً عادياً؛ بل هو بئر

كبير وعميق جداً ومليء بالحيّات والعقارب ومظلم، وهذا كله من عمل الشيطان، ألقوه في بئر وفي صحراء بعيدة حتى لا يراه أحد، أي: لا تقتلوه بأيديكم وألقوه في مكان بعيد جداً حتى لا يعرف كيف يعود إلى والده، ثم يلتقطه بعض السيارة. قال تعالى: ﴿يَلْتَقِطْهُ بَعْضُ ٱلسَّيَّارَةِ إِن كُنتُمْ فَٰعِلِينَ ﴿١٠﴾ قَالُوا۟ يَٰٓأَبَانَا مَا لَكَ لَا تَأْمَنَّا عَلَىٰ يُوسُفَ وَإِنَّا لَهُۥ لَنَٰصِحُونَ ﴿١١﴾﴾ [يوسف: 10، 11].

إذن... كانت مجرد فكرة فأصبحت أداة تنفيذ، هذا هو الانهيار الأخلاقي، انظر إلى ما يجري حولك من التفكك والمصائب التي تحدث في مجتمعنا، ولو أن كل منا قال: إنني لن أفعل شيئاً يغضب الله، وثبت على موقفه لكان خيراً له، لو ثبت فقط مئة أو مائتان أو ألف شخص على أخلاقهم الحسنة سيكون هناك خير في هذه الدنيا، وإلا سيعم الفساد والانحلال.

قال تعالى: ﴿أَرْسِلْهُ مَعَنَا غَدًا يَرْتَعْ وَيَلْعَبْ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ ﴿١٢﴾ قَالَ إِنِّى لَيَحْزُنُنِىٓ أَن تَذْهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَخَافُ أَن يَأْكُلَهُ ٱلذِّئْبُ وَأَنتُمْ عَنْهُ غَٰفِلُونَ ﴿١٣﴾﴾ [يوسف: 12، 13]، لماذا قال سيدنا يعقوب لهم هذا الكلام؟ لأنه عندما أخبروه عن المنطقة التي سيذهبون إليها عرف أنها منطقة صحراوية وتعيش الذئاب فيها.

وأخذوا يوسف إلى تلك المنطقة وكان عمره عشر سنوات، وبدؤوا بالتوغل في الصحراء، حتى لا يعرف العودة ثانية إليهم ولا يخرج منها أبداً، ثم وصلوا إلى ذلك البئر الكبير العميق جداً وكما قلنا فهو مليء بالحيّات، وجردوه من ملابسه كلها وتركوه عارياً

بدون أي شيء، وربطوه بحبل وأخذوا ينزلونه في البئر، إلا أن الحبل لم يصل إلى القعر فحملوه، ثم رموه وهذا يدل على أنه كان صغيراً في السن.

تخيّلوا هذا الانهيار الأخلاقي: يأخذونه إلى الصحراء ويضعونه في مكان بعيد جداً، ويرمونه في بئر مظلم مليء بالعقارب وينزعون عنه ملابسه دون أن يتركوا له شيئاً حتى يستتر به.

تركوه في البئر وهو يناديهم فيضحكون ويسمع ضَحِكَهُم الذي بدأ يختفي شيئاً فشيئاً كلما ابتعدوا عنه.

يقول أحد العلماء في الأثر إن سيدنا يوسف عليه السلام قال لهم: «يا إخوتي، إذا اجتمعتم فاذكروا وحشتي وإذا أكلتم فاذكروا جوعتي، وإذا شربتم فاذكروا ظمأتي، وإذا رأيتم غريباً فاذكروا غربتي».

قال لهم هذا لعلهم يُشفقون عليه ويرجعونه معهم.

والآن أصبح في قعر البئر وبقي فيه لمدة ثلاثة أيام وهو في ظلمة ووحشة وخوف شديد، لكنه وسط ذلك كله تحمل وصبر، ولم يفكر بالانتقام من إخوته رغم ما ألحقوه به من الظلم الذي عانى منه طيلة ثلاثين عاماً.

قال تعالى: ﴿وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ [يوسف: 15]، هنا بدأ يدعو الله ﷻ وهو في البئر الدعاء الذي علمه إياه والده النبي يعقوب منذ صغره، وبدأ يناجي ربه: «يا مؤنس كل فريد، يا مؤنس كل وحيد، يا صاحب كل غريب، يا ملجأ كل خائف، يا منتهى كل شكوى».

ماذا لو كنت مكان يوسف لثلاثة أيام في هذا البئر، وستفقد أهلك لمدة أربعين عاماً، حتى أنك لا تعرف بأنك سوف تعود إليهم يوماً، وإنك ستباع كالعبيد، وقد كنت ابن نبي معزز ومكرم وأنت الكريم ابن الكريم ابن الكريم، وكل ذلك بسبب ما فعله بك إخوتك!!! هل من الممكن أن تتخيّل كيف سيكون مستقبلك.

صبر سيدنا يعقوب:

وفي الجهة المقابلة تخيل الثبات الأخلاقي عند النبي يعقوب عليه السلام عندما قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ﴾ [يوسف: 18].

يا إخوة، يا أخوات، انظروا إلى هذه الأخلاق، إن قصة يوسف هي مَثل لنا وقدوة على الصبر والتحمل فتعلموا منه فهو أسوة حسنة.

يقول العلماء: إن الحزين إذا قرأ سورة «يوسف» سرّيَ عنه وعن حزنه، فلذلك جاءت كلمة «صبر جميل» مرتين في الآية، أي: صبر إيجابي.

يقول العلماء: إن فقدان أحد الأبناء من أكبر المصائب التي تقع للوالدين، وهذا لا يعرفه إلا الأمهات وهي أفظع المصائب، ولكن... انظر إلى سيدنا يعقوب ماذا قال: ﴿فَصَبْرٌ جَمِيلٌ وَٱللَّهُ ٱلْمُسْتَعَانُ عَلَىٰ مَا تَصِفُونَ﴾ [يوسف: 18].

لو كنت مكان يوسف ستقول: سأنتقم منهم وأفعل بهم كما فعلوا وأكثر، وأشفي غليلي أو أنتقم من المجتمع وأسرق كما سرقوني وأخون كما خانوني، وهنا يضيع مستقبلك وستذهب إلى السجن وتضيع الأخلاق وينهار المجتمع.

أصر يوسف على إصلاح إخوته بطريقة صحيحة وسليمة، وهي: الصبر، هم أيضاً بشر ويمكن أن يخطئوا وسيصلحهم بطريقة راقية تناسب الإسلام.

تتابع الأحداث...

ثم مر بعض السيارة إلى ذلك البئر ليحصلوا على القليل من الماء فوجدوه وأخذوه معهم إلى المدينة وباعوه في السوق بثمن بخس أي قليل، ثم يشتريه العزيز ويبقى عنده إلى أن يصبح شاباً، ويُكاد له فيدخل إلى السجن، ثم يخرجه الله بإذنٍ منه ليفسر رؤيا الملك.

فعندما ذهب ليفسر رؤيا الملك عرفوا أنه رجل حكيم، اقترح عليهم أن يزرعوا ويحصدوا ويخزنوا الطعام إلى أيام الجفاف والجوع، عند ذلك وضعه الملك وزيراً للاقتصاد في مصر.

يوم اللقاء

وكان إخوته ووالده يعيشون في فلسطين، وبدأت كل تلك الدول من حول مصر تعاني من الجوع، فيذهبون إلى أخيهم في مصر، انظر إلى الذي ظُلم من إخوته وصبر على ظلمهم كيف أعزه الله، لأن الله ﷻ يقول: ﴿إِنَّ ٱلْعَـٰقِبَةَ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [هود: 49]، ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٠﴾﴾ [يوسف: 90].

قال تعالى: ﴿وَجَآءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا۟ عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُۥ

مُنكِرُونَ ﴿٥٨﴾﴾ [يوسف: 58]، هم لم يعرفونه؛ لأنه عندما تركوه كان صبياً صغيراً عمره عشر سنوات، وها هم يقفون مع حشد كبير من الناس ويمدون أيديهم لأخيهم ليعطيهم الطعام، انظر إلى الثبات الأخلاقي.

يا شباب، كلما كان الاختبار شديداً وصعباً وقاسياً يكون الصبر أقوى وأشد والثبات أقوى والأخلاق أفضل.

لو أن كافة الناس سرقوا لا تسرق، ولو أنهم غشوا في الامتحانات لا تغش؛ لأن الدنيا دار اختبار.

يا شباب، اتقوا الله واعلموا أن الله موجود، لو كل الناس حادوا عن شريعة الإسلام فاثبت أنت.

خطة يوسف:

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ قَالَ ائْتُونِي بِأَخٍ لَّكُم مِّنْ أَبِيكُمْ﴾ [يوسف: 59]، كانت خطته إذا أعطاهم من الطعام فلن يعودوا إليه مرة أخرى، لذلك تعمد أن لا يعطي إخوته شيئاً من الطعام، فهم عندما حضروا إليه جلبوا معهم بعض الهدايا والبضائع مثل السجاد والمنسوجات أي: بضاعة مقابل الطعام الذي سيحصلون عليه وكانت هذه من ضمن الخطط والإصلاح التي أسسها سيدنا يوسف.

وكان من عادة يوسف أنه كلما أتى إليه وفد من الوفود يحدثه ويسأله من أين أتى، أي: من أي بلد ومن أي عائلة وكم عددهم، فعندما جاء دور إخوته وتحدث معهم عرف منهم أن لهم أخ بقي مع والده فعندما أحضروا بضاعتهم قال لهم يوسف: ائتوني بأخ لكم من أبيكم.

وقال لهم: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾، فبدأ يوسف بإغرائهم بأن ائتوني بأخيكم وأنا أعطيكم طعام زيادة، وقالوا له: إننا لا نستطيع أن نحضر لك أخانا؛ لأنهم يعلمون أن والدهم لن يعطيهم إياه جزاء ما فعلوا بأخيهم يوسف في الماضي.

فأجابهم: ﴿فَإِن لَّمْ تَأْتُونِي بِهِۦ فَلَا كَيْلَ لَكُمْ عِندِى وَلَا تَقْرَبُونِ ﴿٦٠﴾﴾ [يوسف: 60]. أي: إن لم تحضروه فلا طعام لكم عندي بعد الآن. ﴿قَالُوا۟ سَنُرَٰوِدُ عَنْهُ أَبَاهُ وَإِنَّا لَفَٰعِلُونَ ﴿٦١﴾﴾ [يوسف: 61]، أي: سنحاول إحضاره بطريقة ما، ﴿وَقَالَ لِفِتْيَٰنِهِ ٱجْعَلُوا۟ بِضَٰعَتَهُمْ فِى رِحَالِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَعْرِفُونَهَآ إِذَا ٱنقَلَبُوٓا۟ إِلَىٰٓ أَهْلِهِمْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٦٢﴾﴾ [يوسف: 62].

أمر فتيانه ـ أي: مساعديه ـ أن يعيدوا إليهم البضاعة التي أحضروها معهم ليبادلوا بها الطعام، وعندما يعودون سيجدون بضاعتهم رُدت إليهم حتى يعودوا إليه مرة أخرى.

فلما عادوا إلى والدهم يعقوب قالوا له: انظر إن بضاعتنا ردت إلينا، وانظر إلى هذا الوزير الكريم والطيب فتشجع يعقوب وأرسل معهم أخاهم.

قال تعالى: ﴿وَلَمَّا دَخَلُوا۟ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَخَاهُ قَالَ إِنِّىٓ أَنَا۠ أَخُوكَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٩﴾﴾ [يوسف: 69]، شغل يوسف إخوته بالبضاعة وأخذ أخوه إلى مكان جانبي، وقال له: لا تخف أنا أخوك يوسف وأريد منك أن تساعدني على تنفيذ خطتي، لكي أُعلم إخوتي درساً في الأخلاق.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا جَهَّزَهُم بِجَهَازِهِمْ جَعَلَ ٱلسِّقَايَةَ فِي رَحْلِ أَخِيهِ﴾ [يوسف: 70]، أي: بعد أن جهزهم بالطعام وضع كوب من الذهب ـ وهو كان للملك ـ في رحالهم دون أن يشعروا، ﴿ثُمَّ أَذَّنَ مُؤَذِّنٌ أَيَّتُهَا ٱلْعِيرُ إِنَّكُمْ لَسَٰرِقُونَ﴾، فأذن مؤذن أنهم سرقوا، أي: لقد تم سرقة كوب الملك ومن يأتي به له حِمْلُ بعير وأنا به زعيم، ولكنهم قالوا: لقد علمت أننا لم نأتِ لنفسد في الأرض وما كنا سارقين، ﴿قَالُوا۟ فَمَا جَزَٰٓؤُهُۥٓ إِن كُنتُمْ كَٰذِبِينَ ﴿٧٤﴾ قَالُوا۟ جَزَٰٓؤُهُۥ مَن وُجِدَ فِى رَحْلِهِۦ فَهُوَ جَزَٰٓؤُهُۥ كَذَٰلِكَ نَجْزِى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٧٥﴾﴾، أي: قالوا له: إن وجدت الكوب عند أي أحد منا اتخذه عبداً أو ضعه في السجن. ﴿فَبَدَأَ بِأَوْعِيَتِهِمْ قَبْلَ وِعَآءِ أَخِيهِ ثُمَّ ٱسْتَخْرَجَهَا مِن وِعَآءِ أَخِيهِ﴾، فلما فوجئوا بذلك ردوا عليه وقالوا: ﴿إِن يَسْرِقْ فَقَدْ سَرَقَ أَخٌ لَّهُۥ مِن قَبْلُ﴾ فَأَسَرَّهَا يُوسُفُ فِى نَفْسِهِۦ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ﴾ [يوسف: 77]، انظر إلى الانهيار الأخلاقي، هو يستطيع أن يضعهم في السجن بعدما ظلموه كل ذلك الظلم، فقالوا له: إن له أباً وهو شيخ كبير فلتأخذ مكانه أي واحدٍ منا، فنحن لا نستطيع أن نعود إلى أبانا من دونه، انظر إلى نتيجة الصبر، انظر إليهم بدؤوا يستعطفونه حتى لا يأخذ أخاهم، انظر إلى الثبات: تحولوا من إخوة أشرار إلى إخوة لطفاء دون أي إهانة أو ضرب، فقال لهم: معاذ الله أن نأخذ من لم نجد متاعنا عنده. ﴿فَلَمَّا ٱسْتَيْـَٔسُوا۟ مِنْهُ خَلَصُوا۟ نَجِيًّا﴾، فلما يئسوا منه ولم يجدوا حلاً آخر، قال كبيرهم: ألم تعلموا أن أباكم أخذ منكم ميثاقاً في الله، ومن قبل فرطتم في يوسف فإني لن أبرح هذه الأرض ـ أي: مصر ـ حتى يأمر أبي أو يحكم الله.

العودة إلى فلسطين:

ثم عادوا إلى أبيهم يعقوب في فلسطين وأخبروه بما حدث وقدّموا له الدليل؛ لأنه لم يصدقهم وبدؤوا يسافرون من فلسطين إلى مصر، وبالعكس دون جدوى ثم قالوا له: ﴿وَسْئَلِ ٱلْقَرْيَةَ ٱلَّتِى كُنَّا فِيهَا وَٱلْعِيرَ ٱلَّتِىٓ أَقْبَلْنَا فِيهَا ۖ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٨٢﴾ قَالَ بَلْ سَوَّلَتْ لَكُمْ أَنفُسُكُمْ أَمْرًا ۖ فَصَبْرٌ جَمِيلٌ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِيَنِى بِهِمْ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٨٣﴾﴾ [يوسف: 82، 83].

انظر الى الوالد كيف يستعين بالصبر بعد كل مصيبة؛ لأنه مؤمن بالله ويعلم أنه لن يُضيِّع صبره.

قال تعالى: ﴿وَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰٓأَسَفَىٰ عَلَىٰ يُوسُفَ وَٱبْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ ٱلْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ ﴿٨٤﴾﴾ [يوسف: 84]، قالوا له: ألا زلت تتذكر يوسف وتذكره وأنت في هذا الحزن، قال لهم: بل أشكو بثي وحزني إلى الله، وهنا نتذكر فلسطين، وا أسفاه على فلسطين، أشكو بثك وحزنك إلى الله، كان عمر بن الخطاب ﷺ عندما يقرأ هذه الآية يبدأ بالبكاء.

قال تعالى: ﴿يَٰبَنِىَّ ٱذْهَبُوا۟ فَتَحَسَّسُوا۟ مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلَا تَاْيْـَٔسُوا۟ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يَاْيْـَٔسُ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٧﴾﴾ [يوسف: 87]، ثم عادوا إلى أخيهم ودخلوا عليه وقالوا له: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ وَجِئْنَا بِبِضَٰعَةٍ مُّزْجَىٰةٍ فَأَوْفِ لَنَا ٱلْكَيْلَ وَتَصَدَّقْ عَلَيْنَا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَجْزِى ٱلْمُتَصَدِّقِينَ﴾ [يوسف: 88]، هنا

قد اكتمل الدرس فهم قد ذُلُّوا فعلاً وتعبوا كثيراً، فأحضروا له بضاعة مختلفة ومتنوعة حتى يتصدق عليهم بالطعام، فرد عليهم يوسف: ﴿قَالَ هَلْ عَلِمْتُم مَّا فَعَلْتُم بِيُوسُفَ وَأَخِيهِ إِذْ أَنتُمْ جَٰهِلُونَ ﴿٨٩﴾﴾، أراد أن يذكرهم بما فعلوه به بطريقة لينة، ﴿قَالُوٓاْ أَءِنَّكَ لَأَنتَ يُوسُفُۖ قَالَ أَنَا۠ يُوسُفُ وَهَٰذَآ أَخِيۖ قَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْنَآۖ﴾ [يوسف: 90]، انظر إلى ثبات الأخلاق ونتائج الصبر فقد منّ الله عليهما وأعطاهما جزاء ما صبروا هو وأخيه ﴿إِنَّهُۥ مَن يَتَّقِ وَيَصْبِرْ فَإِنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾، أراد أن يعطيهم الدرس هو الكريم ابن الكريم ابن الكريم. ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾، أي: أنت أفضل منا عند ربنا، لقد فضَّلك الله علينا وأعطاك جزاء صبرك وعملك، ونحن الآن نعترف بأخطائنا، فردَّ عليهم يوسف: ﴿قَالَ لَا تَثْرِيبَ عَلَيْكُمُ ٱلْيَوْمَۖ يَغْفِرُ ٱللَّهُ لَكُمْۖ وَهُوَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٩٢﴾﴾، أي: لا خوف عليكم الآن فأنتم في أمان، فارجعوا إلى أبيكم بقميصي هذا وارموه عليه يعود بصيراً ويأتي قومكم أجمعين. ﴿فَلَمَّا دَخَلُواْ عَلَىٰ يُوسُفَ ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ ﴿٩٩﴾﴾، أي: بعد ثلاثون عاماً من الغياب احتضن والديه وإخوته وكان اللقاء الجميل، واجتمعت العائلة من جديد ورفع والديه على العرش. ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًاۖ وَقَالَ يَٰٓأَبَتِ هَٰذَا تَأْوِيلُ رُءْيَىَ مِن قَبْلُ قَدْ جَعَلَهَا رَبِّى حَقًّاۖ وَقَدْ أَحْسَنَ بِىٓ إِذْ أَخْرَجَنِى مِنَ ٱلسِّجْنِ وَجَآءَ بِكُم مِّنَ ٱلْبَدْوِ مِنۢ بَعْدِ أَن نَّزَغَ ٱلشَّيْطَٰنُ بَيْنِى وَبَيْنَ إِخْوَتِىٓۚ إِنَّ رَبِّى لَطِيفٌ لِّمَا يَشَآءُۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْعَلِيمُ ٱلْحَكِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾، انظر إلى ثبات الأخلاق وإلى أدب الكلمات، هو لم يقل له: إن إخوتي وضعوني في البئر كي لا

يجرح إخوته، ولم يقل لهم: إنني أتيت بكم من المجاعة بل من البدو، وقال لهم: إن الشيطان هو الذي نزغ بيني وبين إخوتي حتى يبقى حب إخوته في قلبه بعد أن جمعهم الله.

تحلُّوا بثبات الأخلاق والصبر الإيجابي؛ ولو استسلم الجميع للشر والمعصية تمسّكوا بالعقل والعلم، فقد رأيتم من خلال استعراضنا لقصة سيدنا يوسف مع إخوته نتيجة ذلك كله.

أيها الإخوة، اثبتوا على أخلاقكم، فلو ثبت على أخلاقه شخص واحد من كل حيّ وشارع سيبقى هناك أمل، ولو حدث وانهار كل الناس وفسدت أخلاقهم فانتظروا الساعة.

جاء رجل إلى النبيّ ﷺ وقال له: متى الساعة؟ قال: «**إذا ضُيِّعت الأمانة فانتظر الساعة**»[1].

والدليل على أكثر من ذلك ما أنزله الله في كتابه العزيز. ألم تلاحظوا أن الله بعث في كل قوم أنبياء ورُسُلاً، ورغم ذلك أهلك أقواماً ولم يهلك أخرى؟

لماذا أهلك الله قوم عاد وثمود وصالح ونوح؟ ولم يهلك قوم يونس وقوم إبراهيم هل هي مصادفة أم هناك سبب؟

قوم أهلكهم الله بالريح الصرصر وقوم بالطوفان، الإهلاك لا يحدث لأجل الكفر فقط؛ بل من أجل الفساد الاجتماعي

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 59)، و(الحديث: 6496)، وأخرجه **البيهقي** في «السنن الكبرى» (الحديث: 1/ 118).

والأخلاقي، فقوم إبراهيم كفروا ولكنهم لم يفسدوا أخلاقياً لذلك لم يهلكوا، أما قوم لوط فكفروا وفسدوا أخلاقياً فأهلكوا.

كأنَّ المعنى: أن الاثنان إذا وقعا أي: الكفر والانهيار الأخلاقي والاجتماعي يحصل الهلاك. يقول الله ﷻ: ﴿أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ۝٦ إِرَمَ ذَاتِ ٱلْعِمَادِ ۝٧ ٱلَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝٨ وَثَمُودَ ٱلَّذِينَ جَابُوا۟ ٱلصَّخْرَ بِٱلْوَادِ ۝٩ وَفِرْعَوْنَ ذِي ٱلْأَوْتَادِ ۝١٠ ٱلَّذِينَ طَغَوْا۟ فِي ٱلْبِلَـٰدِ ۝١١ فَأَكْثَرُوا۟ فِيهَا ٱلْفَسَادَ ۝١٢ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ۝١٣﴾ [الفجر: 6 ـ 13].

قاعدة الإهلاك إذن: كفر وفساد أخلاقي واجتماعي، فلا يوجد أمل في إصلاحهم. وهذا ما يحدث معنا الآن، ولكن لماذا لم يهلكهم الله؟! لأنه اختار لهذه الأمة بأن تصلح نفسها بنفسها؛ ولأنه سيخرج من هذه الأمة المصلحون من علماء دين ودعاة ورجال ونساء وشبان وشابات؛ فالإصلاح لم يعد دور الأنبياء فقط؛ بل دور كل فرد من هذه الأمة.

قال تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ﴾ [آل عمران: 110]، إذن لم يعد هناك إهلاك؛ لأنكم تصلحون أنفسكم من الداخل وتصلحون الناس، يجب أن يكون هناك من يقول: لو انهار كل فرد أنا لن أنهار، ولو أصبح الكل خائناً أو سارقاً أو زانياً أنا لن أصبح كذلك، لو كل الفتيات تزوجن زواجاً عرفياً لن أقدم على ذلك، عند ذلك سنبصر الأمل في شباب اليوم بثباتهم على كل تلك الأخلاق الحميدة.

ثبات يوسف عليه السلام

رأينا عندما بدأنا بسرد قصّة يوسف كيف كان ثباته مع إخوته الحاقدين والحاسدين عندما رموه بالبئر، وغربته عن أبيه وأهله، ومحاولة قتله وهو في عمر العاشرة ومع ذلك ظلّ على ثباته الأخلاقي، ولم ينتقم منهم، ولم ينتقم من المجتمع؛ بل عمل على إصلاحهم.

الفساد الاجتماعي والأخلاقي وتعدده:

لقد تعدد الفساد الاجتماعي في قصة يوسف، مرة في العائلة، ومرة في العلاقات الزوجية، ومرة في العمل ومرة في الحياة.

ولحكمة لا يعلمها إلّا الله، أن تجد كل أنواع الفساد الاجتماعي والأخلاقي في قصة سيدنا يوسف، لعله لتتعلّم أن تثبت أمام أي محنة تواجهك.

فيهدر بكل من يواجه محنة في حياته أن يتذكر قصة هذا الشاب الذي مرّ بكل تلك المحن، وعَرَفَ كيف يخرج منها بنجاح.

بداية المحنة:

بدأت المحنة عندما رماه إخوته في البئر، وهو بئر عميق مظلم مليء بالحيّات والعقارب في آخر الصحراء، وبقي فيه لمدة ثلاثة أيام، وهو ينادي الناس، كان لا بد أن ينهار وينقم على مجتمعه، ثم جاءت سيارة، قال تعالى: ﴿وَجَآءَتْ سَيَّارَةٌ فَأَرْسَلُوا۟ وَارِدَهُمْ فَأَدْلَىٰ دَلْوَهُۥ﴾ [يوسف: 19]، وبينما هو في ذلك البئر مرَّ مسافرين في طريقهم

من الشام إلى مصر فوصلوا إلى مكان البئر، وهذه من معجزات الله تعالى؛ لأنه جعلهم يخطئون في الطريق ليصلوا إلى ذلك المكان.

فأرسلوا شخصاً معهم ليحضر لهم الماء من البئر، فبدأ بإنزال الدلو حتى وصل إلى قعره ثم أخذ يرفعه، فتعلق يوسف بذلك الدلو، وما إن وصل الدلو إلى الأعلى حتى رأى الرجل غلاماً جميلاً وصغيراً أمامه ثم قال: ﴿يَٰبُشۡرَىٰ هَٰذَا غُلَٰمٞۚ﴾، أي: فرح فرحاً شديداً وقال: يا بشرى، وأول ما تبادر إلى ذهنه أن يبيعه فسوف يأتيه بالمال الكثير، وهذه من إحدى علامات الانهيار الأخلاقي.

كان من الممكن أن يسأل ذاك الرجل يوسف عن أهله ومكان إقامته حتى يعيده إليهم، لكن الانهيار الأخلاقي جعله يقول لنفسه: لماذا لا أبيعه؟ ﴿وَأَسَرُّوهُ بِضَٰعَةٗۚ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾، أي: بمعنى غطوه وربطوه بالحبال، وأسروه: من السر حتى لا يراه أحد ممن يعرفه وظل على ذلك لمدة عشرة أيام.

انظروا كيف سيبيعونه وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم!! ومع هذا فهو صابر وثابت.

يا شباب، اثبتوا واصبروا حتى لو ظُلمتم، أو حتى لو فشلتم مرة وأخرى، لا تنهاروا مهما كانت هذه الدنيا ظالمة بل اثبتوا واصبروا؛ فالصبر والثبات مفتاح النجاح لحياتكم.

قال تعالى: ﴿وَشَرَوۡهُ بِثَمَنِۭ بَخۡسٖ دَرَٰهِمَ مَعۡدُودَةٖۚ وَكَانُواْ فِيهِ مِنَ ٱلزَّٰهِدِينَ ٢٠﴾ [يوسف: 20]، أي: باعوه بثمن قليل لا يساوي دراهم معدودة، وكانوا يريدون أن يسرعوا في البيع حتى لا يعلم به أحد، انظر إلى المجتمع الظالم؟ ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي ٱشۡتَرَىٰهُ مِن

مِّصْرَ لِٱمْرَأَتِهِۦٓ أَكْرِمِى مَثْوَىٰهُ عَسَىٰٓ أَن يَنفَعَنَآ أَوْ نَتَّخِذَهُۥ وَلَدًا﴾ [يوسف: 21]، واشتراه وزير الاقتصاد في مصر في تلك الأيام، وكان اسمه: العزيز، وأخذه إلى زوجته وقال لها: أكرمي مثواه عسى أن ينفعنا أو نتخذه ولداً؛ فقد كان لا ينجب أطفالاً.

ويعيش يوسف في بيت العزيز حتى يبلغ من العمر الثانية والعشرين أو الخامسة والعشرين.

انهيار الحياة الزوجية

هنا بدأت الفتنة ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 23]، هو الآن أصبح شاباً قوياً وجميلاً، بالإضافة إلى أنه أعزب، لقد وضع الله لنا في هذه الآية أصعب ما يمكن أن يواجهه الشباب في الدنيا، حتى لا يقول شاب: إنني شاب وأعزب ضعيف ولم أستطع أن أقاوم ذلك الإغراء.

هو أيضاً كان شاباً أعزباً، وهذه أخطر نقطة يواجهها الشباب الآن.

بالإضافة إلى أنّها ذات منصب، فهي زوجة وزير الاقتصاد في البلاد، هناك رجال يتأثرون بمناصب النساء، وهي جميلة طبعاً لأن الوزير لن يتزوج إلا امرأة جميلة، فكل الظروف مؤاتية لفعل الفاحشة، ﴿وَرَٰوَدَتْهُ ٱلَّتِى هُوَ فِى بَيْتِهَا عَن نَّفْسِهِۦ﴾، راودته أي: اقتربت منه شيئاً فشيئاً، سنة بعد سنة، يعني: الموضوع أخذ منها سنين. والتي في بيتها، أي: الذي يعمل عندها وهو خادم، إذن فالمعصية سهلة. وبعد عدة محاولات منها ﴿وَغَلَّقَتِ ٱلْأَبْوَٰبَ﴾، لم

يقل أغلقت؛ بل: غلّقت لتتأكد بأنها ستكون في أمان من الفضيحة انظر إلى الوضع المفعم بالإغراء والشهوة، إلى أن وصلت: إن كنت خجولاً فقالت له: ﴿هَيْتَ لَكَ﴾، انظر إلى الثبات في الأخلاق ورغم كل ما هو مهيأ له فجأة قال لها: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، أي: أعوذ بالله ويقصد ربه خالقه ﷻ، ولكنها هي هنا لم تفهمه، ثم قال لها: إنه ربي ـ ويعني بها الرجل الذي رباه وهو زوجها ـ وهو الذي أكرمني ورعاني، فأنا وفيّ له ولن أخونه أبداً.

يا من تقعون في المعصية وتضعون زوجاتكم أو أزواجكم، يا من خُدعن من شباب وخَدعن آباءهم وأمهاتهم وتزوَّجن زواجاً عرفياً دون علمهم.

قال تعالى: ﴿مَعَاذَ ٱللَّهِ إِنَّهُۥ رَبِّىٓ أَحْسَنَ مَثْوَاىَ﴾، أي: إن كنت تستطيعين أن تخوني زوجك فأنا لا أستطيع أن أفعل ذلك بالرجل الذي أدخلني بيته، هذا هو ثبات الأخلاق، والذي أخطأ فليتب إلى الله ﷻ، أطلب من كل فتاة قد تزوجت زواجاً عرفيًا أن تمزق تلك الورقة حتى لا تنهار عائلتها. قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ هَمَّتْ بِهِۦ وَهَمَّ بِهَا﴾ [يوسف: 24]، أما هي فانهيارها الأخلاقي لم ينته بل حاولت بشتى الوسائل أن تفعل الفاحشة وهمَّ بها تعني: أنه لم يستجب لها، وهي ليست معصية؛ لأن الله تعالى قال في آخر القصة: إنه من عباده الصالحين والمخلَصين، ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَٰنَ رَبِّهِۦ﴾، أي: أن الله تعالى ثبته بشيء أي: وهمّ بها لولا...

كان يستطيع أن يقول: همت به ولم يهم بها؛ ولكنه يريدنا أن نفهم: أنه بشر، وعنده شهوة إلى النساء، ولكنه كان مثالًا للقوة

والثبات اللذين استمدهما من إيمانه بالله تعالى، وخوفه من غضب الله عليه.

وهذا ممكن أن يحصل لأي فردٍ منا، والذي ثبَّته أنه رأى برهان ربه وهو النار، وهذا البرهان ممكن أن يراه أي واحدٍ منا، وهي ليست خصوصية ليوسف عليه السلام، يقول الرسول ﷺ: **«بينما أنا نائم فأتاني آتيان من الملائكة، فقالا: قم يا محمد، فقمت معهما فأخذاني إلى تنور كبير وضخم، وسمعت أصوات صراخ، فقلت: ما هذا؟ فقالا: انظر، فرأيت رجالاً ونساءً معلقين من شعورهم تأتيهم النار من أسفل منهم فقلت: من هؤلاء؟ قالوا: هؤلاء الزناة والزواني هكذا يعذبون إلى يوم القيامة»**[1].

هذا في عذاب القبر، أما يوم القيامة فالعذاب أشد وأقوى، وبرهان ربه حديث الرسول ﷺ: **«لأن يضرب أحدكم رأسه بمخيط من حديد خير له من أن تمسه امرأة لا تحل له»**[2].

والمس هنا لا ينحصر بالسلام واللمس باليد فقط، ولكن حتى نظرة الشهوة، إذن ارجع لثبات الأخلاق وتب إلى الله وعد إلى ربك. إن وسائل الإعلام الحالية ساعدت وتساعد على انهيار هذه الأمة.

ونحن نعرف أن أمتنا لن تهلك؛ لأن مهمتها الإصلاح وهي

---

(1) ذكره **الهيثمي** في «مجمع الزوائد» (الحديث: 10/ 57).

(2) ذكره **الهيثمي** في «مجمع الزوائد» (الحديث: 4/ 326).

تصلح نفسها بنفسها. قال تعالى: ﴿لَوْلَآ أَن رَّءَا بُرْهَـٰنَ رَبِّهِۦ ۚ كَذَٰلِكَ لِنَصْرِفَ عَنْهُ ٱلسُّوٓءَ وَٱلْفَحْشَآءَ ۚ إِنَّهُۥ مِنْ عِبَادِنَا ٱلْمُخْلَصِينَ﴾، إذن فالله تعالى ثبته في لحظة الفتنة والفحشاء... المرأة تتزين أمامه، وهو ثابت يتذلل في الدعاء، اعبدوا الله وتذلّلوا إليه فسيقبل منكم ويتوب عليكم.

والسوء: تعني خيانة العزيز أي: زوجها، والفحشاء: خيانته لله سبحانه وتعالى. يقول الرسول ﷺ: **«يرفع لكل غادر يوم القيامة لواء»**[1].

أي: يؤتى بالغادرين يوم القيامة، وبيد كل واحد منهم لواء مكتوب عليه أنه زاني، وصوت وصورة الفاحشة التي قام بها، ويقف ممسكاً بها بيده، هل أنت متخيل الفضيحة؟! أما الذي تاب إلى الله فلن يحدث له ذلك.

قال تعالى: ﴿وَٱسْتَبَقَا ٱلْبَابَ﴾ [يوسف: 25].

انظر إلى الوضع الذي وصلت إليه المرأة من الإحباط، يركض يوسف ويسرع إلى أحد الأبواب ليهرب منها.

هذا هو الفراغ القاتل للمرأة، فالشيطان يجد في فراغ المرأة مجالاً واسعاً وبيئة خصبة كالبكتيريا تماماً: ﴿وَقَدَّتْ قَمِيصَهُۥ مِن دُبُرٍ﴾، هو كان أسرع منها إلى الباب، وقدت قميصه من دبر، أي: قطعته من الوراء، أي: بدأ بفتح الباب وشدَّته من قميصه فمزّقته، وما إن فُتح الباب حتى وجدا زوجها العزيز أمامهما.

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 3/ 39).

قال تعالى: ﴿وَأَلْفَيَا سَيِّدَهَا لَدَا ٱلْبَابِ﴾، عندما فُتح الباب ووجد العزيز أمامهما هو لم يقل شيئاً، وظل صامتاً أما هي وبكل وقاحة بادرت بالكلام وقالت لزوجها: ﴿مَا جَزَآءُ مَنْ أَرَادَ بِأَهْلِكَ سُوٓءًا إِلَّآ أَن يُسْجَنَ أَوْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [يوسف: 25].

لم تطلب منه أن يقتله؛ لأنها لا زالت تريده وترغب فيه، ولكنها أرادت له السجن مع علمها أن مثل هذه الفعلة جزاؤها الموت في ذلك الوقت، وهنا خرج عن صمته وقال للعزيز: ﴿هِيَ رَٰوَدَتْنِي عَن نَّفْسِي﴾، وبدأ التحقيق في الموضوع، فأحضروا خبيراً وعالماً جنائياً: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنْ أَهْلِهَآ إِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن قُبُلٍ فَصَدَقَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٢٦﴾ وَإِن كَانَ قَمِيصُهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ فَكَذَبَتْ وَهُوَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٢٧﴾﴾ [يوسف: 26-27]، أي: إذا كان القميص مُزِّق من الأمام فهي صادقة وهو كاذب، وأما إذا كان مُزق من الخلف فهي كاذبة وهو من الصادقين، وهذا من دلائل العلم الجنائي في القرآن.

وبالنظر إلى قميصه وإلى آثار التمزيق عرفوا أن القميص قُدَّ وقُطِّع من الخلف ﴿فَلَمَّا رَءَا قَمِيصَهُۥ قُدَّ مِن دُبُرٍ قَالَ إِنَّهُۥ مِن كَيْدِكُنَّ إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ ﴿٢٨﴾﴾ [يوسف: 28]، ماذا يفعل العزيز بعد أن ثبت كذب زوجته؟ انظر إلى الانهيار الأخلاقي الرهيب، وقف وقال ليوسف: ﴿يُوسُفُ أَعْرِضْ عَنْ هَٰذَا وَٱسْتَغْفِرِي لِذَنۢبِكِ إِنَّكِ كُنتِ مِنَ ٱلْخَاطِـِٔينَ ﴿٢٩﴾﴾ [يوسف: 29].

أي: يوسف ابتعد عن هذه الأعمال، أما أنت يا زوجتي استغفري لذنبك، وطلب منه أن لا يخبر أحداً بما حدث، وانتهى

كل شيء بهذه البساطة.

وظل يوسف يعيش ويعمل في منزل العزيز، الذي لم يحرِّك هذا الأخير ساكناً؛ لأنه كان يخاف من الفضيحة وكان يخاف أيضاً على مركزه الاجتماعي ومنصبه في البلد.

انهيار مجتمع:

قال تعالى: ﴿وَقَالَ نِسْوَةٌ فِي الْمَدِينَةِ امْرَأَتُ الْعَزِيزِ تُرَاوِدُ فَتَاهَا عَن نَّفْسِهِ﴾ [يوسف: 30]، وانتشر الخبر في المدينة عن طريق الخدم الذين يعملون عند امرأة العزيز، وتم فضحها ولكنَّها لم تكترث.

قال تعالى: ﴿قَدْ شَغَفَهَا حُبًّا إِنَّا لَنَرَاهَا فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾، لقد راودت فتاها عن نفسه قد شغفها حباً، أمعقول أن تنشىء علاقة مع خادمها؟! أي: أن الفاحشة ليست مهمة، المهم أنه خادم وهي سيدته، هذه هي أفكار المجتمع الراقي الفارغ.

يقول النبيّ ﷺ: «**الغني الشاكر أحب إلى الله من الفقير الصابر**».

وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَأً وَآتَتْ كُلَّ وَاحِدَةٍ مِّنْهُنَّ سِكِّينًا وَقَالَتِ اخْرُجْ عَلَيْهِنَّ﴾ [يوسف: 31]، فأرسلت تدعوهن إلى حفلة استقبال وأعدّت لهن كل الترتيبات وأدوات الزينة، وتجمعت النسوة وعندما بدأن بتناول طعامهن قالت ليوسف: اخرج إليهن كي يشاهِدْنك، فلما رأوه ورأوا جماله وقوته لم ينتبهن فجرحن أيديهن من شدة جماله، انظر إلى الموقف الذي

وقف فيه يوسف وهو الكريم ابن الكريم ابن الكريم.

قال تعالى: ﴿فَلَمَّا رَأَيْنَهُۥٓ أَكْبَرْنَهُۥ وَقَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ وَقُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَآ إِلَّا مَلَكٌ كَرِيمٌ ﴿٣١﴾ قَالَتْ فَذَٰلِكُنَّ ٱلَّذِى لُمْتُنَّنِى فِيهِ﴾ [يوسف: 31، 32]. إذن... جُرحت أيديهن عندما رأوه بهذا الجمال، فقالت لهن: ألم يكن معي حق؟ فقالوا لها: نعم معك حق، يمكن أن تقول أنها هي لم تعجبه ولكن ألم تعجبه أي واحدة منهن؟

وتحولت الفتنة من امرأة واحدة إلى عدة نساء.

تأتي امرأة إلى رسول الله ﷺ وتقول له: يا رسول الله، إني أُصرع فادع الله لي ألا أصرع، قال لها الرسول ﷺ: «**إن شئت أدعو الله لك وإن صبرت لك الجنة**»، قالت: أصبر، ولكنني عندما أُصرع أتكشف فادع الله لي أن لا أتكشف. قال الرسول ﷺ: «**أما هذه فنعم، يا رب فلا تتكشف**»[1]، فكانت تُصرع ولا تتكشف.

وقالت السيدة مريم عندما رزقت بولد رغم عدم زواجها واتهمت بالفاحشة: ﴿يَٰلَيْتَنِى مِتُّ قَبْلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا﴾ [مريم: 23]. والسيدة مريم هي رمز العفة والشرف والأخلاق.

وأنت أيها الشاب كلما رأيت المعصية ضع نُصب عينيك قصة يوسف. أما إذا عصيت فارجع الى الله وتب، انظر الى القوة التي تصلّى بها يوسف في محنته مع هذه المرأة وثباته كي لا يصل الى المعصية.

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 346).

وقد فضَّل السجن على إتيان الفاحشة وهو القائل: ﴿رَبِّ ٱلسِّجْنُ أَحَبُّ إِلَىَّ مِمَّا يَدْعُونَنِىٓ إِلَيْهِ﴾ [يوسف: 33]، السجن هو أفضل وأحب إلي مما يطلبونه مني هؤلاء النساء، فذُلَّ السجن ولا ذُلّ المعصية. ﴿وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّى كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾، ﴿فَٱسْتَجَابَ لَهُۥ رَبُّهُۥ فَصَرَفَ عَنْهُ كَيْدَهُنَّ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٤﴾﴾ [يوسف: 34]، ومنذ ذلك اليوم وبعد أن دعا ربه لم تعد أي امرأة تفتتن به، وتحول إعجاب النساء بجمال يوسف إلى إعجاب بهيبته وحكمته، فسبحان مغير القلوب.

أحياناً ترى أشخاصاً يستمرون في المعصية طيلة عشرين عاماً وفي يوم واحد يتوبون ويدعون الله بأن يغفر لهم وبإخلاص فيقبل الله التوبة منهم ويتوب عليهم. ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعْدِ مَا رَأَوُا۟ ٱلْءَايَٰتِ لَيَسْجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٍ ﴿٣٥﴾﴾ [يوسف: 35]، أي: قالوا وقالت هي أيضاً: خذوه إلى السجن وهذا غلٌ وظلم منها؛ لأنه لم يستجب لها وسجن دون محاكمة لمدة غير معروفة قيل: تسع سنين، إلى أن جاء يوم رأى فيه الملك رؤيا وأراد تأويلها فقال: ائتوني بمن يفسرها لي، فأبلغوه أن هناك رجلاً في السجن يعرف تفسير الرؤيا فقال الملك: ﴿ٱئْتُونِى بِهِۦٓ﴾ قال لهم يوسف: ارجعوا إلى الملك واسألوه عن النسوة اللاتي قطعن أيديهنّ، لأنه أراد أولاً أن يثبت براءته قبل أن يخرج من السجن، ﴿قَالَ ٱرْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْـَٔلْهُ مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّٰتِى قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ ۚ إِنَّ رَبِّى بِكَيْدِهِنَّ عَلِيمٌ ﴿٥٠﴾﴾ [يوسف: 50]، إذن هو لم يوافق على الخروج من السجن لمجرد الخروج ولكن همّه الأكبر كان: براءته.

ولم يقل لهم اسألوا زوجة العزيز؛ لأنه لم يُرِد الانتقام من أحد، بل: اسألوا النساء اللاتي قطعن أيديهن وهذا ذكاء منه؛ فهو يريد الإصلاح بطريقةٍ تجعل الملك يعرف فحوى القصة فذهب الرسول إلى الملك وأخبره، فسأل الملك النساء اللاتي قطعن أيديهن: ﴿قَالَ مَا خَطْبُكُنَّ إِذْ رَاوَدتُّنَّ يُوسُفَ عَن نَّفْسِهِۦ﴾ [يوسف: 51]، وهن نساء الطبقات الراقية. ﴿قُلْنَ حَٰشَ لِلَّهِ مَا عَلِمْنَا عَلَيْهِ مِن سُوٓءٍ﴾، إذن النساء تُبْنَ إلى الله بعد مرور تسع سنوات وخرجت من بينهن امرأة العزيز وقالت للملك: ﴿ٱلْـَٰٔنَ حَصْحَصَ ٱلْحَقُّ أَنَا۠ رَاوَدتُّهُۥ عَن نَّفْسِهِۦ وَإِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾، ذلك ليعلم ـ أي: زوجها ـ أنها لم تخنه وأن يوسف هو الصادق، وتابوا جميعاً إلى الله.

دورنا في الحياة وكما أراده الله ﷻ هو الإصلاح في هذه الأرض فهو القائل: ﴿إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ [البقرة: 30]، أمر الله ﷻ الملائكة الكائنات كلها أن تخضع لهذا المخلوق الذي خلقه، ومن أجل ذلك غضب إبليس وعصى؛ لأنه أراد أن يكون هو الخليفة، لكن الله ﷻ اختار آدم. لذلك نحن خُلقنا على هذه الأرض من أجل أن نصلح فيها، وقصص الأنبياء كلها من أجل ذلك، توكلوا على الله، وانظروا إلى ثبات الأخلاق والإصلاح والصبر الإيجابي، فقصة يوسف هي الإصلاح في الأرض مع الثبات الأخلاقي ومع الصبر الإيجابي، فكلما توغّلنا في القصة شعرنا أن القرآن شرح كل زاوية من زوايا العلاقات الاجتماعية.

الانهيار الاقتصادي

في هذه السورة رسائل كثيرة، منها رسالة للذين يعانون من

البطالة، فبعد أن دخل يوسف السجن لمدة تسع سنين خرج منه ليقود العالم العربي إلى الإصلاح الاقتصادي: ﴿ثُمَّ بَدَا لَهُم مِّنۢ بَعۡدِ مَا رَأَوُاْ ٱلۡأٓيَٰتِ لَيَسۡجُنُنَّهُۥ حَتَّىٰ حِينٖ ٣٥﴾ [يوسف: 35].

أي: سجن لمدة غير محدودة لا يعرف ما هو مستقبله، بعد أن فقد عائلته ثم بيع واشتُريَ كالعبيد، فالرجل سجنه دون محاكمة بتهمة شرف، وهذا شيء صعب، ماذا تفعل لو كنت مكانه؟! كنت ستُدمر وتنتقم من هذا المجتمع، لكن يوسف لم يفعل ذلك؛ لأنه مصلح.

وأتوجّه إلى الشباب في ظل الأزمة الاقتصادية التي نعاني منها، إلى إحصاء المِحَن التي مر بها يوسف:

1 ـ حقد إخوته وحسدهم له: اثنا عشر سنة.

2 ـ فراقه عن أهله: أربعون سنة.

3 ـ محاولة قتله وهو في عمر عشر سنوات، وثلاث سنوات في البئر.

4 ـ هجرته من بلده وإقامته في أرض غريبة: ثلاثون سنة.

5 ـ العبودية والرق هو الكريم ابن الكريم: عشرون سنة.

6 ـ دخل السجن: تسع سنوات.

لنجد أن يوسف عليه السلام لم يستمتع بحياته فقد قضاها تارة في

السجن وتارة بالخدمة وهو بعيد عن أهله، لماذا كل هذا الظلم؟ من أجل أن يكون عبرة ومثل لنا ولكلّ الناس على مرّ السنين.

لو كنت مكانه وأقمت في السجن سنة واحدة وأنت بريء، كيف ستكون حالتك النفسية؟! كآبة، حزن، بل أكثر من هذا فمن يُسجن يتحول إلى مجرم، فهل سيغير السجن يوسف؟

دخل السجن ومعه فتيان، ولقد سُجِنَا لأنهما اتُّهِمَا بمحاولة قتل الملك تسميماً، وكان أحدهما يعمل في قصر الملك، ويسقي الملك خمراً، أما الآخر فكان يعمل خبازاً وهو الذي يصنع الطعام للملك، وكان أحدهما بريئاً والآخر مذنباً.

قال أحدهما ليوسف بعد أن رأى حلماً: ﴿إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَعۡصِرُ خَمۡرٗاۖ وَقَالَ ٱلۡأٓخَرُ إِنِّيٓ أَرَىٰنِيٓ أَحۡمِلُ فَوۡقَ رَأۡسِي خُبۡزٗا تَأۡكُلُ ٱلطَّيۡرُ مِنۡهُۖ نَبِّئۡنَا بِتَأۡوِيلِهِۦٓۖ﴾ [يوسف: 36]، في ذلك الوقت كانت جرائم الشرف من أعظم الجرائم، وعندما دخل يوسف إلى السجن بهذه التهمة لم يروا فيه ذلك الرجل الذي يستطيع أن يرتكب الفاحشة، فذهبوا إليه ليسألوه عن رؤياهم؛ فقد كان يعامل الناس ـ أي: المساجين ـ معاملة حسنة ويتودد إليهم، هو مصلح في الأرض مثل جده إبراهيم الذي كان بدوره أيضاً مصلحاً.

من أجل ذلك ذهبوا إليه؛ لأنهم وجدوا فيه الأخلاق الحسنة والمعاملة واللطف والأدب. وبدأوا بسرد رؤياهم على مسمعه، فعرف من كلامهم أن واحداً منهما سيموت والآخر سيعيش.

يريد أن يعلّمنا أن الذي يصلح في الصغيرة سيُستَخْدَم في الكبيرة. ومشكلة الشباب في عصرنا أنهم يريدون الوصول الى المراكز العليا دفعة واحدة دون أن يصعدوا درجة تلو الدرجة، وهذا لا ينفع بل عليه أن يبدأ بالدور الصغير حتى يعرف كيف سيقوم بالدور الكبير.

وبدأ يوسف معهما بوضع خطة ذكية، فهو لم يقل لهما مباشرة أن واحداً منكما سيموت والآخر لا.

قال لهما: ﴿لَا يَأْتِيكُمَا طَعَامٌ تُرْزَقَانِهِۦٓ إِلَّا نَبَّأْتُكُمَا بِتَأْوِيلِهِۦ قَبْلَ أَن يَأْتِيَكُمَاۚ﴾ [يوسف: 37]، بدأ يتكلم معهم بأرزاقهم ثم شيئاً فشيئاً بدأ يكلمهم عن الدين ﴿يَٰصَٰحِبَيِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ ﴿٣٩﴾﴾ [يوسف: 38]، كان دائماً ينادي ويقول لهم: يا صاحبي السجن، انظر إلى الأدب وكيف يتعامل مع الناس ويحبب الناس إليه، إذن سماته جميل المظهر ومؤدب ويعرف كيف يعامل الناس، وحكيم ومحسن وله موهبة تفسير الأحلام ويعرف كيف يدخل إلى قلوب الناس. وبعد أن دعاهم إلى الله الواحد بدأ يفسر لهما الرؤيا. ﴿أَمَّآ أَحَدُكُمَا فَيَسْقِى رَبَّهُۥ خَمْرًا وَأَمَّا ٱلْءَاخَرُ فَيُصْلَبُ فَتَأْكُلُ ٱلطَّيْرُ مِن رَّأْسِهِۦۚ قُضِىَ ٱلْأَمْرُ ٱلَّذِى فِيهِ تَسْتَفْتِيَانِ﴾ [يوسف: 41].

لم يحدد من منهما سيموت ومن منهما سيظل على قيد الحياة، فقال لهما: واحد منكما سيعود إلى عمله في قصر الملك، وأما الآخر فسيقتل وتأكل الطير من رأسه، كان سيدنا يوسف وهو في السجن يصلح المساجين فطلب ممن سيخرج من السجن بأن يخبر الملك عن قصته.

وبعد ثلاثة أيام قتل الأول وخرج الآخر من السجن وعاد إلى عمله في قصر الملك، ولكنه نسي أمر يوسف، وبقي يوسف في السجن لمدة تسع سنوات، إلى: أن رأى الملك رؤيا: ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ إِنِّيٓ أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَٰتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنۢبُلَٰتٍ خُضْرٍ وَأُخَرَ يَابِسَٰتٍ﴾ [يوسف: 43]، أراد الملك أن يعرف تفسير هذه الرؤيا فطلب أن يحضروا له من يفسرها ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ أَفْتُونِي فِي رُءْيَٰيَ إِن كُنتُمْ لِلرُّءْيَا تَعْبُرُونَ﴾، عرف الملك أن هذه الرؤيا مهمة لمصر فجمع كل العلماء والكهنة في احتفال عام حتى يتم تفسيرها ﴿قَالُوٓاْ أَضْغَٰثُ أَحْلَٰمٍ وَمَا نَحْنُ بِتَأْوِيلِ ٱلْأَحْلَٰمِ بِعَٰلِمِينَ ﴿٤٤﴾﴾، في بادىء الأمر قالوا: إنها كوابيس ولكن لا نعرف تفسيرها، وقال رجل منهم ـ وهو الذي كان في السجن مع يوسف ـ: إني أعرف رجلاً يستطيع أن يفسّر هذه الرؤيا.

قال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِي نَجَا مِنْهُمَا وَٱدَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ أَنَا۠ أُنَبِّئُكُم بِتَأْوِيلِهِۦ فَأَرْسِلُونِ ﴿٤٥﴾﴾، وذهبوا إلى يوسف في سجنه وكان في مكان بعيد عن المدينة وقال له: يوسف أيها الصدِّيق، أفتنا في هذه الرؤيا: سبع بقرات سمان يأكلهنّ سبع عجاف.

ويبدأ يوسف بتفسير الرؤيا فيقول: سيكون هناك مشكلة في الثروة الحيوانية وستمرّ عليكم سبع سنين خير وسبع سنين عجاف. ثم يقول لهم: أكثروا الإنتاج وابذلوا كل طاقاتكم واعملوا أضعاف أضعاف الإنتاج تزرعون دأباً وتحصدون، لأنه ستأتي سنين عجاف.

قال تعالى: ﴿تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنۢبُلِهِۦٓ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ ﴿٤٧﴾﴾، أي: تبقى البذور في سنبلها حتى

لا تسوس ويتم تخزين هذا الإنتاج للأيام العجاف وقللوا من استهلاك الطعام.

وضع خطَّة لترشيد الاستهلاك لمدة سبع سنين، وسياسة تخزينية متميزة حتى لا يسوس الأكل، كان مصلحاً ورجل اقتصاد ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تُحْصِنُونَ ﴿٤٨﴾﴾، سبع سنين لزيادة الإنتاج مع ترشيد الاستهلاك وتخزين المحصول للسبع السنين العجاف، ثم تخزين البذور كمواد أوليَّة ليجدوا ما يزرعونه في المستقبل.

ان هدف القصة الإصلاح وثبات الأخلاق، لقد ظلموه ووضعوه في السجن ظلماً، لو كنت مكانه وانت في السجن الآن وجاؤوا اليك لتحل لهم هذه المشكلة ويرسل اليك الملك ماذا ستقول؟!

ستقول: لا بدّ أن أنتقم، أو تقول لهم: أخرجوني أولاً ثم أُفسر لكم الرؤيا، وبعد أن تخرج من السجن لا تنفّذ ما وعدتهم به لأنك تريد الانتقام.

ولكن سيدنا يوسف ـ ورغم كل ما حصل معه ـ لم يفعل كل هذا مع العلم أن أهل مصر لم يؤمنوا، فلم نجد في سورة يوسف ذكر لإسلام أهل مصر، وهو لم يجبرهم على أن يسلموا وكأن الله يقول لنا أن الأمر ليس مرتبطاً بعضه ببعض؛ لأن الإصلاح هو للإصلاح وأن تنقذ أرواح الناس هو أمر مهم، وبعد كل ذلك يُتهم الإسلام بأنه دين إرهاب. ﴿وَقَالَ ٱلْمَلِكُ ٱئْتُونِي بِهِۦٓ أَسْتَخْلِصْهُ لِنَفْسِى﴾ [يوسف: 54]، بعد أن وجده الملك صاحب أدب وأخلاق وصاحب

خطة اقتصادية طلب أن يخرجوه من السجن، ولكن يوسف رفض وأراد أن لا يخرج دون أن تثبت براءته من التهمة التي من أجلها دخل السجن، فقال: ﴿مَا بَالُ ٱلنِّسْوَةِ ٱلَّتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾، وبعد أن ثبتت براءته كما ذكرنا سابقاً خرج من السجن، واستخلصه الملك لنفسه وجعله وزيراً للاقتصاد والمال في البلاد لحكمته وأمانته: ﴿قَالَ ٱجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَآئِنِ ٱلْأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ ۝٥٥﴾، هو لم يضع الخطة فقط، ولكنه أراد تنفيذها بنفسه، ونجحت الخطة. وحصل ما فسّره يوسف لرؤيا الملك، وحلّت الأزمة بالبلاد العربية ولكن مصر هي البلد الوحيد الذي لم تؤثّر فيها الأزمة وأصبح عندها فائض غلال وبذور وانتشر الخبر بين الدول المجاورة حتى وصل إلى فلسطين، وإلى إخوة يوسف.

وعندما تحدث المجاعة:

1 ـ تبدأ أعداد المتسولين بالازدياد.

2 ـ يحتكر التجار البضائع، وينتشر الجشع بين الناس.

3 ـ تنتشر البطالة بين الشباب والعمال.

ففكر سيدنا يوسف ماذا يفعل؟ وسّع خطته الاقتصادية، وأصبح الفائض في مصر هو ملك لكل الناس ويحق لأي كان أن يحضر ليأخذ الطعام، ولكن حدِّدَت الكمية بقدر بعير واحد فقط حتى يتمكَّن الجميع من الحصول على الطعام ﴿جَآءَ بِهِۦ حِمْلُ بَعِيرٍ وَأَنَا۠ بِهِۦ زَعِيمٌ﴾ [يوسف: 72]، وجعل لكل شخص بطاقة خاصة به حتى يُعرف من خلالها أنه حصل على الطعام كي لا يحصل أي نوع من

الفوضى، وبدأ يوسف يستقبل كل الوفود التي تدخل إلى مصر للحصول على الطعام ويجلس بنفسه لمقابلتهم، ثم يبدأ بسؤالهم من أين أتوا ومن أي عائلة هم، ويعامل الناس بالأدب والاحترام يختم بطاقاتهم دون إهانة: ﴿أَلَا تَرَوْنَ أَنِّيٓ أُوفِي ٱلْكَيْلَ وَأَنَا۠ خَيْرُ ٱلْمُنزِلِينَ﴾ [يوسف: 59]، وهكذا قضى يوسف على الاحتكار والبطالة والتسول بخطة عبقرية لم يسبق لها مثيل، واستطاع بفضل تواضعه أن يتعرّف على كل الناس حتى وصل إخوته فعرفهم وهم له منكرون.

وقد كانت خطة يوسف ترمي بأن يحضر كل من أراد الحصول على الطعام بضاعة من صنع بلده، تماماً كمبدأ المقايضة: الطعام مقابل البضاعة التي يحضرونها معهم.

يا مسلمين، اليد العليا خير من اليد السفلى، ورغم الأزمة الاقتصادية التي تمر بها البلاد رفض يوسف أن يعطيهم القمح دون بضاعة مقابلها، أي: دون إنتاج، وهكذا حل مشكلة البطالة أصبحت مصر والعالم العربي في عداد الدول المنتجة.

أرأيتم الصورة الآن؟! تحوّل يوسف من شاب كان مسجوناً الى شاب يقود الاقتصاد في العالم العربي نتيجة صبره وثباته، فقد استطاع بفضل كل هذا أن يصنع من المجاعة فرصة للنجاح في مصر، ومن البطالة خلية نحل لا تهدأ.

هذه هي قصّة سيدنا يوسف بمعانيها الجميلة والخطيرة معاً، فثباته الأخلاقي في وجه كل المصاعب التي واجهته، أوصلته الى النجاح بعد أربعين عاماً من المعاناة.

نتائج الثبات والصبر

كل الذين انحرفوا أخلاقياً في هذه القصة تابوا أو اعتذروا في النهاية إلى يوسف.

إخوته: ﴿قَالُواْ تَٱللَّهِ لَقَدْ ءَاثَرَكَ ٱللَّهُ عَلَيْنَا وَإِن كُنَّا لَخَٰطِـِٔينَ ﴿٩١﴾﴾ [يوسف: 91].

زوجة العزيز: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفْسِىٓ ۚ إِنَّ ٱلنَّفْسَ لَأَمَّارَةٌۢ بِٱلسُّوٓءِ﴾.

العزيز فقد وظيفته بعد أن أخفى الموضوع.

صاحب الثبات الأخلاقي ولو بعد أربعين سنة، هو من يكسب في النهاية: ﴿ءَاوَىٰٓ إِلَيْهِ أَبَوَيْهِ﴾، ﴿وَقَالَ ٱدْخُلُواْ مِصْرَ إِن شَآءَ ٱللَّهُ ءَامِنِينَ﴾، ﴿وَرَفَعَ أَبَوَيْهِ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ ﴿وَخَرُّواْ لَهُۥ سُجَّدًا﴾.

من هو مالك الملك؟! قال الله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰٓ أَمْرِهِۦ﴾ [يوسف: 21]، انظر عندما يكون ربك معك، إن الله لا يُغلب أبداً، وهو معك يا صاحب الإصلاح، يا صاحب الصبر الإيجابي، يا صاحب ثبات الأخلاق.

غالب على أمره:

1 ـ غالب على أمره: يوم رماه إخوته في البئر، وهو الذي رباه والده إلى أن أصبح في عمر العشر سنوات حتى يخرج بأخلاق يعقوب وإبراهيم.

2 ـ غالب على أمره: يوم جعل السيارة يخطئون في الطريق

ويدخلون إلى وسط الصحراء ويخرجوه من البئر.

3 ـ غالب على أمره: عندما جعل السيارة يبيعونه إلى العزيز في مصر وكان وزيراً للاقتصاد، ورغم أنه كان عبداً في بيته ولكنه تعلم الاقتصاد.

4 ـ غالب على أمره: يوم رأى الملك الرؤيا.

5 ـ غالب على أمره: يوم ظلمته امرأة العزيز وسُجن، ثم طلب الملك مقابلته.

6 ـ غالب على أمره: يوم دخل ساقي الملك إلى السجن خطأً حتى يرى يوسف.

7 ـ غالب على أمره: يوم جعل مصر كلها والعالم العربي يحتاجون إليه حتى إخوته احتاجوا للذهاب إليه ليعيدوه إلى والده.

8 ـ غالب على أمره: يوم جعل يوسف يصل إلى الملك ويكون صاحب المبادرة التي أنقذت مصر والعالم العربي من المجاعة والبطالة.

فالله بيده الملك، أصلح والله معك، ماذا لو لم يتعلَّم يوسف الاقتصاد في بيت العزيز، أو استسلم لامرأة العزيز وقام بالفاحشة، ولكن كان السجن أحب إليه حتى يصل ويصبح عزيز مصر، وعندما أصبح وزيراً لم يتكبّر بل قابل إخوته بتواضعه.

حركة الإصلاح هي التي أنجحته فعندما أصلح جعل الله الظروف لصالحه.

رسالتي الى طلاب الجامعات والمدارس وحديثي التضرج والعاطلين عن العمل، كونوا مستعدين لانتهاز الفرصة عندما تدق أبوابكم، فالله يرسل لكل واحد فرصة وهو غالب على أمره.

استعد مثل ما فعل يوسف، فالفرصة أتته بعد عشرين سنة، دون يأس أو قنوط فالآية تقول: ﴿وَلَا تَاْيْـَٔسُواْ مِن رَّوْحِ ٱللَّهِ﴾ [يوسف: 87].

انتهت السورة... أتمنى أن تكون وصلت معانيها التي شملت وجوه عديدة من الحياة: العائلية، الاقتصادية، الاجتماعية، والعلاقات الزوجية. وليكن سيدنا يوسف قدوتك في حياتك، ففي قصته تجد حلاً لأي مشكلة تعترضك.

قصة آل عمران

ما زال حديثنا عن الإصلاح ونسعى دائماً لنهضة في مجتمعنا في سبيل ذلك الإصلاح.

وتكلمنا كثيراً عن الأسرة، إلا أننا ركزنا في كلامنا عن علاقة الآباء بالأبناء كيف تكون علاقة حُب وود، وعن كيفية التواصل والتقرب من بعضهما بعض، حتى لا تكون العائلة مفككة، لكن كان هذا من زاوية معينة تكلمنا فيها عن علاقة الأفراد داخل الأسرة.

أما الآن فسنتكلم عن زاوية مختلفة تماماً وهي دور الأسرة في الإصلاح.

دور الأسرة في الإصلاح

نحن كأسرة ما دورنا في الإصلاح؟ والأسرة كوحدة ما دورها في المجتمع؟ أو في التنمية؟

هل سمعتم عن عائلة جلست وسألت: ما دورنا في المجتمع؟ في الإسلام؟ ماذا نقدم لبلدنا؟ كيف نصلح؟ ما هو دورنا في الإصلاح؟

هل دور الأم والأب محصور في ذهاب الأولاد للمدرسة أو الجامعة، هما يعيشان حياتهما الروتينية كالذهاب إلى العمل وتأمين المال، والطعام والشراب؟ ماذا يحصل بين الأب والأم بعد مرور خمس سنوات أو عشر سنوات على زواجهما؟ هل تصاب علاقتهما بالفتور، كيف نجدد العلاقة وتصبح كما كانت عليه أيام الخطوبة؟

قم بدورٍ مشتركٍ مع زوجتك، كيف؟ اتفقوا على مشروع تقومون به معاً.

فالحاصل اليوم، أن الرجل والمرأة يسيران باتجاه معاكس، والفجوة تتسع وتتسع، ابدأوا بمشروع يجمعكم سوياً.

تساءلوا: ما هو دورنا في هذه الحياة؟ ما دورنا في هذا الشارع؟ ما دورنا مع الجيران؟ لكي تتوثق العلاقات من جديد وتصبح أفضل بكثير مما كانت عليه سابقاً. ليس فقط من أجل الله تعالى، ليس فقط من أجل النهضة، بل أيضاً من أجل سعادتنا العائلية.

أعرف شخصاً عمره ستون سنة، علاقته مع زوجته غير عادية، يعمل هو وزوجته كل يوم اثنين في تحضير الطعام ودعوة سكان المبنى حيث يسكنان للاجتماع بهم والتحدث في مشاكلهم وحلها.

تعالوا نتحدث عن عائلة كان هذا عملها أيضاً، عائلة «آل عمران» والدا مريم عليها السلام وجدّ وجدّة سيدنا عيسى عليه السلام.

ميزة هذه العائلة:

هذه العائلة عائلة ربانية، نذرت نفسها لله وللإصلاح، وقالت: سنعيش لربنا فقط، فجعل الله محاور التاريخ كلها مرتبطة بهذه العائلة.

وانظر ماذا قال الله فيهم: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [آل عمران: 33].

فآدم ونوح كانا نموذجين لأفراد أصلحوا في التاريخ، آل إبراهيم وآل عمران نموذجان لعائلات أصلحوا في التاريخ، وهذه الآية وردت في سورة اسمها سورة: «آل عمران» انظر إلى أهميّة الأسرة في القرآن سورة كاملة سميت باسم عائلة!، وسورة «آل عمران» هذه تتكلم عن غزوة أُحد، وعن الانتصار والمسلمين؛ كأنه يلفت نظرنا أن بداية الانتصار من الأسرة.

تسميتها بآل عمران

ولماذا سميت بآل عمران؟ لأنها نموذجاً في التاريخ... عائلة ضحّت من أجل الله تبارك وتعالى، فمنهم من قُتِل ومنهم من مات ومنهم من رُفِع، عائلة غير عادية في التاريخ.

عائلة عاشت من أجل الله، فأعطى الله اسمها لثاني سورة في القرآن، المفروض أن الذي يفتخر بهذه القضية هم إخواننا من المسيحيين، لكن انظر إلى نظرة الإسلام تجاه هذا الموضوع، فنحن نقول لإخواننا المسيحيين: أنتم شركاء لنا في إنشاء هذه النهضة في أسرتكم.

نريد أن نشترك في بناء نهضة بلادنا، فبلادنا هذه مشتركة بيننا جميعاً.

جذورها

ولنعود إلى جذور هذه العائلة: الجدّ والجدة، نلاحظ أنه لم يذكر اسمهما لماذا يا ترى؟ لأن المهم ليس الأشخاص ذاتهم وإنما المغزى والمعنى العام.

إذن لدينا هنا عمران وزوجته اللذيْن أنجبا بنتاً واحدة، فكبرت البنت ولم ينجبا غيرها على أغلب الأقوال. فمن هي هذه البنت؟ إنها ابنة عمران، ولم يكن حتى ذلك الحين أحدٌ منهم نبياً أو رسولاً، ولكن كلهم من نسل داود عليه السلام، يتبعون المنهج الصحيح، وإيمانهم هو الإيمان الصحيح.

فهذه البنت عندما كبرت تزوّجت من زكريا الذي أصبح نبياً، ولم ينجبا أطفالاً لمدة طويلة، حتى رُزِقا بمولود في آخر حياتهم وسمّوه: يحيى وهو نبيّ أيضاً.

والجدة أنجبت في الآخر أيضاً: بنتاً أخرى أسمتها: مريم، وحصل لمريم معجزة كبيرة في تاريخ البشرية، ألا وهي إرادة الله أن تنجب عيسى عليه السلام من غير أب.

فانظر إلى شجرة العائلة، نسل داود، آل عمران، زوجته، تفرع عنهم امرأتين، الأولى تزوجت زكريا وأنجبت يحيى، والثانية أنجبت عيسى، وهي مريم عليها السلام.

وبالتالي يكون سيدنا يحيى ابن خالة سيدنا عيسى، ويكون زكريا (صهر) أي: زوج أخت السيدة مريم، وزوج خالة سيدنا عيسى، وعمران لديه اثنين من الأحفاد: يحيى وعيسى.

الوضع التاريخي

تعالوا نبحث في الحقبة التاريخية الذي كانوا يعيشونها في ذلك الوقت، والبلد الذي كانوا يعيشون فيه ما شكله؟ كان الرومان يسيطرون على الأرض، وهم وثنيون لا يدينون بأي دين سماوي، منهجهم في الحياة: فساد وظلم شديدين. والعائلة التي تكلمنا عنها ـ أي: عائلة عمران ـ كانت تعيش في فلسطين، وكانت بيت المقدس تحت سيطرة الرومان، وهذه العائلة وغيرها من العائلات من مؤمني بني إسرائيل كلهم مضطهدون، وبنو إسرائيل قد ابتعدوا جداً عن نهج داود وسليمان عليهما السلام، وغرقوا في المادية، مما يعني أنهم كانوا ـ أي: هؤلاء العائلات ـ يعيشون في ظل وضع مشابه لوضعنا اليوم؟ أليس كذلك؟ ولكن كيف كانت تعيش هذه العائلة؟

كانت تعيش في ظل الكثير من المشاكل: فهي مؤمنة بما جاء به موسى ولكنها محاطة بقوم منشق فيما بينهم تحيط بهم المادية الشديدة، والخلافات المذهبية من كل جانب، يفرحون بتقليد الرومان في كل صغيرة وكبيرة وهذه العائلة تعرف الحق وتراقب كل ما يجري حولها.

ولكنهم قد يعجزون عن بناء النهضة والإصلاح، فلديهم مشكلة التقدم في السن، فعمران وزوجته أصبحا كبيرين جداً لم ينجبا غير هذه الابنة، التي تزوجت زكريا وكبرت بدورها أيضاً،

وزوجها أصبح عجوزاً ولم يرزق بأولاد فناجى ربه قائلًا: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ ٱلْعَظْمُ مِنِّي وَٱشْتَعَلَ ٱلرَّأْسُ شَيْبًا﴾ [مريم: 4].

وبنو إسرائيل غرقى في المادية واللهو والمعاصي والسهر في الليل، يظلمهم الرومان الذين يحتلون بيت المقدس... كل هذا الظلام والوضع الصعب للبلاد هل من السهل على رجل عجوز قد وهن العظم منه أن ينهض بالأمة؟!

ما هو الحل؟

خرجت من هذه العائلة المرأة الكبيرة، زوجة عمران، واسمها غير مذكور بل وغير معروف أيضاً، أتعرفون لماذا؟ لأن الاسم غير مهم في تقييم عمل الإنسان، تذكروها جيّداً؛ لأنها امرأة عظيمة في التاريخ، استطاعت رغم صعوبة الوضع التي كانت تعيش فيه أن تدرك أن الحلّ في الجيل الجديد، شباب يأتي وينهض بالأمة؛ فليس هناك إصلاح بدون شباب.

فماذا فعلت؟ بدأت هذه المرأة بالدعاء، يا رب، ارزقني ولداً كي أربيه تربية صالحة، وأنا أعدك بأن يصلح كل ما هو سيىء في هذا الزمان، وكانت صادقة تمام الصدق في دعوتها، هل عرفتم لماذا سميت السورة بـ«آل عمران»؟ لأن هذه الأسرة كانت نموذجاً للأسرة الصالحة.

المفاجأة:

المفاجأة، معجزة غير طبيعية، تحمل المرأة ورغم كونها

عجوزاً، وتحمل قبل ابنتها فتخيل هذا الموقف! تحمل بعد أن أصبح صهرها (زوج ابنتها) مشتعل الرأس شيباً!

ويبدأ القرآن يروي لنا حكايتها وهي تتحدث إلى ربها: ﴿إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا﴾ [آل عمران: 35]، ولننظر إلى كلمة «نذرت»، لقد نذرت امرأة عمران ما في بطنها خالصاً لله ولخدمة بيته، في حين أن الناس كلهم ينذرون، للدنيا.

لكن ما حصل من هذه المرأة أنَّها نذرت شيئاً للآخرة، نذرت شيئاً في سبيل الإصلاح، يا رب، لو مكنتني من الإصلاح سوف أفعل كذا وكذا.

وقد قالت: محرراً، أي: محرر من كل شهوة، وهي آتية من الحرية؛ لأن قمة الحرية أن تكون عبداً لله.

وأنت ان لم تكن عبداً لله، حتماً ستكون عبداً لأي شيء آخر، فمرة تكون عبداً لشهوة المال، ومرة عبداً لشهوة الجنس، ومرة عبداً للسلطة، ومرة عبداً للكرسي، وأخرى للمنصب... كن عبداً لله واترك ما دونه تسعد.

ولاحظ أن المرأة عندما تتبنَّى فكرة وتنوي تنفيذها تصبح محور حياتها وتبذل قصارى جهدها في التخطيط لها، فهي رغم العاطفة الجيّاشة التي أوجدها الله فيها قادرة على تحمّل أصعب المسؤوليات، وزوجة عمران هي بطلة القصة ومحورها الأساسي دون عمران فنحن لا نعرف عنه شيئاً.

فقولوا يا نساء الدنيا: أنا لن أقلد غيري من النساء فانهب حتى أورّث المال والجاه، بل أريد ولداً صالحاً مصلحاً في الكون حتى لو مات في سبيلك يا رب.

قولوا يا شباب: سنتعلم، سندرس كمبيوتر، سنفهم كيف تسير الحياة، سنأتي بالأموال من أجل أن نصلح؛ لأن الإصلاح يحتاج إلى أدوات.

سيدنا داود صنع أدوات حربية، سيدنا يوسف وضع خططاً اقتصادية، سيدنا نوح صنع سفينة جديدة ليس لها مثيل في عصرها، فالموضوع ليس عبادة فقط، بل الموضوع صناعة وإصلاح أيضاً، نعم... سأتعبد وأتذلل من أجل الإصلاح.

وماذا تكمل زوجة عمران؟ ﴿فَتَقَبَّلْ مِنِّيٓ﴾ [آل عمران: 35]، انظر إلى الأدب في الدعاء.

قل: نذرت هذا الولد لله، وسيكون لك في كل دقيقة حسنة في تربيته، لكن تقول: سآتيه بشيخ يعلمه القرآن وأنت تتشاجر دائماً مع زوجتك، وتغيب حتى نصف الليل خارج البيت وتضيع أوقاتك بأمور تافهة، وتضيع عليك صلاة الفجر... وفي الآخر تنتظر من الولد أن يكون نذراً لله، قائماً مطيعاً! صدقني أنت بذلك تطلب المستحيل. والآية التي قبلها ماذا تقول: ﴿وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾ [آل عمران: 34].

فلا تضحك على نفسك أرجوك، تشرب السجائر وتقول: أريد أن يكون ابني مطيعاً... كيف؟

زوجة عمران كانت صادقة، وزوجها ساعدها أيضاً؛ لأنها أسرة متكاملة ومتماسكة مع بعضها البعض.

يا شباب، ابحثوا عن شريك يعينكم على طاعة الله وعلى بناء مشروع لأجل الله تعالى فقط، حتى لو تأخر زواجكم لكن اختاروا الذي يصلح معكم.

نريد زيجات تصلح المسلمين، فتخيل لو أن عائلة كعائلة آل عمران تتبنى عملية اصلاح الأوضاع اليوم! هل هذا ممكن؟ نعم ولمَ لا؟

وانظر معي لهذه المفاجأة، هي طلبت أن يكون مولودها ذكراً، ليكون في كبره رجلًا قوياً صنديداً يحمل أعباء الأمة والمجتمع على كتفه، وقد ظنت أن هذه المهمة لا تكون لامرأة فماذا حصل؟

وضعت أنثى: ﴿فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾ [آل عمران: 36]، فتخيل دموعها في هذه اللحظة، وبدأت تفكر يا رب، إنك لم تستجب لي! وعلى عكس كلّ الناس لم تفرح؛ لأن الأُمنية ليس ذات الولد، فهي تريد أن تصلح وتبني، والفتاة ـ بنظرها ـ لا تصلح لهذه المهمة لهذا قالت: ﴿وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ﴾، لكنها لم تيأس، بل أكملت بحدة: ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [آل عمران: 36]، فإذا لم تنفع البنت يأتي بعدها جيل يصلح ويبني.

وانظر لكلمة: أعيذها بك من الشيطان الرجيم.

يقول النبيّ ﷺ: «**ما من مولود يولد إلا مسه الشيطان، فيبدأ حياته ببكاء وصراخ إلا مريم وعيسى**»[1].

لماذا؟ ببركة دعاء الجدة زوجة عمران.

قال تعالى: ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا بِقَبُولٍ حَسَنٍ وَأَنْبَتَهَا نَبَاتًا حَسَنًا﴾ [آل عمران: 37]، فأين هذا القبول؟

يريد ربنا أن يعلّمها ويعلمنا أن نصرة الإسلام والمسلمين ليست بالذكورة فقط، فمريم هذه ستكون رمز العفة ورمز الشرف ومضرب المثل في التاريخ.

فمن قال الإصلاح للرجال فقط؟

من أجل هذه النظرة الخاطئة جاء القرآن ليدعم الفكرة التي تقول: إن الرجل والمرأة سواء على أساس التقوى.

فيا زوجة عمران أنت تمنيت أن يكون لك من ضلعك ولد يحمل أعباء الأمة على كتفه، فسنعطيك بدل الواحد اثنين، حفيدين، هما: عيسى ويحيى، وهذان سيقودان الإصلاح في الأرض، كأن المعنى: أيتها المرأة الصالحة، إن دَعْوتُك لن تذهب هدراً.

فالله عنده سنة التدرج، وبنو إسرائيل لا يزالون غير مؤهلين لتقبل دين جديد وأفكار جديدة تنقذهم مما هم فيه، فزمن السّيدة

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 274).

مريم لا يصلح للبناء والإصلاح، لكن في زمن عيسى - ابنها - سيكون هذا الدور مؤهلًا ومهيأً.

هي تمنت من الله أن يصلح بني إسرائيل فستأتي مريم ومعها عيسى ليصبحان نموذجاً في هذا التاريخ كله وإلى يوم القيامة... أرأيتم نية المرأة المؤمنة؟ أرأيتم النية الصادقة القوية ماذا تفعل؟

فلا تيأسوا من الدعاء، واعرفوا أن الله تبارك وتعالى لا يضيع دعوة عبدٍ أبداً.

الناس التي تتذلل في الدعاء إلى الله لا يمكن أن تذهب دعوتها سدًى. ستَرَون خيراً كثيراً مضاعفاً إن شاء الله، ممكن ليس في جيلنا، بل في الجيل الذي بعدنا، ولمَ لا؟ ممكن في جيل أحفادنا، ولكن لنبدأ نحن في الإصلاح من الآن.

والحوار والمناجاة شيء جميل وهو غير الدعاء؟ كأن تقول له: يا رب، هل أنت راض عني؟ يا رب، أتغفر لي؟ يا رب، يا رب. ﴿إِنِّي نَذَرْتُ لَكَ مَا فِي بَطْنِي مُحَرَّرًا﴾ ﴿رَبِّ إِنِّي وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ﴾ ﴿وَإِنِّي سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾، ﴿فَتَقَبَّلَهَا رَبُّهَا﴾، أرأيت كيفية التذلل في الدعاء إلى الله.

وكبرت مريم وهي عابدة مستغرقة في العبادة، فقد تربّت أفضل تربية، ومعنى اسمها: العابدة، الخادمة لبيت المقدس ﴿كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا ٱلْمِحْرَابَ وَجَدَ عِندَهَا رِزْقًا﴾ [آل عمران: 37]، وسمي المحراب كذلك؛ لأنها تحارب فيه الشيطان بعبادتها. وكان كلَّما

دخل عليها محرابها وجد عندها فاكهة وهو الوحيد المتكفّل بطعامها وشرابها، فيتعجب من هذا الأمر ويسألها ﴿يَٰمَرۡيَمُ أَنَّىٰ لَكِ هَٰذَاۖ قَالَتۡ هُوَ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ إِنَّ ٱللَّهَ يَرۡزُقُ مَن يَشَآءُ بِغَيۡرِ حِسَابٖ ﴿٣٧﴾﴾ [آل عمران: 37]، فقال زكريا في نفسه: وأنا أريد أن أُرزق على كِبَر، كما رزقت أم مريم بها على كبر، ﴿هُنَالِكَ دَعَا زَكَرِيَّا رَبَّهُۥۖ قَالَ رَبِّ هَبۡ لِي مِن لَّدُنكَ ذُرِّيَّةٗ طَيِّبَةًۖ إِنَّكَ سَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ ﴿٣٨﴾﴾ [آل عمران: 38]، والآية أعربت عن مراد سيدنا زكريا بالولد، ﴿يَرِثُنِي وَيَرِثُ مِنۡ ءَالِ يَعۡقُوبَۖ﴾ [مريم: 6]، أي: يرث النبوة، وبدأ يدعو ويدعو حتى حصلت المعجزة الثالثة، أن رُزق بيحيى.

وكأن كل تلك المعجزات كانت تمهيداً لمعجزة عيسى عليه السلام، كي يتقبلها الناس، ، فتكون العائلة: عمران وزوجته، زكريا وزوجته، وحفيدين نبيين: عيسى ويحيى عليهما السلام، كما الحسن والحسين سيدا شباب أهل الجنة.

وكأن الله يقول لهم: أنتم نذرتم أنفسكم لي، إذن لا بد وأن تضحوا.

مِحَنهُم وابتلاءاتهم

وتبدأ التضحية من عند مريم، ويأتيها المخاض، وتقول: ﴿يَٰلَيۡتَنِي مِتُّ قَبۡلَ هَٰذَا وَكُنتُ نَسۡيٗا مَّنسِيّٗا ﴿٢٣﴾﴾ [مريم: 23]، من شدة الألم. ويُذبح يحيى ويؤخذ رأسه هدية لملك الرومان، إذ كان مهراً لامرأة لعوب، قالت للملك: إن كنت تريد الزواج بي، أحضر لي رأس يحيى.

قال النبيّ ﷺ: «**صعدت إلى السماء فإذا أنا في السماء الثانية، وجدت ابنَي الخالة عيسى ويحيى**»[1]، فيا للحظ العظيم لهذه العائلة ويا هنيئاً لها، يذكر اسمها في القرآن إلى يوم القيامة، وأحفادها أنبياء من ورثة أنبياء، ومخلدون في الجنة.

ويُقتل زكريا، كيف؟ يُنشر بالمناشير فيُغرق رأسه حتى يسقط نصفين. ﴿وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ﴾ [آل عمران: 112]، زكريا ويحيى، ويُهدد عيسى ويُرفع، وتُتهم مريم في عفتها، انظر لهذه الابتلاءات؟ أرأيت مثلها؟ لكن انظر أيضاً لصبر هذه العائلة التي صدقت مع الله.

مات زكريا ويحيى، ورُفِع عيسى، وبعدها بثلاثمائة عام يدخل الرومان في المسيحية.

وآخر كلمات عيسى عليه السلام قبل أن يُرفع: ﴿وَمُبَشِّرًۢا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنۢ بَعْدِى ٱسْمُهُۥٓ أَحْمَدُ﴾ [الصف: 6]، إذن كان دور هذه العائلة في الإصلاح مستمراً حتى آخر الزمان!

ألا تعلم أن عيسى عليه السلام سينزل في آخر الزمان؟ نعم، وسيصلي في المسجد الأقصى خلف إمام من المسلمين، فيقال: الصلاة، قم يا روح الله، فيقول: لا يا إمام المسلمين، أنت إمامهم أنت تصلي بهم، ويحكم بشريعة محمد ﷺ في الأرض.

هذا كله من خير المرأة التي دعت بإخلاص: ﴿إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ﴾، ويكون الحفيد هو المصلح، والمبشر

---

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 409).

بسيد الخلق أجمعين إلى يوم القيامة، يا أُسَرَنَا، يجب أن يكون لكم دورٌ في الإصلاح، فأنا أقترح عليكم الآن أن يجلس الأب والأم مع الأولاد وتقترحون فكرة مشروع في سبيل الإصلاح في الأرض، وأن تقلدوا هذه العائلة بإخلاص والله سميع عليم، فإذا لم يكن من أجل الإصلاح فمن أجل أن يرجع الحب بينكم، ويعود الدفء بدل الفتور الذي أصبح في معظم العائلات.

فكروا بخطط تساهم في تنمية بلدكم، تعاملوا مع جيرانكم بأمانة، ابحثوا عن الخير، وعن المشاريع الخيرية، افعلوا أي شيء، لكن أصلحوا أرحامكم تحركوا... أرحامكم.

قصة سيدنا محمد ﷺ

قصص الأنبياء:

رأينا من خلال قصص الأنبياء أن هناك معوقات كبيرة وكثيرة واجهتهم، هل تذكرون صبر سيدنا نوح عليه السلام على قومه؟ وكذلك توكّل سيدنا إبراهيم عليه السلام؟

فقصص الأنبياء لم تكن للسَّرْدِ فقط؛ بل هي تمهيد للذي بعده فهل أنتم مستعدون؟ وأنتم تعلمون أن الطريق طويل وممكن أن نتعرض للفشل مرة وأخرى، ولكن نعود ونقف ونحاول من جديد.

اذن قصص الانبياء هي عِبَر من أجل أن نتعلّم الإصلاح، ونحن خُلِقْنا من أجل الإصلاح في الأرض.

ولنستمر على طريق الأنبياء، هناك من صبر وهناك من مات وهناك من ضحَّى، لقد تحدثنا عن أنبياء كُثر من إبراهيم وآدم وداود وزكريا ويوسف عليهم السلام.

وكلهم كان يتوكلون على الله، ويصبرون ويضحون. فقصص الأنبياء ليست قصص معجزات فقط؛ بل هي قصص تعلّمنا الصبر والتضحية والتوكل.

حياة رسول الله محمد ﷺ

وختامها مسك نختم بسيرة رسول الله ﷺ والهدف أن نرى أن كل حياته كانت إصلاحاً في الأرض.

فالآية العظيمة تقول: ﴿وَإِذْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ لَمَآ ءَاتَيْتُكُم مِّن كِتَٰبٍ وَحِكْمَةٍ ثُمَّ جَآءَكُمْ رَسُولٌ مُّصَدِّقٌ لِّمَا مَعَكُمْ لَتُؤْمِنُنَّ بِهِۦ وَلَتَنصُرُنَّهُۥ﴾ [آل عمران: 81]، لقد جمع الله ﷻ كل الأنبياء من أول الخلق وأخذ من كلٍّ منهم الميثاق لو أنك عشت في زمن رسول الله ﷺ فعليك اتباعه.

يا إبراهيم لو أني بعثت محمد لتنصرنّه.

يا عيسى، يا موسى، يا نوح لو بعثت محمداً فانصروه.

قال تعالى: ﴿ءَأَقْرَرْتُمْ وَأَخَذْتُمْ عَلَىٰ ذَٰلِكُمْ إِصْرِى ۖ قَالُوٓا۟ أَقْرَرْنَا ۚ قَالَ فَٱشْهَدُوا۟ وَأَنَا۠ مَعَكُم مِّنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾ [آل عمران: 81]. وتكفيك هذه الآية فخراً أن يكون رسولك ونبيك محمد ﷺ.

بداية نزول الوحي

كان رسول الله ﷺ يذهب دائماً إلى غار اسمه: حِرَاء، ويجلس هناك يتأمل ويفكر ويسأل: من خلق كل تلك السمٰوات والنجوم وكل هذه المخلوقات؟ وهي عبادة كان يمارسها النبيّ مذ كان في عمر الثلاثين إلى سن الأربعين سنة، وكأنها كانت تهيئة ليكون نبي هذه الأُمّة.

ومن أعظم ميزات غار حراء هو أنك ترى السماء باتساعها، وعندما تنظر إلى الأسفل ترى الكعبة أمام عينيك، وكان الرسول ﷺ يبذل جهداً كبيراً للوصول إلى الغار.

وفي أحد الليالي يأتيه الملك فيقول الرسول ﷺ: «**فبينما أنا في الغار إذا بالملك فأخذني وضمني وغطني حتى ظننت أنه الموت، حتى بلغ مني الجهد ثم أرسلني وقال لي: اقرأ، وقلت: ماذا أقرأ، ثم أخذني في الثانية وغطني وضمني ثم أرسلني وقال لي: اقرأ، وقلت: ماذا أقرأ، ثم أخذني الثالثة وغطني وضمني ثم أرسلني، وقال لي: اقرأ حتى ظننت أنه الموت فقلت في الثالثة: ماذا أقرأ** قال: ﴿اَقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ ۝١﴾ [العلق: 113]»[1].

ولا بد من الوقوف على قضية هامة وكبيرة، وهي أول كلمة أنزلت: اقرأ، فديننا هو دين علم وإصلاح الى يوم القيامة.

لذلك كانت البداية قوية جداً، ومثلما قال الله تعالى لزكريا ويحيى وعيسى عليهم السلام: ﴿خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ﴾ [مريم: 12]، هذه الضمة التي ضمها جبريل عليه السلام للرسول ﷺ هي لكل واحد منا، أي: خذوا يا مسلمين الكتاب بقوة وتمسكوا به، فمن تمسك به لن يضل بعده أبداً.

بداية النبوة:

وينزل النبيّ ﷺ من الجبل، ويتوجه إلى زوجته السيّدة

---

(1) أخرجه **البخاري في** (الحديث: 3)، وأخرجه **الإمام أحمد في** «مسنده» (الحديث: 6/ 233).

خديجة ﵂ قائلاً لها: «**زملوني، زملوني**»، ومن هنا بدأ الإصلاح وبدأ بنشر الرسالة ودعوة الناس إلى التوحيد.

وبدأ العمل على الدعوة نهاراً وليلًا لا يهدأ، وتوالى نزول القرآن عليه وأول ما نزل من القرآن: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُزَّمِّلُ ۝١﴾، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمُدَّثِّرُ ۝١﴾، أي: قم الليل للصلاة وتعلم من القرآن وتحرك وادع الناس، يا أيها المزمل قم وادعُ الناس، ويا أيها المدثر قم فأنذر بالنهار واعبد ربك بالليل.

فأشفقت عليه السيدة خديجة ﵂ وقالت له: ألا ترتاح فيرد النبيّ ويقول: «**مضى زمن النوم يا خديجة**». وهذه نقطة البداية... رسالة الإسلام هي لإصلاح أحوالنا وأصدقائنا فإذا أردت اتباع سنة النبي ﷺ عليك أن تسلك نفس الطريق التي سار عليها.

بداية الدعوة

يبدأ الرسول ﷺ بدعوة أقرب الناس إليه زوجته وأصدقائه وأقربائه، فخلال ثلاث سنوات لم يؤمن برسالته سوى أربعة فقط وهم:

المرأة: هي زوجته السيدة خديجة ﵂.

والصِّدِّيق: هو سيدنا أبو بكر الصديق ﵁.

والعَبْدُ: وهو زيد بن حارثة ﵁.

وطفل في عمر الثانية عشرة وهو سيدنا علي بن أبي طالب ﵁

ابن عمه. وهؤلاء هم مصدر كل الخير الذي نعيش فيه الآن.

لا تقول إمكانياتنا قليلة فالنبي بدأ بأربعة فقط، ومن أول يوم أحضر سيدنا أبو بكر معه سبعة من أصدقائه، وهم من العشرة المبشرين بالجنة.

وبدأ يجتمع بهم في دار الأرقم بن أبي الأرقم يربيهم ويعلمهم الصبر والتضحية والتوكل، وتوالى نزول سور القرآن وقصص الأنبياء من «إبراهيم» و«يوسف» لتكون لهم مثلاً وتجربة.

وتنزل سورة «يوسف» و«هود» في هذا الوقت ليتعلموا منها الصبر ويجتمع النبي بالصحابة لمدة ثلاث سنوات سراً إلى أن يأتيه الأمر الإلٰهي ﴿فَٱصۡدَعۡ بِمَا تُؤۡمَرُ﴾ [الحجر: 94]، فيخرج النبي إلى جبل الصفا ويعلن بكل جرأة الإسلام، ويبدأ بالمناداة ويقول: «**يا بني عبد المطلب، يا بني أسد**»، ويسمي كل قبيلة باسمها، فلما سمعوه تجمعوا حوله فقال لهم: «**يا بني عبد المطلب، يا بني فهر، يا بني لؤي، أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلاً بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أكنتم مصدقيّ**».

قالوا: ما جربنا عليك كذباً، فقال: «**فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد**»[1].

ومن هنا بدأ إيذاء الرسول والصحابة... وضعوا الرمل على رأسه وهو يصلي فعاد إلى بيته، وقد امتلأ جسده وشعره تراباً، فتراه

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 281، 307)

ابنته زينب فتأخذ بالبكاء فيقول لها: «**لا تبكي يا بنيتي، إن الله ناصر أباك**»[1].

وفي أحد الأيام ذهب إلى الصلاة أمام الكعبة، وعندما سجد رموا على رأسه سلا جزور ـ أي: أمعاء جمل ميت ـ ورغم ذلك ظل ساجداً حتى لا تقع هذه الأوساخ على وجهه، وبينما هو كذلك وهم يضحكون عليه، تمر السيدة فاطمة وتبعد هذه الأوساخ وتبدأ بالبكاء ويقول لها نفس الكلام الذي قاله لابنته زينب: «**إن الله معز دينه وناصر أباك**».

انظر الى المعوقات انها كثيرة... ولكنه لم يستسلم.

وفي أحد الأيام، بينما هو يصلي يأتي عقبة بن أبي معيط، ويخلع عباءته ويلفها حول عنق الرسول ليخنقه ويمنع عنه التنفس. فيسقط الرسول على ركبتيه. كلّ هذه المِحَن من أجل أن تتعظ وتعلم حق العلم أن الإسلام بحاجة إلى من يضحي لأجله، وأن يتحمّل ويصبر مهما تعرض للإهانة، فالرسول خير الخلق أجمع، صبر، وضحى، وتحمل ليرفع راية الإسلام عالياً.

وبدأوا يسخرون منه ويسمونه مذمماً، وكان الصحابة يكرهون ذلك، والرسول ثابت صابر لأن همّه الأكبر كان الإصلاح في الأرض والدعوة إلى الله.

---

(1) ذكره **ابن كثير** في «البداية والنهاية»(3/ 122)

إيذاء الصحابة:

ويزداد الأذى له وللمسلمين ويموت من يموت، حتى أن هناك من فقدوا بصرهم من جراء التعذيب في مكة ولم يَعُد عن إسلامه أحد.

ويعذّب أبو جهل آل ياسر لما رأى عندهم من قوة وثبات وإيمان وما وجد عند أم ياسر (سمية)، تلك المرأة النحيفة، ذات الستين عاماً، من صلابة إيمان وهي تقول له: أحد، أحد، فمن شدة غيظه يمسك بالحربة ويطعنها بها ويمر الرسول أمامها ويقول لها: «**صبراً آل ياسر، إن موعدكم الجنة**»[1].

من الذي انتصر هنا أم ياسر أم أبا جهل؟! وتموت أم ياسر (سمية)، ويبدأ بتعذيب زوجها فيموت هو أيضاً، ثم انتقلوا إلى تعذيب ابنها ياسر.

وانظر كيف عذّبوا خباب بن الأرت، فقد وضعوه على الجمر عاري الجسم وما يطفىء النار إلا شحم ظهره، ثم يذهب إلى الرسول ويقول له: ألا تدعو الله أن يدعوننا وشأننا فيقول له الرسول ﷺ: «**والله لَيُتِمَّنَّ الله هذا الدين ولكنكم تستعجلون**»[2]؛ أي: اصبروا إن الطريق طويلة وتحتاج إلى صبر كثير وطويل، ورأت قريش أن العذاب لم يَعُد ينفع مع الصحابة لأنهم يزدادون قوة، فقالوا: لمَ لا نفاوضه؟ أي: نعرض عليه فقالوا له: إن أردت ملكاً

---

(1) أخرجه **الحاكم** في «المستدرك» (الحديث: 3/ 383)، وذكره **ابن كثير** في «البداية والنهاية»(3/ 59)

(2) أخرجه **الإمام أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 111)

ملكناك علينا وإن أردت مالاً نعطيك ما أردت، وإن أردت امرأة جميلة نعطيك ما تريد، ويَرُد عليهم الرسول وبكل هدوء وحكمة ورحمة: «**أفرغت يا أبا الوليد؟**»، قال له: نعم، فيجيبه الرسول فقال: «**فاسمع مني**»[1]، وبدأ يقرأ سورة «فصلت» إلى أن وصل إلى الآيـــــــــــة: «﴿فَإِنْ أَعْرَضُوا فَقُلْ أَنذَرْتُكُمْ صَٰعِقَةً مِّثْلَ صَٰعِقَةِ عَادٍ وَثَمُودَ ﴿١٣﴾﴾ [فصلت: 13]»، فوضع يده على فم رسول الله ﷺ وقال له: ناشدتك الرحم أن تسكت؛ لأن الآية أثَّرت فيه.

فذهبوا إلى عمّه أبي طالب وطلبوا منه التكلم معه، فسياسة المفاوضة لم تنفع وإلا سيقتلوه، وطلب أبو طالب من النبي أن يسمع لقومه ويجيب مطالبهم، فيردّ عليه النبي ﷺ ويقول مقولته الشهيرة: «**والله يا عم، لو وضعوا الشمس في يميني والقمر في شمالي على أن أترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أموت في سبيله**»[2]. فقال له أبو طالب: اذهب يا بني فافعل ما تشاء.

فاجتمع أهل قريش إثر ذلك ليقرروا ما سيفعلوه بالنبي، فكان أن أخرجوه وأصحابه إلى خارج مكة في شِعب بني طالب، وكانت السيدة خديجة تأتيهم بالطعام والماء فمنعوها من ذلك ولكنها رفضت قائلة: لا والله إلا أن أكون مع المسلمين.

موقف خديجة ووفاتها

تنضمّ السيدة خديجة إليهم ويستمر الحصار لثلاث سنوات حتى أكلوا من أوراق الأشجار وكان هذا أحد الأسباب في وفاة

---

(1) أخرجه **ابن حجر** في «المطالب العالية» (الحديث: 4285)، وذكره **السيوطي** في «الدر المنثور» (5/ 358).

(2) ذكره **الطبري** في «تاريخه» (2/ 126).

خديجة، وخرجوا من الشعب بعد هذه السنوات وقد زادهم البلاء ثباتاً على إيمانهم وصبرهم.

وتموت السيدة خديجة التي كانت تقف إلى جانبه وتحميه من قريش ويموت أبو طالب أيضاً ـ أي يفقد الاثنين معاً في نفس العام ـ إذن على من سيعتمد؟! ولماذا الاثنان توفيا معا في نفس العام؛ لأن الله يريد أن يقول له: ليس لك إلا الله لتعتمد عليه وتتكل عليه كجدك إبراهيم عليه السلام.

ويبذل الرسول ﷺ مجهوداً إضافياً فيقول: إذا لم يسمع منّي أهل مكّة لعل أهل الطائف يستجيبون ولكن أهل الطائف لم يكونوا أحسن حالًا من أهل مكة، إذ قاموا برميه بالحجارة حتى سال الدم من وجهه ورجليه ووقع مغشياً عليه، وزيد بن حارثة رضي الله عنه يحميه بجسده، وهنا ينزل عليه ملك ويقول له: يا محمد، لو شئت أطبق عليهم الأخشبين ـ أي: الجبلين اللذين يحيطان بالمدينة ـ فيقول له الرسول ﷺ: **«لا، عسى الله أن يخرج من أصلابهم من يعبد الله»**[1].

فلجأ إلى بستان في الطائف ورفع يديه بالدعاء إلى ربه: **«اللهمّ، إني أشكو إليك ضعف قوتي، وقلة حيلتي، وهواني على الناس، أنت رب العالمين، وأنت رب المستضعفين وأنت ربي، إلى من تتركني، إلى من تكلني، إلى بعيد يتجهمني، أم إلى عدو ملكته أمري، إن لم يكن بك علي غضب لا أبالي»**[2].

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 3231)، أخرجه **مسلم** في (الحديث: 4629).
(2) أخرجه **البغوي** في شرح السنة (الحديث: 6/ 167).

وبعد كل هذه الجراحات والابتلاءات حصلت رحلة الإسراء والمعراج تزكية لنفسه وليريه الله مقامه عنده وأنه راضٍ عنه، حصل كل ذلك لترى كم ضحّى النبي ﷺ في سبيل أن نكون مسلمين، وليكون قدوة لنا في حياتنا.

الدعوة خارج مكة

بعد أن أصرّ أهل مكة على كفرهم، انتقل لدعوة بعض القبائل خارج مكة، وعرض الإسلام على ست وعشرين قبيلة كلهم أجابوه بالرفض، إلى أن رأى مجموعة من الشباب يحلقون رؤوسهم فعرض عليهم الإسلام. وقرأ عليهم القرآن، فنظر بعضهم إلى بعض وقالوا: «هذا النبي الذي تتوعدنا به اليهود فلنسرع ولنلحق به» وحقيقة ذلك أن اليهود في المدينة كانوا يقولون للعرب: «حان وقت ظهور نبيّ آخر الزمان وسنقتلكم به شر قتلة» فصفات النبي كلها موجودة في التوراة عدا أنه من العرب، وكانت اليهود هي التي تبشر الناس بظهوره في المدينة، فقال لهم الرسول حينئذٍ: «**اذهبوا وعودوا إليّ العام القادم**»، فحضروا العام القادم وأصبحوا اثني عشر رجلاً مع أصدقائهم ثم قال لهم: «**عودوا العام الذي بعده**» وخلال هذا العام أصبح عددهم سبعين رجلاً وامرأتين، فبايعهم النبي ﷺ على الإسلام وأن ينصروه، ويمنعوه مما يمنعون به أنفسهم وأموالهم وأولادهم، ومنذ ذلك الوقت بدأت الهجرة[1].

هجرة الرسول

لا تعتقد أن الهجرة كانت سهلة، فمن الصعب أن يترك المرء

(1) ذكره **البيهقي** في «دلائل النبوة» (2/ 434، 435).

بلده وأهله فاسمع النبي يقول حين خرج من مكة وعيناه تدمعان من الحزن: «**والله يا مكة إنك أحب البلاد إلى قلبي ولولا قومك أخرجوني منك ما خرجت**»[1]، وقال الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ هَاجَرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوٓاْ أَوْ مَاتُواْ لَيَرْزُقَنَّهُمُ ٱللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ ٱللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُۥ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾﴾ [الحج: 58، 59] وبدأ الصحابة بالهجرة تباعاً تاركين بيوتهم وأموالهم، وبدأت في المدينة حياة جديدة جهاد تلو جهاد، دارت عشرات المعارك مع المشركين واليهود، كان النصر فيها حليف المسلمين، مع العلم أن النبي كان قد أصبح في عمر الستين، واسمع إلى سيدنا علي ﷺ يقول: كنا نختبىء وراء الرسول ﷺ كلما اشتدت المعركة وحمي الوطيس لنحتمي به، وكان ذلك في غزوة حنين حين هرب الناس وهو واقف رافع يده بالسيف ويقول: «**أنا النبيّ لا كذب، أنا ابن عبد المطلب**»[2]، وكان النبي ﷺ دائم الابتسام، كثير العبادة، يعلّم الناس القرآن ويأخذ بيدهم إلى الإسلام.

وبدأ الشيب يغزو شعره فيقول له أبو بكر: يا رسول الله ما هذا؟ فيجيبه: «**شيبتني سورة هود والواقعة والمرسلات**»، يقول عمر: ومن الذي شيبك؟ فيقول الرسول: «**قول الله: ﴿فَٱسْتَقِمْ كَمَآ أُمِرْتَ وَمَن تَابَ مَعَكَ﴾** [هود: 112]»، أي: أنت والمؤمنين اثبتوا،

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3925)

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 2874)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 4594)، وأخرجه الإمام **أحمد** في (الحديث: 1/ 264)، و (الحديث: 4/ 280).

وبدأ الرسول يصلي قاعداً، فقال له الصحابة: لماذا تصلي السنن قاعداً؟ فيقول لهم: «**من همي بالناس**»[1].

حجة الوداع:

وخرج قبل الوفاة ليحج حجة الوداع وأنزل الله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾ [المائدة: 3]، فيفرح سيدنا عمر بن الخطاب لهذه النعمة: فالدين قد اكتمل، ولكن أبا بكر يفهم ما تعنيه الآية ويبدأ بالبكاء فيسألونه: ما يبكيك؟ فيجيب وبكل هدوء: هذا نعي رسول الله، ويقف النبيّ أمام المسلمين في حجة الوداع ويقول لهم: «**أيها الناس، خذوا عني مناسككم فلعلي أن لا ألقاكم بعد عامي هذا**»[2].

اكتمال الرسالة

ويعود النبيّ ﷺ إلى المدينة، وقبل وفاته بتسعة أيام تنزل آخر آية في القرآن لتقول: ﴿وَٱتَّقُوا۟ يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِ ثُمَّ تُوَفَّىٰ كُلُّ نَفْسٍ مَّا كَسَبَتْ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٢٨١﴾﴾ [البقرة: 281]، وقبل وفاته بثمانية أيام يطلب منهم أن يزور شهداء أُحُد ويذهب إليهم ويقف أمامهم ويقول: «**السلام عليكم شهداء أُحُد، السلام عليك يا حمزة،**

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3297)، وأخرجه **الحاكم** في «المستدرك» (الحديث: 2/ 343)، أخرجه **الطبراني** في (الحديث: 17/ 287)، وأخرجه **أبو يعلى** في «مسنده» (الحديث: 107).

(2) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 3124)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 1970)، وأخرجه **النسائي** في (الحديث: 3062)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 3/ 337)، و (الحديث: 3/ 366).

أنتم السابقون وإنا إن شاء الله بكم لاحقون»[1]، وبينما هو عائد من زيارته لشهداء أُحد يبدأ بالبكاء فيقول له الصحابة: ما يبكيك يا رسول الله؟ فيقول لهم: «**اشتقت إلى إخوتي**»، فيقولون له: أليس نحن بإخوتك يا رسول الله؟ فيقول: «**لا، بل أنتم أصحابي، أما إخوتي فقوم يأتون من بعدي يؤمنون بي ولم يروني**»[2].

وفاته

ويعود النبيّ ﷺ إلى بيت زوجته ميمونة ويقول لهن: «لتجتمع زوجاتي» فيجتمعون فيقول لهم: «**أتأذنون لي أن أمرَّض في بيت عائشة**»، فيقلن له: أذنًا لك يا رسول الله.

ويحاول أن يقوم من مكانه ولكنه لا يستطيع فيقع أرضاً، فيحمله علياً والفضل بن العباس إلى بيت عائشة ﵂، وما أن رأى الناس الرسول ﷺ محمولاً، حتى بدؤوا بالتجمع في المساجد.

وأُدخل إلى بيت عائشة وهو يتصبب عرقاً وقالت عائشة: ما رأيت الرسول يتصبب عرقاً هكذا، فأخذت يده ثم بدأت تمسح بها جبينه، فقالوا لها: لم تفعلين ذلك؟ قالت: لأن يده أكرم من يدي، وبدأ الناس بالتجمّع في المساجد بدون طعام ولا نوم فيقول الرسول: «**احملوني إليهم**». فصبوا عليه الماء وحملوه إلى المسجد ووقف على المنبر وقال لهم للمرة الأخيرة: «**أيها الناس، لكأنكم تخافون عليّ، أيها الناس، موعدكم معي ليس في الدنيا، موعدكم معي عند الحوض، والله كأني أنظر إليه من مقامي هذا، أيها الناس،**

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 326).

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 198)، و(الحديث: 2588)، و(الحديث: 4442)، أخرجه **مسلم** في (الحديث: 936)، أخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 1618).

والله ما الفقر أخشى عليكم ولكن أخشى عليكم الدنيا أن تتنافسوها كما تنافسها الذين من قبلكم فتهلككم كما أهلكتهم، أيها الناس، إن عبداً خيَّره الله بين الدنيا وبين لقاء الله فاختار لقاء الله».

ولم يفهم الصحابة ما قصده الرسول بهذا الكلام ولكن الصِّديق فهمه وبدأ يقاطع رسول الله، مع أنه لم يكن من أحد يقاطعه وهو يتكلم، ويقول له أبو بكر: فداك أبي وفداك أمي ومالي وولدي.

فنظر رسول الله إلى أبي بكر، وقال: «**أيها الناس، دعوا أبا بكر والله ما لأحدٍ منكم من فضل إلا كافأناه عليه إلا أبو بكر لم أستطع مكافأته، فتركت مكافأته إلى الله ﷻ كل الأبواب إلى المسجد تغلق إلا باب أبو بكر لا يُغلق**»، ثم قال لهم أيضاً: «**أيها الناس، من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهري، فليقتص مني فإني أحب أن ألقى الله طيب النفس، ومن كنت شتمت له عرضاً فهذا عرضي فليقتصِ مني فإني أحب أن ألقى الله طيب النفس، ومن كنت أخذت منه مالاً فهذا مالي فليأخذ مني، ولا يخشى الشحناء فإنها ليست من طبعي**». فيقوم رجل ويقول له: أنا يا رسول الله، أخذت مني ثلاثة دراهم، فيقول الرسول: «**جزاك الله خيراً، يا عباس أعطوه ثلاثة دراهم**»، ثم يقول: «**أيها الناس، هل منكم أحد علي شيء**»، ثم قال: «**الله، الله في الصلاة وأوصيكم بالنساء خيراً، وأوصيكم بالأنصار خيراً، آواكم الله ونصركم الله، وأعانكم الله، ثبتكم الله، حفظكم وأيدكم الله**»، ثم قال: «**أيها الناس، أبلغوا مني السلام كل من تبعني من أمتي إلى يوم القيامة**»، ثم ينزل الرسول ويُحمل إلى بيته، ويضع رأسه إلى صدر السيدة عائشة ويرفع يده إلى السماء ويقول: «**بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى**»[1]. ففهمت السيدة عائشة أن الوحي يكلمه.

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 6/ 48).

ثم يدخل جبريل عليه السلام ويقول: السلام عليك يا رسول الله، فيرد النبي التحية بمثلها، ويدخل معه ملك الموت يستأذن أن يدخل على النبيّ فيقول له الرسول: **«ائذن له يا جبريل»**، فتفهم السيدة عائشة ويدخل ملك الموت ويقول: أرسلني ربي أن أخيرك بين البقاء في الدنيا وبين لقاء الله، فيقول له الرسول: **«بل الرفيق الأعلى، بل الرفيق الأعلى»**[1]. ويأتي ملك الموت عند رأسه الطيبة ويقول: أيتها الروح الطيبة روح محمد بن عبد الله، اخرجي برضاء الله ورضوان ربٍّ راضٍ غير غضبان، وتسقط يد رسول الله ﷺ ويثقل رأسه في صدر عائشة فقالت: ما كنت أدري ما أفعل لأني كنت صغيرة، ففتحت الباب ورأيت الناس أمام المسجد فنظرت إليهم وقلت: مات رسول الله، مات رسول الله، فقال عمر: لا لم يمت ومن يقول مات سأقطع عنقه، وبدأ علي بالبكاء، وأما أبو بكر فكان أكثر الناس ثباتاً فدخل بيته وقال له: طبت حياً وميتاً، ويحتضنه ويقبله بين عينيه ويقول: يا حبيباه، يا صديقاه، ويخرج للناس ويقول لهم: من كان يعبد محمداً فإن محمداً قد مات، ومن كان يعبد الله فإن الله حي لا يموت، ثم تلا الآية: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِيْن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٤﴾﴾ [آل عمران: 144].

وتأكد الناس من وفاة رسول الله، فدفنوه، وهنا تقول لهم ابنته فاطمة: أطابت أنفسكم أن تحثوا التراب على رسول الله.

ولم يستطع سيدنا بلال من شدة حزنه على وفاة رسول الله ﷺ

(1) تقدم تخريجه سابقاً.

أن يكمل أذانه وخاصة عندما قال: محمد رسول الله، فبدأ بالبكاء، وبكى الناس جميعاً.

أخي المؤمن... هذه هي قصص الأنبياء وكلها دلّت على أنهم كانوا خليفة الله على الأرض، وأنت وكل واحد منا خليفة الله على الأرض، لا تقل: أنا عاجز، لا تقولي: أنا امرأة عجوز، لا أستطيع أن أفعل شيئاً، والله أنتم مسؤولون عن الأرض، ومنهلكم في ذلك الكتاب والسنة؛ لأنها المرجع للخليفة، يرجع اليها كلما ضل الطريق على مر الزمان.

قال رسول الله ﷺ: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما: كتاب الله وسنة رسوله»[1].

(1) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 1/ 93).

فضل الدعاء

الدعاء هو سلاح عظيم، وأتمنّى لو تتوجّه كل طاقات هذه الأمة بالدعاء للمسلمين وللإسلام ولأبناء فلسطين والعراق.

جاء رجل من الصحابة وسأل النبيّ ﷺ وقال له: يا رسول الله، أبعيد ربنا فنناديه أو قريب هو فنناجيه؟ فنزلت الآية: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ ٱلدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [البقرة: 186].

كان من عادة رسول الله ﷺ عندما يسأله أحدهم سؤالاً في الدين يطلب منه أن يمهله ليسأل ربه عنه، ولكن هنا نزلت الآية القرآنية بسرعة رداً على هذا السؤال.

وتعني: إذا سألك عبدي عني فإني قريب، ولم يقل: قُلْ بمعنى أمر، ولكن أخبر ﴿فَإِنِّى قَرِيبٌ ﴿١٨٦﴾﴾، ولعل أقرب لحظات القرب من الله حين ترفع يديك لترجوه بالطلب والخشوع والدموع بالدعوة والإلحاح بالطلب.

لذلك يرد الله عليه بأني قريب وسأجيب دعوتك ودعوة من دعاني بهذه الدعوة؛ أي: أن الله سيستجب لعبده ساعة يدعوه سواء كان دعاء العبد في الليل أو في النهار، أي: أن الإجابة مضمونة؛

لأنه يجيب الدعوة. يقول الله تعالى: ﴿وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: 60]، أي إذا طلب مني أو دعاني فإني سأجيب دعوته ثم قال: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾، أي: الذي يتكبر عن عبادتي ولا يدعوني فهو في جهنم، أما الذي يدعوني فإني أستجيب له.

كيفية الدعاء:

انظر الى الكيفية والى الطريقة التي تدعو بها، لتكن الدعوة بالرحمة والتواضع والذل، وليس بالتكبر والعجرفة وبلا مبالاة.

يقول الحديث القدسي وقد رواه أنس بن مالك، وكان أنس يقول هذا الحديث وهو يجثو على ركبيته: «**يا عبادي، كلكم ضالّ إلا من هَدَيته فاستهدوني أهدكم، يا عبادي، كلكم جائع إلا من أطْعمْته فاستطعموني أطعمكم، يا عبادي، كلكم عاري إلا مَن كسوته فاستكسوني أكسكم، يا عبادي، إنكم تخطئون بالليل وبالنهار، استغفروني أغفر لكم**»[1].

يقول النبيّ ﷺ: «**الدعاء هو مخّ العبادة**»[2]، ويعني: التذلل لله، والعبد: هو الخاضع بين يدي مولاه، نقول: عُبِّدَت الأرض، أي: سويت، وذللت وهذا في اللغة العربية.

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2495)، وأخرجه **ابن ماجه** (الحديث: 4257).

(2) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3247)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 4/ 271).

عندما ترفع يديك لله وتقول له: اني محتاج اليك، فليكن دعاءك له بالتذلل والخضوع والخشوع والدموع، وهذه أسمى لحظات العبودية.

وهي التي تُشعِرَكَ بأنك بحاجة إلى الله، أي: إنك تقول له: ليس لي سواك لتستجيب لي وأنت القادر على كل شيء.

حتى وإن لم تكن بحاجة إلى طلب شيء معين، فالدعاء هو أيضاً مطلوب والتذلّل فيه عبودية لله.

الدعاء مسألة وعبادة:

وتعني: أنك هنا تعبد الله بالدعاء، يقول أحد التابعين: الدعاء ليلة القدر أحب إليّ من الصلاة.

ويقول الرسول ﷺ: **«من لم يسأل الله يغضب عليه»**[1] وقال أيضاً: **«لا تعجزوا مع الدعاء، فإنه لا يهلك مع الدعاء أحد»**[2].

يقول الله ﷻ: **«أنا عند ظن عبدي بي»**[3]، وتعني: أن ظن الله بك تماماً مثل ظنّك بالله، ومثلما يكون ذلك الظن يكون الدعاء.

وليكن الدعاء موجه للمجتمع، وللأفراد بشكل عام،

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 442).
(2) أخرجه **الحاكم** في «المستدرك» (الحديث: 1/ 494)، وأخرجه **المنذري** في «الترغيب والترهيب» (الحديث: 2/ 479).
(3) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 6747)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3603)، وأخرجه **ابن ماجه** في (الحديث: 3822).

وللأمة الإسلامية بشكل خاص، قال الرسول ﷺ: «إن الله يستحي، إن الله حيي كريم، أن يرفع العبد يديه ويقول: يا رب ويرده خائباً»[1].

إن الله يستحي من عباده المؤمنين أن يَرُدهم خائبين، عليك أن تدعو وأنت مُوقن بالإجابة.

استجابة الدعاء:

يقول سيدنا عمر ﷺ: أنا لا أحمل همّ الإجابة ولكن أحمل همّ أن لا أُلهم الدعاء، وهذا يعني: أن سيدنا عمر عندما يبدأ بدعاء ربه فهو لا يهمه إذا كان سيستجيب لدعوته أم لا؛ بل همّه الأكبر كيف سيدعو، ويقول أيضاً سيدنا عمر ﷺ: لأنا أشد خشية من أن أُحرم الدعاء أكثر من خشيتي من أن أُحرم الإجابة.

أي: أن همّه هو التركيز على الدعاء والإكثار منه وليس همّه سيستجاب له أم لا؟ ويخاف من الله أن يحرمه الإجابة؛ بل وأن يحرمه الدعاء. فلو اجتمعت شروط الدعاء من الخشوع والتذلل لله لا بد وأن يستجاب لك.

نماذج إجابة الدعوات في التاريخ

لقد استجاب الله تعالى لدعوات الكثير من عباده الصالحين. وهناك أمثلة من دعوات دعا بها الأنبياء الله تعالى، فاستجاب لهم

(1) أخرجه **البغوي** في «شرح السنة» (الحديث: 5/ 186)، وذكره **السيوطي** في «جمع الجوامع» (الحديث: 4808).

منها: دعوة سيدنا نوح عليه السلام: ﴿أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانْتَصِرْ﴾ [القمر: 10]، لقد أوذيَ سيدنا نوح كثيراً من قومه طيلة سنين كثيرة، فدعا الله ﷻ أن ينصره على قومه الكافرين، لقد تغيرت نواميس الكون من أجله فقال الله تعالى: ﴿فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُنْهَمِرٍ ﴿١١﴾ وَفَجَّرْنَا الْأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَى أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ ﴿١٢﴾﴾ [القمر: 11، 12].

كذلك سيدنا زكريا عليه السلام إذ دعا ربّه فقال: لقد أصبحت رجلاً عجوزاً وامرأتي عاقر، ولم أرزق بأي ولد ويقول في دعائه: ﴿رَبِّ لَا تَذَرْنِي فَرْدًا وَأَنْتَ خَيْرُ الْوَارِثِينَ﴾ [الأنبياء: 89]، فيرد الله تعالى عليه ويستجيب لدعوته ويقول: ﴿فَاسْتَجَبْنَا لَهُ وَوَهَبْنَا لَهُ يَحْيَى وَأَصْلَحْنَا لَهُ زَوْجَهُ﴾ [الأنبياء: 90].

كذلك سيدنا سليمان عليه السلام وهو في العصور الغابرة دعا ربه وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ بَعْدِي﴾ [ص: 35]، لقد أوتي سليمان ملكاً لم يؤت لأحدٍ من بعده أبداً، حتى ونحن في هذا العصر والتقدم التكنولوجي لم يصل التطور العلمي إلى ما أعطي لسليمان من النِعَم والملك.

كذلك دعوة سيدنا إبراهيم عليه السلام وهو في وسط الصحراء، أي: في مكة: ﴿رَبِّ اجْعَلْ هَذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ﴾ [البقرة: 126]، فاستجاب الله له دعوته، ورغم آلاف السنين، لا زالت دعوته نافذة، وينعم بها أهل مكة من الخير والثمرات إلى يوم القيامة.

وسيدنا أيوب دعا ربَّه أن يكشف عنه ضره ومرضه، ولم ييأس ولم يستسلم للمرض، بل قال: ﴿أَنِّي مَسَّنِيَ الضُّرُّ وَأَنْتَ أَرْحَمُ

ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿٨٣﴾ فَٱسْتَجَبْنَا لَهُۥ فَكَشَفْنَا مَا بِهِۦ مِن ضُرٍّ ﴿٨٤﴾ [الأنبياء: 83، 84].

هذه هي بعض النماذج والأمثلة لدعوات الأنبياء... لماذا لا ندعو الله بطريقتهم؟!

دعاء رسول الله ﷺ

يقول أبو هريرة للرسول ﷺ: يا رسول الله، دعوت أمي سنوات طويلة للإسلام ولكنَّها تأبى وتسبني وتسمعني فيك كلاماً يؤلمني ويؤذيني، ادع الله أن يهدي أم أبو هريرة.

فجلس النبيّ ﷺ ورفع يديه وقال: «**اللهمّ اهدِ أم أبو هريرة**»[1]، فقال أبو هريرة: فاستبشرت خيراً بدعوة النبيّ ﷺ وقلت: إن شاء الله السنة القادمة تؤمن أمي، ثم عدت إلى منزلي وعندما اقتربت من باب المنزل سمعت صوتي من الداخل، فقالت أمي: يا أبا هريرة مكانك، فتوقفت وظننت أنها ستبدأ بالسباب والشتم، ففتحت الباب وقالت لي: يا أبا هريرة، أشهد أن لا إلٰه إلا الله، وأن محمداً رسول الله، فعندما سمعتها بكيت وعدت إلى النبيّ ﷺ وقلت له: استجاب الله لدعوتك الآن، فقال له الرسول ﷺ: «**الحمد لله**»، فقال أبو هريرة: أريد أن تدعو لي ثانية، فاعتقد الرسول أنه سيطلب منه هذه المرة بأن يرزقه المال، فقال له

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 6346)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 320)، وأخرجه **البغوي** في «شرح السنة» (الحديث: 13/ 307).

أبو هريرة: يا رسول الله، ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى المؤمنين ويحبب المؤمنين إلينا. فقال له الرسول ﷺ: «**اللهم حبب عُبَيدِكَ هذا هو وأمه للمؤمنين، وحبب المؤمنين إليهما**»، فيقول أبو هريرة: فلم يسمع بي صحابي ولا تابعي ولا أحد إلا أحبنا أنا وأمي.

لكن دعوة النبي الكبيرة ادخرت إلى يوم القيامة، ولم يستعملها.

قال الرسول ﷺ: «**لكل نبي دعوة مستجابة، أما أنا فادخرت دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة**»[1].

لا تقل أن هذه الدعوات للأنبياء فقط؛ بل هي لكل شخص، ولكل فرد يدعو بتذلل وخشوع وهو موقن بالإجابة.

قال النبيّ ﷺ للصحابة: «**سيمر بكم رجل ليس من الصحابة؛ بل هو من التابعين اسمه: أويس القرني من اليمن، فإذا جاءكم فإن استطعتم أن تطلبوا منه أن يدعو لكم ويستغفر لكم فافعلوا**»، فمن الممكن أن يدعو الصغير للكبير وبالعكس.

يقول سيدنا عمر ﷺ مستغرباً كلام الرسول ﷺ: نظرت إلى النبيّ ﷺ وهو ينظر إليّ ثم قال لي: «**وأنت يا عمر إن أدركت أويس فاسأله أن يدعو لك**»[2]، وبعد وفاة الرسول ﷺ قال عمر: كنت أنتظر مواسم الحج كل عام وكلما مرت قبيلة أو وفد من اليمن

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 497)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 3/ 219).

(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 6438).

أسألهم عن أويس القرني حتى وجدته وطلبت منه أن يدعو لي ويستغفر الله لي.

الدعاء للجميع:

يستجيب الله تعالى دعاء الصغير والكبير، النساء والرجال والأطفال، فالله قريب يجيب دعوة كل داعٍ، وأبوابه لا تغلق أبداً.

والإنسان ينسى كَمْ دعوة استجابها الله له، فتذكر أيها الإنسان كَمْ دعوة أجيبت لك، واعلم أن الشيطان هو الذي ينسيك فضل الله عليك وفضل الدعاء وفضل الاستجابة؛ لأنك لو تذكرت كل دعوة أجيبت لك، فإنك ستظل متعلقاً بالله.

كان الصحابة يكثرون من الدعاء ولكن مع العمل الدائم دون توقُّف، حتى يستجاب لهم.

تذكر أن الدعاء هو السلاح الذي يخلّصك... كان الصحابة يؤجّلون الدعاء الى ليلة القدر، فيقضون كل الليل في الدعاء حتى الفجر، ويلحّون بالطلب وبالخشوع والتذلل، وهم موقنون بالإجابة ويقولون: والله لا يأتي رمضان القادم حتى يستجيب الله لدعوتنا.

شروط الإجابة:

يقول ابن القيم: هذا الدعاء لا يردّ أبداً.

1 ـ اليقين في الإجابة عند الدعاء:

يقول الرسول ﷺ: «**ادعوا الله وأنتم موقنون في الإجابة**»[1]، ويقول أيضاً: «**لا يدعونَّ أحدكم فيقول: رب إن شئت أعطيتني كذا، ولكن ليعزم في المسألة**»[2].

أي: إن أردت أن تُعْتَق من النار، فلتكن الدعوة بعزم، وادعُ وأنت موقن بالإجابة... استمع إلى دعوات الأنبياء كلها يقين بالإجابة.

يقول سيدنا زكريا عليه السلام: ﴿وَلَمْ أَكُنۢ بِدُعَآئِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [مريم: 4].

أي: كلما دعوتك كنت تستجيب لي دائماً.

وكذلك دعوة النبيّ إبراهيم عليه السلام: ﴿إِنَّ رَبِّى لَسَمِيعُ ٱلدُّعَآءِ﴾ [إبراهيم: 39]، أي: أدعُ وأنت مطمئن بالإجابة.

أعرف شخصاً سافر إلى العمرة ليدعو الله أن يهدي صديقاً له يحبه كثيراً وهو في مصر، فعندما عاد منها وجد صديقه قد هداه الله إلى الصلاح والخير، انظر إلى المدة كانت أسبوعين فقط، واستجيبت الدعوة، لماذا؟ لأنه دعا بإخلاص ونية صادقة ثقة بالله .

وهناك أشخاص يدعون الله أن يرزقهم الأولاد وتمر سنوات طويلة ولا يستجاب لهم، وفي يوم يكون الدعاء فيه صادقاً

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3479)، وذكره **السيوطي** في «الدر المنثور» (الحديث: 1/ 195).

(2) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 6339)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 1483)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3497).

فيستجيب الله لهم، ويرزقهم الأولاد، هذا ليس صعباً على الله؛ لأن الله قادر على كل شيء قدير.

2 ـ الخشوع والتذلّل لله أثناء الدعاء:

يقول عبد الله بن عمر ﷺ: أنا أعلم متى يستجاب الدعاء، قالوا له: كيف؟ قال: إذا خشع القلب، واهتزت الجوارح ودمعت العين يستجاب الدعاء.

يقول العلماء: من جمع الله قلبه وقت الدعاء استجيب له.

انظروا إلى الخشوع والتذلّل لله... ستكون استجابة الدعاء على قدر التذلّل.

اذهب إليه بذلّك يمدك بعزه، اذهب إليه بفقرك يمدك بغناه، اذهب إليه بضعفك يمدك بقوته.

يقول الإمام ابن حنبل: هل تعلمون متى يستجاب الدعاء؟ رجل في بحر هائج سقط من سفينته تعلق بخشبة فيدعو ويقول: يا رب، فإذا دعوتم مثل ذلك الرجل حتماً سَيُستجاب لكم.

قال تعالى: ﴿أَمَّن يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ﴾ [النمل: 62]، والمضطر هو المتذلل لله، انظر إلى النبيّ ﷺ وهو يدعو الله يوم معركة بدر... ظل يدعو حتى سقطت عباءته وبدأ يلح بالدعاء والتذلّل له، ويقول له أبو بكر: هوّن عليك يا رسول الله، إن الله لن يخذلك أبداً لذلك تقول الآية: ﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ﴾ [الأنفال: 9].

أنين المذنب هو أحب اليه من تسبيح المرائي، يا مذنبين، يا أصحاب الكبائر، ادعوا الله أن يغفر لكم.

3 ـ عدم الاستعجال:

قال النبيّ ﷺ: «**يستجاب لأحدكم ما لم يستعجل**»[1]، أي: تقول دعوت ودعوت فلم يستجب لي، فتترك الدعاء، حينها يمكن أن يدعو أحدكم الله عشر سنوات أن يهدي الله له إخوته أو ابنه أو أخته مثلاً حتى يستجاب له، لذلك لا تستعجل الإجابة، ذلك مثل الذي يذهب فيزرع ثمرة ويريد أن تزهر بسرعة وهذا لا يحصل؛ لأن الثمرة لا تزهر إلا بوقت خصصه الله لها، كذلك مثل الدعوة فلا يستجاب لها إلا في الوقت الذي خصّصه الله لها.

أحياناً يعجّل لك الدعاء لمصلحتك، وأحياناً يؤخر لك الله دعاءك إلى أن يسمع صوتك وأنت تتذلّل إليه بكل خشوع.

جاء في الأثر: قال الله تعالى: يا جبريل، دعاني عبدي؟ يقول: نعم يا رب، أتذلّل لي عبدي؟ قال: نعم يا رب، قال: يا جبريل، أخِّر مسألة عبدي، فإني أحب أن أسمع صوته.

4 ـ أكل الحلال:

إن كان هناك شك عند أي أحد منكم في ماله، فليخرج

---

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 6340)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6869)، وأخرجه **أبو داود** في (الحديث: 1484)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3387)، وأخرجه **ابن ماجه** (الحديث: 3853).

صدقته حالاً والآن؛ لأن الصدقة تطهر أموالكم وهذا مهم جداً.

يقول النبيّ ﷺ: «**ثم ذكر الرجل يطيل السفر أشعث أغبر مضطر ويدعو الله ويتذلّل، مطعمه حرام وملبسه حرام وغذيَ بالحرام فكيف يستجاب له**»[1].

لذلك طهّروا أموالكم وتصدقوا وادفعوا زكاتكم حتى يستجيب الله دعاءكم.

آداب الدعاء:

ترفع يديك إلى السماء وتتذلّل مثل النبيّ ﷺ ثم تبدأ بالقول: الحمد لله ثم الصلاة على رسول الله ﷺ، وتبقى تستغفره تتوب إليه وتخفض رأسك وتخشع على قدر استطاعتك، وتنادي الله بأسمائه الحسنى، وتُخرج صدقة على أموالك، والله هذا الدعاء لا يرد.

لا تقل: إني لا أعرف كيف أدعو، ادعُ بأي طريقة، بالإحساس الذي في داخلك، جاء صحابي إلى رسول الله ﷺ قال له: أنا لا أعرف كيف أدندن مثلك ومثل معاذ، فيسأله الرسول: «**ماذا تقول؟**»، فيقول له: أقول: اللهمّ أدخلني الجنة ونجني من النار، فيقول له النبيّ ﷺ: «**حولها أنا أدندن أنا ومعاذ**»[2].

سر الدعاء: «اللهم إنك عفو كريم تحب العفو فاعفو عنا».

---

(1) أخرجه **مسلم** في (الحديث: 2343)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2989).

(2) أخرجه **أبو داود** في (الحديث: 792)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 73).

هذا هو المفتاح:

يروى عن عائشة ﵂ أنها سألت النبي ﷺ مرة: يا رسول الله، ما أقول إن أدركتني ليلة القدر؟ قال: «**قولي اللهمّ إنك عفوّ تحب العفو فاعف عني**»[1].

قد يتبادر إلى كثير من الناس عندما يستمعون لهذا الحديث أن هذا هو المطلوب فقط. فيقولون: نريد شيئاً عظيماً ندعو به في هذه الليلة، وأنا أقول لهم: هذا أعظم ما تدعون به الله في هذه الليلة، فهذا هو المفتاح.

انظر معي: «**إنك عفو تحب العفو فاعف عني**». كلها عفو، أي: أن الله تعالى يتجلى في هذه الليلة باسمه العفو. والنبي ﷺ هو الذي أشار أن مفتاح هذه الليلة هو هذا الدعاء.

لماذا اسم العفو:

فلماذا اسم الله العفو؟ وليس الغفور مثلًا؟ أو ليس: اللهم إنك غفور، تحب المغفرة فاغفر لي! فنحن طوال العام ندعوه باسمه الغفور، لكن هذه الليلة ندعوه باسمه العفو.

تعالوا نعيش مع اسم الله العفو، وندرك معناه حتى ندعوه به.

وما الفرق بين اسم الله العفو، واسم الله الغفور؟

العفوّ يا إخوتي صيغة مبالغة من العفو، أي: المبالغة في العفو، فهو يسامح ويسامح ويسامح، ويتجاوز ويتجاوز، حتى يمحو ويطمس.

---

(1) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 6/ 171).

أما الغفور، فيسامح ويتجاوز لئلا يحاسبك على الذنب، فالغفور لن يعاقبك، أما العفوّ فسيمحيه أصلاً.

مثلاً: صحيفة فلان، تكون يوم القيامة ملأى بالسيئات، وأمام كل سيئة عقابها، وفي آخر الصحيفة يُكتب فيها: فلان لن يُعاقب، فهذا هو الغفور، أما العفوّ: فإن الصحيفة تمزق ويأتي يوم القيامة وصحيفته بيضاء ليس عليها شيء، تُمحَى من جذورها. أرأيت الفرق بين العفوّ والغفور؟

الغفور لن يعاقبك يوم القيامة، لكن قد يُسائلك ويعاتبك، وقد تُفضَح يوم القيامة: ﴿ٱلْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَىٰٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَآ أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٦٥﴾﴾ [يس: 65]، ﴿وَقَالُوا۟ لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدتُّمْ عَلَيْنَا ۖ قَالُوٓا۟ أَنطَقَنَا ٱللَّهُ ٱلَّذِىٓ أَنطَقَ كُلَّ شَىْءٍ﴾ [فصلت: 21].

هول الموقف:

تخيل معي هذا الموقف! تخيل يدك وهي تشهد عليك يوم القيامة، يا رب، فعل بي كذا، سرق، تطاول على أمه وأبيه، شرب الخمر، تعاطى المخدرات، شرب السجائر وهو يعلم أن هذه الأفعال من الخبائث، لمس امرأة بالحرام... تخيل يديك وهما تشهدان عليك. أو يأتي جسدك فيشهد، زنى بيّ، ذهب للمكان الفلاني، خان زوجته... تخيل الفضيحة، وفي آخر الأمر لا يعاقبك؛ لأنه الغفور.

أما العفوّ: فكأنك لم تفعل شيئاً؛ لأن ذنوبك مُحيت أساساً وسجلات الملائكة قطِّعت، ويمكن أن ينسيك أنت أيضاً الذنب.

العفو يعني: الماحي، أي: أصبحت الصحيفة بيضاء، فيوم القيامة لن تقف أمام الخلق وتفضح لماذا؟ لأنه عفوّ، أرأيت فضل هذه الليلة؟ ليس أنه فقط لن يعاقبك، بل لن يفضحك أيضاً.

يأتي يوم القيامة منادٍ فينادي: أين الكذابون؟ والبشرية كلها تسمع، فيقوم أناس وأناس وأنت منهم، أين العاصون؟ فيقوم أناس وأناس، وأنت منهم أيضاً، ليقم من خدع زوجته، لتقم من خدعت زوجها، ليقم من خان أمه وأباه، وأنت في كل مرة تكون واحداً منهم، وأراك يا مسكين، كلما نودي في ذنب تقف وتُفضح، ليقم الزناة، ليقم من فعل الكبائر... انظر الفضيحة، والناس تقول: كل هذا؟ وكان يداري بيننا في الدنيا، فيأتي أخيراً ويقال لك: السماح لك، ليس لك عقوبة، لكن في حالة العفو، أنت لن تقف أبداً.

أتشعر معي بمعنى العفو؟ أتشعر بمعنى هذا المفتاح العظيم الذي أعطاه الرسول ﷺ لعائشة رضي الله عنها ولنا من بعدها؟

تخيل الميزان يوم القيامة فيه الحسنات والسيئات، وفيه السيئات مجسدة أمام عينك: ﴿إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٩﴾﴾ [الجاثية: 29]، ﴿وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَىٰ ظُهُورِهِمْ ۚ أَلَا سَاءَ مَا يَزِرُونَ ﴿٣١﴾﴾ [الأنعام: 31]، فتخيل وأنت تأتي بالفاحشة الفلانية وهي مجسدة وضخمة فتوضع في ميزانك؟

تخيل هذه الكارثة والفضيحة؟ وأخيراً يقول لك: غفرت لك هذا هو معنى اسمه تعالى الغفور. لكن العفو: لن توضع أساساً؛ لأنه عفا ومحا، وذلك لأنك قلت: «اللهمّ إنك عفو تحب العفو، فاعف عني»، فعفا عنك.

وليس هذا فقط... بل العتاب يوم القيامة يكون بأن تقف بين يدي الله سبحانه وتعالى ويقول لك: أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟ والناس تسمع، تخيل هذه الوقفة وسط الخلائق. ينادَى: فلانة بنت فلان، هلمّ للعرض على الجبّار، فتقف أمام الله والناس كلها تنظر، والملائكة تعرفك؛ لأنك أكثر شخص يرتعش بين الخلائق حينما يُنادَى عليك، فتأتي وتحاسب أمام الجميع، أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟ ألم أنعم عليك؟ ألم أرزقك؟ ألم؟ ألم؟ ألم؟

تخيل الإحساس في هذه اللحظة!

يقول سيدنا علي بن أبي طالب: أعلم أقواماً سيسقط منهم لحمهم خجلًا، وهم تُعرض قبائحهم على الله ﷻ.

وأخيراً يقول لك: غفرت لك، أما العفو، فهذا كله لن يحصل. يروى أنك تأتي يوم القيامة، فيقول الله ﷻ: أُدنُ يا عبدي، فيُرخي عليك ستره حتى لا يسمع أحد: يا عبدي، أتذكر ذنب كذا؟ أتذكر ذنب كذا؟ فتقول: يا رب، فيقول الله ﷻ: يا عبدي، سترتها عليك في الدنيا، وها أنا أغفرها لك اليوم، اذهب يا عبدي فادخل جنتي، ذلك لأنك قلتها من قلبك ذات يوم في ليلة القدر: «اللهمّ إنك عفوّ تحب العفو فاعف عني».

العفو والرضى:

أتشعر هذا المعنى الرائع في العفو؟

العفوّ أي: الماحي، تقول العرب: محت الآثار، أي: أزالتها، أي: عفت.

عندما تثبت آثار الأقدام في الرمال تأتي الرياح فتمحوها، أي: تعفو أثرها.

تخيل هذا الموقف الجميل! تأتي وكُلُّك أخطاء ثم يقال لك: مُرّ فليس عليك شيء.

وللعفوّ معنى آخر غير الأول، العفو الذي يرضى بعد أن يغفر. فليس أن يعفو بأن يمحو فقط، بل ويرضى عنك أيضاً.

الغفران ليس من شروطه أن يكون راضياً عنك، لكن العفو لا بد وأن يكون قد محا وسامح ورضي.

الستار: يسترك لكنه غير راضٍ عنك.

أرأيت هذا المفتاح الذي أهدانا إياه الرسول ﷺ؟

قد ترى أحد المتخاصمين يقول: اعفُ عني، فيقول الآخر: عفوت عنك، فيقول: وهل قلبك راضٍ؟ فيقول: أجل راضٍ. فهذا هو العفوّ.

قلها من قلبك: اللهمّ انك عفوٌّ تحب العفو فاعف عني. وصدقوني قد يكون العاصي الآن أكثر حرقة فيقولها من كل قلبه.

الكبائر والعفو:

والملاحظ أن كلمة العفو تأتي دائماً مرافقة للكبائر في القرآن الكريم، فلا تظنوا أنها للطائعين فقط، وأن العاصين ليس لهم شأن بهذا الموضوع.

فانظر معي: ﴿وَإِذْ وَٰعَدْنَا مُوسَىٰٓ أَرْبَعِينَ لَيْلَةً ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿٥١﴾﴾ [البقرة: 51]، تخيل، عبدوا العجل من دون الله ﷻ، فماذا تحتاج هذه؟ ﴿ثُمَّ عَفَوْنَا عَنكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٥٢﴾﴾ [البقرة: 52].

من أكبر الذنوب أن تتوانى ساعة المعركة عن القتال في سبيل الله، فالتولى يوم الزحف هو من أكبر الكبائر في الإسلام، وتقول الآية: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ﴾ [آل عمران: 155].

العفو مع التوبة:

كيف نقابل عفو الله تبارك وتعالى؟

نقابله بالتوبة، فليس لي أن أصر على معصيتي وأطلب العفو من الله وأنا أكابر، فلماذا لا نقابل العفو بتوبة؟ قدم القليل تحصل على الكثير. «**إن الله يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار، ويبسط يده بالنهار ليتوب مسيء الليل**»[1]، إن الله يفرح بتوبة عبده، فتخيل يغفر لك ويسامحك، ثم يفرح بتوبتك أيضاً.

والرسول ﷺ يضرب لك مثلاً رجلاً يمشي في صحراء ويجرّ وراءه ناقته، وفي وسط الصحراء تجري الناقة وتهرب، وعلى ظهرها الطعام والشراب فيوقن بأنه سيموت، ويحفر حفرته ليموت فيها، وهو يائس، وإذا بالناقة فوق رأسه وعليها طعامه وشرابه، فمن شدة

(1) أخرجه مسلم في (الحديث: 6921)، وأخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 4/ 395).

فرحه دعا ربه وأخطأ في الدعاء حيث قال: اللهمّ أنت عبدي وأنا ربك، تخيل هذا المعنى! فيقول الرسول ﷺ: «**لله أفرح بتوبة أحدكم من هذا الرجل**»[1].

أتعلم لماذا؟ أب لديه خمسة أولاد وكلهم طائعون، إلا واحداً عاقّ جداً، فكرهه الأب من شدة عقوقه، فاليوم الذي سيرجع الابن العاصي هذا ويقول لأبيه: يا أبتِ سامحني تبت ولن أعود، ففرحة الأب حينها ستكون أكبر من فرحه بطاعة أولاده الباقين.

فلأجل ذلك تكون فرحة الله بتوبة عبده أكثر من فرحته بالطائعين من قبل.

فما هو أجمل يوم في حياتك؟ يا ترى يوم أن تزوجت؟ أو يوم رزقت بمولود؟ أو يوم نجحت؟

لا والله ليس هؤلاء جميعاً، أجمل يومٍ في حياتك يوم يتوب الله عليك ويعفو عنك.

أبشر بالتوبة:

الصحابي: كعب بن مالك ﷺ، تخلّف عن غزوة تبوك دون عذر فأمر النبيّ ﷺ جميع الصحابة ألا يكلموه خمسين يوماً.

وفي اليوم الخمسين نزلت الآية بتوبة الله ﷻ على كعب، ونزلت الآيات عند صلاة الفجر، وكعب يصلي على سطح بيته،

(1) أخرجه **البخاري** في (الحديث: 6308)، وأخرجه **مسلم** في (الحديث: 6890)، و(الحديث: 6892)، وأخرجه **الترمذي** في (الحديث: 2497)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 2/ 534).

فتسارع الصحابة كلهم يريدون أن يبشروا كعباً بتوبة الله ﷻ عليه.

فيصعد صحابي فوق الجبل ويصيح: يا كعب بن مالك، أبشر قد تاب الله عليك. وصحابي آخر يصعد على فرسه ويجري مسرعاً نحو بيته يريد أن يبشّره، لكن الصوت كان أسرع، فأول ما سمع الصوت سجد شكراً لله، فلما وصل الثاني خلع كعب عباءته وأعطاه إياها وقال: والله ما أملك غيرها.

ويذهب إلى المسجد فيتلقاه الناس في الطرقات وهم يهنّئونه بالتوبة.

ودخل المسجد ونظر إليه النبيّ ﷺ وابتسم، ووجهه كقطعة قمر، وقال له: «**تعال**» فذهب خجلاً من المعصية، فقال له: «**تعال**»، فجلس بين يديه، فنظر إليه الرسول وقال: «**أبشر يا كعب بخير يوم طلع عليك منذ أن ولدتك أمك، تاب الله عليك**»[1].

شروط التوبة:

فأجمل يوم في حياتك يوم أن يتوب الله عليك. وشروط التوبة ثلاثة:

1 ـ الندم.

2 ـ التوقف عن الذنب.

3 ـ عدم العودة إليه.

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3102)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 3/ 459).

ابتعد عن كل ما هو محرم، ابتعد عن كل ما يغضب الوالدين، لا تترك الصلاة والزكاة واعمل على نصرة الدين، ابتعد عن كل هذه الأمور ونفّذ شروط التوبة. نسأل الله التوبة والعفو عنا.

أحاديث العفو:

تعالوا نعيش مع أحاديث العفو، قال رسول الله ﷺ: «**ما من يوم إلا ويستأذن البحر ربه، فيقول: يا رب، ائذن لي أن أغرق ابن آدم فإنه أكل رزقك وعبد غيرك، وتقول الأرض: يا رب، ائذن لي أن أبتلع ابن آدم، فإنه أكل رزقك وعبد غيرك، وتقول السماء: يا رب، ائذن لي أن أطبق على ابن آدم، فإنه أكل رزقك وعبد غيرك، فيقول الله تبارك وتعالى: ذروهم لو خلقتموهم لرحمتموهم**».

وفي الحديث القدسي: «**يابن آدم، إنك إذا دعوتني ورجوتني غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك، يابن آدم، لو أتيتني يوم القيامة بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئاً، لأتيتك بقرابها مغفرة**»[1]، وانظر هذا الحديث الشريف: «**أذنب عبد فقال: يا رب، اغفر لي، فقال الله: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب ويأخذ بالذنب، فغفرت لعبدي، ثم عاد فأذنب ذنباً فقال: رب اغفر لي، فقال الله: علم عبدي أن له رباً يغفر الذنب، ويأخذ بالذنب، قد غفرت لعبدي، ثم عاد فأذنب ذنباً.. قد غفرت لعبدي، قد غفرت**

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3540)، وأخرجه **الدارمي** في (الحديث: 2/ 322)، وأخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 172).

لعبدي ما دام يستغفرني ويتوب إليّ، وأنا أتوب عليه وأغفر له».

وانظر هذا الحديث القدسي: **«إن الإنس والجن في نبأ عظيم، أخلق ويعبد غيري، أرزق ويشكر سواي، خيري إلى العباد نازل، وشرهم إليّ صاعد، أتودد إليهم برحمتي، وأنا الغنيّ عنهم، ويتبغضون إليّ بالمعاصي وهم أفقر ما يكونون إلي، أهل ذكري أهل مجالستي، فمن أراد أن يجالسني فليذكرني أهل طاعتي أهل محبتي، وأهل معصيتي لا أقنّطهم من رحمتي، إن تابوا إلي فأنا حبيبهم وإن أبوا فأنا طبيبهم، أبتليهم بالمصائب لأطهرهم من المعايب، من أتاني منهم تائباً تلقيته من بعيد، ومن أعرض عني ناديته من قريب، أقول له: أين تذهب؟ ألك رب سواي؟»**، وانظر لهذا الحديث القدسي أيضاً: **«ما غضبت على أحد غضبي على عبدي يفعل الذنب، ثم يتعاظمه جنب مغفرتي وعفوي»**. فيظن العبد أن ذنبه أكبر من مغفرة الله، وأن الله لن يغفر له أو من المستحيل أن يغفر الله له، وهذا من أكثر ما يغضب الله تعالى.

وإليك هذا الحديث القدسي: **«ابن آدم خلقتك بيدي، وربيتك بمعرفتي، وأنت تخالفني وتعصاني، فإن رجعت إلي تبت عليك، فمن أين تجد لك إلٰهاً مثلي، وأنا الغفور الرحيم، عبدي خلقتك من العدم، وأنشأت لك السمع والبصر والقلب والفؤاد، عبدي أسترك ولا تخشاني، أرزقك وأنت تنساني، فمن أعظم مني جواداً، ومن ذا الذي سألني فلم أفتح له، ومن ذا الذي قرع بابي فلم أعطه، أبخيل أنا يبخل عليّ عبدي»**.

وحديث الرسول ﷺ الذي يقول فيه: **«يقول الله: إني لأستحي**

أن يرفع إلي عبدي يديه فأردهما، فتقول الملائكة: إلٰهنا إنه ليس أهلاً لمغفرتك وعفوك: فأقول: ولكني أهل التقوى وأهل المغفرة، أشهدكم أني قد غفرت لعبدي»[1].

ويقول النبيّ ﷺ: «**إن العبد ليلتمس مرضاة الله ويلح على ذلك حتى يقول الله تبارك وتعالى: ألا إن رحمتي على عبدي، فينادي جبريل: رحمة الله على فلان، رحمة الله على فلانة، فينادي حملة العرش: رحمة الله على فلانة فينادي أهل السماء: ألا إن رحمة الله على كل شيء**»[2].

جملة خطيرة: «اللهمّ إنك عفو تحب العفو فاعف عني»، جاء رجل إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسول الله، أنا كثير الذنوب، فهل يعفو الله عني إن تبت إليه؟ فقال له النبيّ: «**نعم يعفو عن كل ما مضى**»، فقال: يا رسول الله، وغدراتي وفجراتي؟ فقال له النبيّ: «**وغدراتك وفجراتك**»، قال: يا رسول الله، وغدراتي وفجراتي؟ قال له: «**وغدراتك وفجراتك**»[3]، فغدا الرجل يقول: الله أكبر العفو يغفر الذنوب.

اطلب العفو من قلبك، فلا تُفضَح يوم القيامة، ولا تُعاتَب أمام جميع البشر.

هذا عن العفو في الدنيا فكيف عن العفو في يوم القيامة؟!

---

(1) أخرجه **الترمذي** في (الحديث: 3556).

(2) أخرجه الإمام **أحمد** في «مسنده» (الحديث: 5/ 279).

(3) أخرجه **الطبراني** في «المعجم الكبير» (الحديث: 6361).

العفو يوم القيامة:

ولننظر إلى العفوّ ماذا يفعل يوم القيامة: جاء رجل إلى النبيّ ﷺ فقال له: من يرى حساب الخلق يوم القيامة؟ فقال النبيّ: «**الله**»، فقال الرجل: بنفسه يا رسول الله؟ فقال النبيّ: «**نعم**»، فابتسم الأعرابي وضحك، فقال له النبيّ ﷺ: «**فما ضحكك؟**»، فقال الأعرابي: إن الكريم إذا قدر عفا، وإذا حاسب سامح، فقال النبيّ ﷺ: «**فقه الأعرابي، ألا كريم أكرم من الله ﷻ**»[1]، وهذا حديث للنبيّ ﷺ: «**إن لله مئة رحمة، أنزل منها إلى الأرض رحمة واحدة يتراحم بها كل الخلائق**»[2]، الآباء والأمهات والأزواج وحتى الحيوانات يتراحمون بهذه الرحمة الواحدة التي أنزلها الله تبارك وتعالى إلى الأرض.

فإذا كان يوم القيامة، ضم الله هذه الرحمة إلى التسعة والتسعين رحمة، كل رحمة كما بين السماء والأرض، ثم بسطها على الأرض، فلا يهلك يومئذ إلا هالك: «**ليغفرن الله يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب بشر، حتى إن إبليس ليتطاول لعله تدركه رحمة الله وعفو الله**»[3]، لكن طبعاً أنّى له هذا.

وانظر أيضاً العفو يوم القيامة، جاء في الخبر: أن رجلاً من أمة محمد يأتي يوم القيامة فيقول الله تبارك وتعالى: ضعوا سيئاته فتفرد سيئاته، فإذا هي تسعة وتسعون سيئة، كل سجل منها كمد البصر فيقرأ سيئاته فتوضع في كفة السيئات، تطيش سيئاته، فيقول

(1) ذكره ابن حجر في «فتح الباري» (1/ 153).
(2) أخرجه مسلم في (الحديث: 6909).
(3) أخرجه السيوطي في «الدر المنثور» (الحديث: 3/ 130).

الله تعالى: ضعوا حسناته، فلا تزن عند الله جناح بعوضة، فيقول الله تبارك وتعالى: أبقي له شيء؟ فتقول الملائكة: نعم يا رب، بطاقة صغيرة، فيقول العبد: يا رب، وماذا تفعل هذه البطاقة، قد هلكت؟ فتوضع بين السجلات، ويقول الله تبارك وتعالى: إني لا يظلم عندي أحد، فتوضع البطاقة، فإذا هي مكتوب عليها: لا إله إلا الله محمد رسول الله، قالها مرة بصدق، لعلها كانت في ليلة القدر، فطاشت السجلات ورجحت كفة الحسنات، فقال النبيّ ﷺ: **«ولا يثقل مع اسم الله شيء»**، ونجا الرجل بلحظة صدق.

يأتي الله تعالى يوم القيامة بالأطفال الذين ماتوا قبل أن يبلغوا الحلم، فيقول لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة، فيقول الأطفال: لا يا رب حتى تعفو عن آبائنا وأمهاتنا، فيدخلون معنا الجنة، فيقول الله تبارك وتعالى: خذوا بيد آبائكم وأمهاتكم فادخلوا بهم الجنة، بشرى للآباء والأمهات الذين فقدوا أولاداً قبل أن يبلغوا الحلم.

يقول سلمان الداري أحد التابعين: لأن سألني يوم القيامة عن ذنبي لأسألنّه عن عفوه، ولأن سألني عن تقصيري لأسألنّه عن رحمته، ولأن قذفني في النار لأخبرن أهل النار أنني أحبه.

خاصية العفو لأمة محمد ﷺ:

وانظر لعفو الله المخصوص بأمة محمد، يقول النبيّ ﷺ: **«عُرضت عليّ الأمم يوم القيامة، فرأيت النبي يمر ومعه الرهط، ورأيت النبي يمر ومعه الرجل، ورأيت النبي يمر وليس معه شيء، ثم عُرض علي سواد عظيم، فقلت: أمتي أمتي، فقيل لي: لا هذا موسى وقومه، ولكن انظر إلى الأفق الآخر، فنظرت فإذا سواد يسد الأفق، فقلت: من هذا؟ فقيل لي: هذه أمتك، فقلت: هذه أمتي؟**

فقيل: نعم، وقيل لي: أرضيت يا محمد؟ فقلت: رضيت يا رب، وقيل لي: ومعهم سبعون ألفاً يدخلون الجنة بغير حساب»[1].

يأتي النبيّ ﷺ وقد دخل المسلمون الجنة، ولا يزال قسم من أمته في النار، فأقول: «يا رب، أمتي أمتي، فيقول الله تبارك وتعالى: عفونا يا محمد، اذهب فانطلق إلى النار، فأخرج منها من كان في قلبه مثقال شعرة من إيمان، فأخرج ناس كثيرون، ثم أعود أقول: يا رب، ما يزال الكثيرين في النار فيحد حداً ويقول لي: أخرج من النار من كان في قلبه مثقال ذرة من إيمان، فأخرج من النار الكثيرين، وبعد ذلك، من كان له مثقال حبة خردل من إيمان فأخرج من النار الكثير، ثم أستحي من ربي أن أستزيد، فيقول الله تبارك وتعالى: شفعت الملائكة، شفع المؤمنون، شفع الأنبياء، شفع حبيبي محمد، لم يبق إلا أرحم الراحمين، أفلا أعفو أنا، فيضع الله تبارك وتعالى قبضته في النار، فيخرج أناس من المسلمين لم يعملوا خيراً قط قد تفحموا، فيلقيهم في نهر يقال له: نهر الحياة، فكأنما ينبتون من جديد، ويكتب على جبينهم: هؤلاء عتقاء الله من النار، فيقال لهم: اذهبوا فادخلوا الجنة فيقول أهل الجنة: هؤلاء الجهنميون، فيقول الله تعالى: لا هؤلاء عتقاء الرحمٰن، فيخرج منهم رجل فيقول له الله: اذهب فادخل الجنة، فيذهب فينظر، فيخيل إليه أنها ملأى، فيعود فيقول: يا رب، وجدتها ملأى، فيقول الله تبارك وتعالى: أما ترضى أن يكون لك ملك كملك أعظم ملك من ملوك الدنيا؟ فيقول: يا رب، أتهزأ بي وأنت رب العالمين؟ فيقول الله تعالى: لك مثل ملك أعظم ملك من ملوك الدنيا ومثله، ومثله، ومثله، ومثله، ومثله... فيقول العبد: رضيت يا رب، فيقول الله تبارك وتعالى:

---

(1) أخرجه الإمام أحمد في «مسنده» (الحديث: 1/ 271) و(الحديث: 1/ 401)، و(الحديث: 1/ 420).

لك مثل ملك أعظم ملك من ملوك الدنيا وعشرة أمثاله، ولك فيها ما اشتهت نفسك، وتمنت عينك، وأنت فيها خالد»[1].

يا اخوتي، خذوا عافيتكم من العفو، حتى تتقووا بها على طاعة الله، تزودوا بالإكثار من الدعاء: اللهمّ انك عفو تحب العفو فاعف عنا، التوبة، التذلل بين يديه.

عن عمر بن الخطاب ﷺ يقول في العشر الأواخر من رمضان: أنظر إلى الناس فأقول: كل الناس مني في حِلّ.

ويقول النبيّ ﷺ: **«رجلان من أمتي جثيا بين يدي الله يوم القيامة، فقال أحدهما: يا رب، خذ لي مظلمتي من أخي، فيقول الله تبارك وتعالى للآخر: رد عليه مظلمته، فيقول: يا رب، فنيت حسناتي، فيقول الله للأول: فنيت حسناته، فيقول: يا رب، خذ لي من سيئاتي واطرحها عليه، فيقول الله للأول: هل لك أفضل من ذلك؟ فيقول: ماذا يا رب؟ فيقول له الله ﷻ: لمن يملك الثمن، فيقول الرجل: ومن يملك الثمن، فيقول: أنت تملكه، فيقول: كيف يا رب، فيقول: بعفوك عن أخيك، فيقول: عفوت يا رب، فيقول الله تبارك وتعالى: خذ بيد أخيك وادخلا الجنة»**[2]، أترى العفوّ؟ اعفوا واصفحوا عن أهليكم وأصحابكم وادعوا لهم، يتقبل الله منا ومنكم.

---

(1) أخرجه الترمذي في (الحديث: 2434).

(2) أخرجه الحاكم في «المستدرك» (الحديث: 4/ 576)، وذكره المنذري في «الترغيب والترهيب» (الحديث: 3/ 309).

فهرس المحتويات

إني جاعل في الأرض خليفة 5

كان الله ولم يكن معه شيء 5

قدّر فيها أقواتها 8

الكون أصبح مهيّأً لخلق آدم وعمارة الأرض 10

خلق الأمور المعنوية 11

1 ـ الرّحم 11

2 ـ باب التوبة 12

3 ـ الرحمة 12

خلق آدم 14

الخلق الشكلي لآدم 14

كيان آدم و«تركيبته الداخلية» 21

الروح «سر من أسرار الله تبارك وتعالى» 23

نظرة الإسلام للإنسان «بعين التوسط والتوازن» 26

خليفة الله على الأرض 31

كيفية تأهيل آدم للخلافة 41
خلق حواء 43
كيفية خلق حواء 46
مشكلة إبليس 49
خصائص إبليس 51
ثمن الجنة غال 54
إنها سبيل الشيطان. . . تزيين المعصية. 56
عرّيهم يفعلوا لك ما بدا لك. 58
الشيطان يدخل لكل جيل بما يناسبه. 60
أحبائي. . . هل حواء هي السبب في معصية آدم. 62
قصة آدم عليه السلام 63
نتائج معصية الله من أكل الشجرة 64
غضب الله من غضب الوالدين 65
يوم القيامة 65
نتائج المعصية 66
طلب المغفرة 66
التذلل إلى الله عز وجل 68
الإسراع إلى التوبة 68

حياة جديدة 70
مخاطبة آدم . . . رسالة الله إلى آدم 71
هبوط آدم على الأرض 72
مرحلة الحياة على الأرض 72
مسؤولية الأرض 73
مكان الهبوط 74
مرحلة التزاوج 74
تكرار المعصية 75
بناء البيت 75
موت آدم عليه السلام 76
علاقة آدم بالنبي محمد ﷺ 76
علاقة آدم بيوم القيامة 77
ملخص قصة آدم 78
نوح عليه السلام 80
أمة محمد كلها مسؤولة عن الإسلام وعمارة الأرض 82
ما الذي أدى إلى بعثة نوح عليه السلام؟ 85
تنَازَل عن الإصلاح في الأرض 87
كم يبلغ عمر سيدنا نوح؟ 88

إخوتي لا تأبهوا لسخرية الآخرين... 92
لنترجم خلافة الأرض إلى الحس العملي 94
أربعة أمور أساسية للدعوة وكسب الفلاح... 96
نتيجة دعوة نوح عليه السلام 97
دعوة نوح على قومه 98
الأمر ببناء الفلك (السفينة) 99
إصرار سيدنا نوح على إصلاح الأرض: 103
صناعة السفينة 104
فوران التنور 105
إصلاح الأهل أولاً 108
نصر نوح والمؤمنين 110
محبة الله للأنبياء 111
إكرام المؤمن 113
نتيجة الصبر 114
لا إصلاح بدون مجتمع متماسك 115
أسباب الانهيار 115
أريد أن أرسم صورة جميلة لعائلة 116
علاقة الأب بولده 118

صداقة والدِيْك 120
أسباب عدم الصحبة 121
نهاية قصة نوح 122
المعنى الأساسي 123
الفكرة المركزية 123
مركزيتك طاعة الله 124
نجاح الفكرة 126
قصة سيدنا إبراهيم عليه السلام **127**
حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام 127
مراحل حياته 127
نتائج الفكرة المركزية 130
ميزان الإنسان 131
بعض مهارات الحياة 135
المواجهات في حياة سيدنا إبراهيم عليه السلام 136
مهارة أدب التعليم 136
المبادرة بدون خجل 140
شجاعة وحكمة 141
مهارات... لا بد لك منها 143

عبدة النجوم 144
التوكل على الله 146
هجرة إبراهيم عليه السلام 153
حكايات تدل على الوكيل ﷻ 155
توكل على الله باختيارك ينعم بحياتك 157
قلدوا سيدنا إبراهيم في توكله 158
اختبار سيدنا إبراهيم في توكله على الله 160
جزاء التوكل على الله 162
ذبح إسماعيل عليه السلام 166
قصة سيدنا يوسف عليه السلام 169
الثبات الأخلاقي 169
كل الأنبياء كان صبرهم إيجابي وعمل 170
يوسف مع أهله وإخوته 171
صبر سيدنا يعقوب 175
تتابع الأحداث 176
يوم اللقاء 176
خطة يوسف 177
العودة إلى فلسطين 180

ثبات يوسف عليه السلام 184
الفساد الاجتماعي والأخلاقي وتعدده 184
بداية المحنة 184
انهيار الحياة الزوجية 186
انهيار مجتمع 191
الانهيار الاقتصادي 195
نتائج الثبات والصبر 202
غالب على أمره 202
قصة آل عمران 205
دور الأسرة في الإصلاح 205
ميزة هذه العائلة 207
تسميتها بآل عمران 207
جذورها 208
الوضع التاريخي 209
ما هو الحل؟ 210
المفاجأة 210
مِحَنَهُم وابتلاءاتهم 216
قصة سيدنا محمد ﷺ 219

قصص الأنبياء 219
حياة رسول الله محمد ﷺ 220
بداية نزول الوحي 220
بداية النبوة 221
بداية الدعوة 222
إيذاء الصحابة 225
موقف خديجة ووفاتها 226
الدعوة خارج مكة 228
هجرة الرسول 228
حجة الوداع 230
اكتمال الرسالة 230
وفاته 231
فضل الدعاء 235
كيفية الدعاء 236
الدعاء مسألة وعبادة 237
استجابة الدعاء 238
نماذج إجابة الدعوات في التاريخ 238
دعاء رسول الله ﷺ 240

الدعاء للجميع 242
شروط الإجابة 242
آداب الدعاء 246
هذا هو المفتاح 247
لماذا اسم العفو 247
هول الموقف 248
العفو والرضى 250
الكبائر والعفو 251
العفو مع التوبة 252
أبشر بالتوبة 253
شروط التوبة 254
أحاديث العفو 255
العفو يوم القيامة 258
خاصية العفو لأمة محمد ﷺ 259
فهرس المحتويات 262